رقم القيد

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

République Algérienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

Ministère de L'enseignement Supérieur et de La Recherche Scientifique

جامعة عين تموشنت بلحاج بوشعيب

Université Ain Témouchent-Belhadj Bouchaib

كلية: الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية

قسم: العلوم الاجتماعية

مخبر: الخطاب التواصلي الجزائري الحديث

أطروحة

مقدمة من أجل نيل شهادة الدكتوراه

ميدان: العلوم الاجتماعية

شعبة: علم النفس

تخصص: علم النفس العيادي

من إعداد : ط/ منقوشي فاطمة

العنوان:

سيكوباتولوجية التوظيف النفسي والانتاج الاسقاطي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري

- دراسة تشخيصية من خلال اختبار الروشاخ -

نوقشت علنا، بتاريخ / / ، أمام أعضاء لجنة المناقشة المكونة من :

اللقب والاسم	الرتبة	الصفة	مؤسسة الانتماء
سعدون سمية	أستاذ محاضر "أ"	رئيسا	جامعة عين تموشنت
كروم موفق	أستاذ محاضر "أ"	مشرفا ومقررا	جامعة عين تموشنت
زاوي أمال	أستاذ محاضر "أ"	ممتحنا	جامعة عين تموشنت
بن أحمد قويدر	أستاذ التعليم العالي	ممتحنا	جامعة مستغانم
فارس زين العابدين	أستاذ محاضر "أ"	ممتحنا	جامعة سيدي بلعباس
جبار شهيدة	أستاذ محاضر "أ"	ممتحنا	جامعة وهران

السنة الجامعية : 2023/2022

الإهـــداء

حان اليوم يا أبي لأرتدي لباس التّخرّج وتأخذ معي الصّورة التّي رسمتَها
بكلّ تفاصيلها وأنت تصارع المرض.
فلم أذق للنّوم طعم وأنا أصارع معك المرض.
حتّى لا ترحل عنّي وينال منّي بعدك المرض
أعلنتُ حربا في قلبي وجنّدتُ جيشا في داخلي،
فكنت كلّ صباح أرتدي لباس المحارب
لنُقاتل المرض لينهار
فكان لنا الانتصار وكان له الانكسار.
أحمد الله لأنّني خلعتُ لباس المحارب يا أبي،
وسأرتدي لباس التّخرج كما شئتَ ... وكما شاءت الأقدار.
اليوم سيتحقّق واحد من أعظم أحلامي... وأنا على مشارف التّخرج أهدي ثمرة تعبي إلى أقــرب النّاس إلى قلبي وروحي والديّ الحبيبين أطال الله في عمرهما... بفضل تربيتكما تمكّنتمــا مــن غرس القيم التّي يتحلّى بها المختصّ النّفسي النّاجح: "الأخلاق، الجدّية، الصّــراحة، الصّــرامة، المثابرة، الطّموح، الدّقة، الالتزام، الاحترام، البساطة، وأخيرا حبّ الآخرين".
كنتما دائما معي بحبّكما ودعمكما المعنوي والمادّي فعلّمتماني كيف أخرِج أفضل ما في داخلــي، وآمنتما بي حتّى في لحظات ضعفي. اليوم سأصبح في أعينكم "دكتورة"...اليــوم أهــديكم هــذه الشّهادة بكلّ حبّ وأنا بكم فخورة.
إلى نصفي الثّاني وتوأم روحي... "أخـــــــــي حبيب قلبي" الذي أفتقده كثيرا في هذه اللّحظات.
إلى سندي وعضدي ومشاطري أفراحي وأحزاني... أخواتي حبيبات قلبي.
إلى ذكريات طفولتي وصديقة عمري الغالية... سليمة.
وأخيرا... إلى كلّ من يحبّني ويفرح لنجاحي.

فاطمة

شكـــــــر وعرفـــان

بعد الحمد لله سبحانه وتعالى الذي وفّقني في إتمام هذه الدّراسة وإخراجها إلى حيّز الوجود، أتقدّم بخالص الشّكر وعظيم الامتنان إلى أستاذي الدّكتور "**موفق كروم**" الذي شرّفني بموافقته على الإشراف على هذا العمل بقلبه الكبير وصبره الجميل رغم انشغالاته العلمية والإدارية، وتحمّلني طيلة هذه المدّة الطّويلة، وزرع في داخلي الثّقة والطّموح وحبّ التّخصّص "علم النّفس العيادي" منذ السّنة الأولى من مشواري الجامعي... أستاذي الفاضل شموع كثيرة تحترق لتنير درب الآخرين، عطاء وآمال وتضحيات من أجل الوصول إلى الأسمى، ومعك حقّقنا كلّ معاني النّجاح.

كما أتوجّه بفائق الشّكر والعرفان إلى أستاذي الفاضل، الذي لا يمكنني أن أتحدّث عن "المنهجية" دون أن أذكر اسمه، الأستاذ الدّكتور "**سميـــــر نعمونـــــي**"، الذي طالما آمن بقدراتي وطموحاتي، وأحسن الظّن بي، وأمسك بيدي إلى الأمام طيلة مشواري الجامعي.... أستاذي الفاضل لكم مني أسمى عبارات الشّكر والتّقدير والامتنان على تشجيعكم الدّائم وحضوركم العلمي والمعنوي منذ بداية مشواري الجامعي وكذلك منذ البدايات الأولى لهذه الدّراسة...تحياتي الخالصة على جدارتكم وصرامتكم العلمية والمنهجية.

والشّكر موصول **لأعضاء لجنة المناقشة** الكرام على تفضّلهم بقبول مناقشة هذه الرّسالة وتصويبها بتوجيهاتهم الجليلة.

ولا يفوتني أن أتوجّه من باب الاعتراف بالجميل، بعمق الشّكر والامتنان لأستاذتي الدّكتورة "**تضيـــــرة عائشة بن عمـــــــــارة**"، على عطائها المتدفّق وأخلاقها العالية... سيظل حبّك والاعتراف بجميلك ساكنا في قلبي.

وأخيرا أتوجّه بالشّكر الجزيل والثّناء الجميل إلى كل **أساتذتي في قسم العلوم الاجتماعية** وإلى كلّ من أسدى معروفا بتوجيه أو نصيحة أو إعارة كتاب...

دون أن أنس **حالات الدّراسة** التيّ لولاها لما اكتمل هذا العمل.

يشهد الله كم أنا ممتنّة لكم بعرفان كبير وشكر كثير...

فشكرا جزيلا لكم جميعا وإن كانت الكلمات لا توفي حقكم والأرقام لا توفي فضلكم

✍ فـاطمة

الملخص:

هدفت هذه الدّراسة إلى الكشف عن طبيعة التّوظيف النّفسي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري من خلال إنتاجه الإسقاطي باستخدام اختبار الروشاخ. وتمّ تطبيق الدّراسة على حالتين، تم اختيارهما بطريقة قصدية.

ولبلوغ هذا الهدف، تم الاعتماد على المنهج العيادي القائم على دراسة الحالة، باستخدام مجموعة من الأدوات، تمثّلت في المقابلة العيادية النّصف موجهة، الملاحظة العيادية، فحص الهيئة العقلية، التّشخيص التّصنيفي (DSM IV TR)، التّشخيص البنيوي، واختبار الروشاخ.

وتوصّلت الدّراسة إلى النّتيجة التّالية: يتميّز التّوظيف النّفسي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري بتنظيم حدّي بدفاعات عصابية من خلال الانتاج الاسقاطي لاختبار الروشاخ.

الكلمات المفتاحية: السّيكوباتولوجيا، التّوظيف النّفسي، الإنتاج الإسقاطي، اضطراب الوسواس القهري، اختبار الروشاخ.

Abstract:

This study aimed to reveal the nature of the psychic functioning of patient with obsessive compulsive disorder through his projective production versus the Rorschach test. The study concluded two cases, it was selected by deliberate manner.

To acheive this goal, the clinical approach based on the case study was adopted, by using a range of tools, such as the semi-directive clinical interview, the clinical observation, the mental status examination, the taxonomic diagnosis (DSM IV TR), the structural diagnosis, and the Rorschach test.

The study found the following result:

- The psychic functioning of the patient with obsessive compulsive disorder is characterized by borderline organization with a neurotic defenses through the projective production versus the Rorschach test.

Keywords : Psychopathology, Psychic functioning, projective production, Obsessive compulsive disorder, Rorschach test.

قائمة المحتويـات

الموضـــوع	الصفحة
الإهداء	أ
شكر وعرفان	ب
الملخص	ج
قائمة المحتويـــات	د
قائمة الجداول	هـ
قائمة الأشكال	و
قائمة الملاحـق	ز
قائمة المختصرات	ح
المقدّمـــــــــــــة	01
الفصـــل الأول تقديم الدّراسة	
تمهيد	06
1. إشكاليـــة الدّراســـة	06
2. فرضيّات الدّراســـة	15
3. أهـــداف الدّراســـــة	15
4. أهمّيـــة الدّراســـة	16
5. التّعاريف الإجرائية لمتغيّرات الدّراسة	17
6. الدّراسات السابقة	17
1.6. التّعقيب على الدّراسات السّابقة	22
خلاصة الفصل	26
الفصـــل الثاني التّوظيف النّفسي والإنتاج الإسقاطي	
أولا – التّوظيـــف النّفســـــي	
تمهيد	28
1. المقاربة الميتاسيكولوجية للتّوظيف النّفسي	28

1.1. مفهوم الميتاسيكولوجيا	29
2.1. مفهوم التّوظيف النّفسي	30
3.1. مفهوم الجهاز النّفسي	32
4.1. وجهات النّظر الميتاسيكولوجية للتّوظيف النّفسي	33
1.4.1. وجهة النّظر الموقعية	34
1.1.4.1. الموقعية الأولى	35
2.1.4.1. الموقعية الثّانية	41
2.4.1. وجهة النّظر الدّينامية	46
3.4.1. وجهة النّظر الإقتصادية	49
5.1. سيرورات التّوظيف النّفسي	50
1.5.1. السّيرورات الأوّلية	51
2.5.1. السّيرورات الثّانوية	51
6.1. مبادئ التّوظيف النّفسي	52
1.6.1. مبدأ الثّبات	52
2.6.1. مبدأ اللّذة / مبدأ الواقع	52
3.6.1. مبدأ التّكرار	54
7.1. أنماط التّوظيف النّفسي	55
1.7.1. التّوظيف العصابي	55
2.7.1. التّوظيف الذّهاني	57
3.7.1. التّوظيف الحدّي	58
8.1. الميكانيزمات الدّفاعية	59
1.8.1. مفهوم الدّفاع النّفسي	59
2.8.1. مفهوم الميكانيزمات الدّفاعية	61
3.8.1. أنواع الميكانيزمات الدّفاعية	63
ثانيا– الإنتاج الإسقاطي	
1. الإسقاط	69
1.1. التّطوّر التّاريخي لمصطلح الإسقاط	69
2.1. مفهوم الإسقاط	71
1.2.1. مفهوم الإسقاط عند سيجموند فرويد Sigmund Freud	73

3.1. أنواع الإسقاط	77
2. الاختبارات الإسقاطية	78
1.2. تاريخ الاختبارات الإسقاطية	78
2.2. تعريف الاختبارات الإسقاطية	80
3. مفهوم الإنتاج الإسقاطي	83
4. اختبار الروشاخ	85
1.4. التّطوّر التّاريخي لاختبار الروشاخ	85
2.4. إنتشار اختبار الروشاخ	93
1.2.4. إنتشار اختبار الروشاخ في الجزائر	95
3.4. وصف اختبار الروشاخ	97
4.4. طريقة تطبيق اختبار الروشاخ	102
5.4. شبكة تحليل اختبار الروشاخ	106
خلاصة الفصل	108

الفصل الثالث
اضطراب الوسواس القهري

تمهيد	110
1. التّطور التّاريخي لاضطراب الوسواس القهري	110
2. مفهوم اضطراب الوسواس القهري	114
1.2. الوسواس القهري لغة	114
2.2. الوسواس القهري اصطلاحا	115
3. معطيات وبائية حول اضطراب الوسواس القهري	118
1.3. معدّل الإنتشار	118
2.3. سنّ البدء	119
3.3. عوامل الخطر	120
4. الأعراض الإكلينيكية لاضطراب الوسواس القهري	120
5. الأشكال الإكلينيكية لاضطراب الوسواس القهري	121
6. النّماذج التّفسيرية لاضطراب الوسواس القهري	125
1.6. نموذج التّحليل النّفسي	125
1.1.6. نموذج البسيكاستينيا	125

2.1.6. نموذج عصاب الوسواس	128
2.6. النّموذج المعرفي السّلوكي	134
1.2.6. النّموذج السّلوكي	134
2.2.6. النّموذج المعرفي	135
3.6. النّموذج العصبي التّشريحي	138
1.3.6. نموذج باكستر Baxter	138
2.3.6. نموذج شوارتز Schwartz	139
4.6. النّموذج العصبي البيولوجي	140
1.4.6. النّظام السّيروتونينارجي	140
2.4.6. النّظام الدّبامينارجي	141
3.4.6. نظام الغلوتامات	142
5.6. النّموذج الجيني	142
7. التّشخيص الفارقي لاضطراب الوسواس القهري	143
8. تشخيص اضطراب الوسواس القهري	149
9. علاج اضطراب الوسواس القهري	152
1.9. العلاج الدّوائي	153
2.9. العلاج النّفسي	155
1.2.9. العلاج بالتّحليل النّفسي	155
2.2.9. العلاج المعرفي السّلوكي	155
10. مآل اضطراب الوسواس القهري	159
خلاصة الفصل	160

الفصل الرابع
الإجراءات المنهجية للدّراسة

تمهيد.....	162
1. الدّراسة الاستطلاعية	162
1.1. حالات الدّراسة الاستطلاعية	163
1.1.1. خصائص حالات الدّراسة الاستطلاعية	163
2.1. نتائج الدّراسة الاستطلاعية	164
1.2.1. مؤشّرات التّنظيم العصابي الوسواسي	166

2.2.1. الفرضيات الإجرائية	167
2. منهج الدّراسة	169
1.2. المنهج العيادي	169
3. حدود الدّراسة	171
1.3. الحدود الزّمانية	171
2.3. الحدود المكانية	171
4. حالات الدّراسة	171
4. 1. خصائص حالات الدّراسة	171
5. أدوات الدراسة	172
1.5. دراسة الحالة	172
2.5. المقابلة العيادية	172
3.5. الملاحظة العيادية	174
4.5. فحص الهيئة العقلية	174
5.5. التّشخيص التّصنيفي (DSM IV TR)	175
6.5. التّشخيص البنيوي	175
7.5. اختبار الروشاخ	176
خلاصة الفصل	179

الفصل الخامس
عرض وتحليل ومناقشة نتائج الدّراسة

تمهيد	181
1. عرض وتحليل نتائج الدّراسة	181
1.1. عرض وتحليل نتائج الحالة الأولى	181
1.1.1. تقديم الحالة الأولى	181
2.1.1. فحص الهيئة العقلية للحالة الأولى	181
3.1.1. التّشخيص التّصنيفي (DSM IV TR) للحالة الأولى	183
4.1.1. التّشخيص البنيوي للحالة الأولى	184
5.1.1. تحليل المقابلات العيادية للحالة الأولى	185
6.1.1. عرض وتحليل نتائج اختبار الروشاخ للحالة الأولى	192
1.6.1.1. عرض نتائج اختبار الروشاخ للحالة الأولى	192

2.6.1.1. تحليل نتائج اختبار الروشاخ للحالة الأولى	196
2.1. عرض وتحليل نتائج الحالة الثّانية	203
1.2.1. تقديم الحالة الثّانية	203
2.2.1. فحص الهيئة العقلية للحالة الثّانية	203
3.2.1. التّشخيص التّصنيفي (DSM IV TR) للحالة الثّانية	205
4.2.1. التّشخيص البنيوي للحالة الثّانية	206
5.2.1. تحليل المقابلات العيادية للحالة الثّانية	207
6.2.1. عرض وتحليل نتائج اختبار الروشاخ للحالة الثّانية	213
1.6.2.1. عرض نتائج اختبار الروشاخ للحالة الثّانية	213
2.6.2.1. تحليل نتائج اختبار الروشاخ للحالة الثّانية	221
2. مناقشة فرضيات الدّراسة	231
1.2. مناقشة الفرضية الرّئيسة	231
2.2. مناقشة الفرضية الجزئية الأولى	238
3.2. مناقشة الفرضية الجزئية الثّانية	238
3. استنتاج عام	240
الخاتمـــــــــــــــة	243
الاقترحات	247
قائمة المراجع والمصادر	250
الملاحق	—

قائمة الجداول

رقم الجدول	عنوان الجدول	الصفحة
1	الفرق بين اضطراب الوسواس القهري واضطراب القلق المعمّم حسب Ladouceur et Coll	145
2	خصائص حالات الدّراسة الاستطلاعية	163
3	نتائج الدّراسة الاستطلاعية	164
4	خصائص حالات الدّراسة	171
5	بروتوكول الروشاخ للحالة الأولى	192
6	المخطّط النّفسي للحالة الأولى	194
7	بروتوكول الروشاخ للحالة الثّانية	214
8	المخطّط النّفسي للحالة الثّانية	218

قائمة الأشكال

رقم الشكل	عنوان الشكل	الصفحة
1	مخطط الجهاز النّفسي حسب الموقعية الأولى	41
2	كيفية أداء اضطراب الوسواس القهري حسب تمثّل Paul Salkovskis	137
3	تقنية السّهم التّنازلي	158

قائمة الملاحق

رقم الملحق	عنوان الملحق
1	لوحات اختبار الروشاخ
2	قائمـــــة المصطلحـــــات

قائمة المختصرات

المختصر	اللّغة الفرنسية	اللّغة العربية	اللّغة الانجليزية
APA	Association Américaine de Psychiatrie	الجمعية الأمريكية للطّب العقلي	American Psychiatric Association
CAPU	Centre D'aide Psychologique Universitaire	مركز المساعدة النّفسية الجامعي	University Psychological Help Center
CCA	Cortex Singulaire Antérieur	القشرة الحزامية الدّاخلية	Anterior Cingulate Cortex
CDEDL	Cortex Préfrontal Dorso-Latéral	الفصّ الجبهي الظّهراني	Dorsolateral Prefrontal Cortex
CIM	Classification Internationale des maladies	التّصنيف الدّولي للأمراض	International Classification of Diseases
COF	Cortex Orbito-Frontal	القشرة المخية الجبهية	Orbitofrantal Cortex
CREAPSY	Centre De Recherche D'édition Et D'applications Psychologiques	مركز البحث والنشر والتّطبيقات النفسية	Psychological Publishing and Applications research Center
CSTC	Boucle Cortico-Striato-Thalamo-Cortical	حلقة قشرة المخطّط المهاد القشرية	Cortico-Basal Ganglia-Thalamo-Cortival Loop
DSM	Manuel Diagnostique Et Statistique Des Troubles Mentaux	الدليل التّشخيصي والاحصائي للاضطرابات العقلية	Diagnostic And Statistical Manual of Mental Disorders
EGF	Echelle Globale du Fonctionnement	السّلم الشّامل للأداء	Global Assessment of Functioning
EPR	Exposition avec Prévention de Réponse	التّعرض مع منع الاستجابة	Exposure And Response Prevention
IRM	Imagerie de résonnance Magnétique	صورة الرّنين المغناطيسي	Magnetic Resonance Imaging
ISRS	Inhibiteurs Sélectifs de Recapture à la Sérotonine	المثبّطات إعادة امتصاص السّيروتونين الإنتقائية	Selective Serotonin Reuptake Inhibitors
POC	Personnalité obsesionnelle Compulsive	الشخصية الوسواسية القهرية	Obsessive Compulsive Personality
QEP	Questionnaire D'évaluation de la peur	استبيان تقييم الخوف	Fear evaluation Questionnaire
SARP	Société Algérienne de la Recherche en Psychologie	الجمعية الجزائرية للبحث في علم النّفس	Algerian Society for Resaerch in Psychology
SNC	Système Nerveux Central	الجهاز العصبي المركزي	Central Nervous System
TAG	Trouble Anxieux Généralisé	اضطراب القلق المعمّم	Generalized Anxiety Disorder
TAT	Test d'Aperception Thématique	اختبار تفهّم الموضوع	Thematic Apperception Test
TCA	Troubles de Conduites Alimentaires	اضطرابات السّلوك الغذائية	Eating Disorders
TCC	Thérapie Cognitive Comportementale	العلاج المعرفي السّلوكي	Cognitive Behavioral Therapy
TEMP	Tomographie Monophotonique	التصوير المقطعي أحادي الفوتون	Single Photon Tomography
TEP	Tomographie Par Emission de Positions	التّصوير المقطعي بالإصدار البوزيتروني	Single Photon Emission Computed Tomography
TIC	Trouble involontaire convulsif	اضطراب التّشنّج اللّاإرادي	Involuntary Seizure Disorder
TOC	Trouble obsessionnel compulsif	اضطراب الوسواس القهري	Obsessive Convulsive Disorder

المقدمـــــــــة

المقدمـــــــــة:

إذا كان التّفكير سيرورة عقلية لا تتوقّف حتّى أثناء النّوم، فإنّ الفكرة الشّعورية ليست سوى "منتوج" نهائي لهذه السّيرورة التّي لا نتعرّف دائما على مصدرها ولا على مسارها. ومن جهة أخرى إذا كان بإمكاننا أن نستحضر أيّة فكرة نشاء، فإنّه من غير الممكن أن نتوقّف عن التّفكير، فلا نلبث لنستحضر نيّة التّفكير حتّى قبل أن تخطر الفكرة بالعقل، ومع ذلك فإن وجود الفكرة بالعقل لا يعني أنّها دائما مقبولة.

لا يوجد شخص منّا لا تراوده وساوس أو أفكار مزعجة وهو أمر طبيعي نختبره جميعا من حين لآخر، ويمكن أن نصف هذا التّفكير الوسواسي العابر كـ "ومضة" (Un flash) ستذهب حتما مثلما أتت. لكن أحيانا، يحدث تماما مثلما يحدث لجهاز كمبيوتر معطّل، تَعرِض شاشة وعينا معلومات مؤلمة، غير متوقّعة، نضطرّ إلى تحمّلها ونكافح ضدّها، ومن خلال هذا الرّفض والكفاح تتشكّل الوساوس (Cottraux, 1998, p. 09).

تكون الفكرة "وسواسية"، لأنّها ملحّة، متكرّرة، تتدخّل في التّفكير المنطقي المنظّم، فتُسيء إليه وتعيق الحياة اليومية. ويكون الفعل "قهريّا"، لأنّه جبريّ، إلزاميّ، يفرض على صاحبه طقوسا نمطية تستهلك الكثير من وقته وتستنزف العديد من طاقاته. فتبدأ حلقة مفرغة رهيبة بين الفكرة الوسواسية والفعل القهري، وهذا ما يعرف باضطراب الوسواس القهري.

ما يحدث أنّه رغم اعتراف المصاب بسخافة أفكاره، وتعريضها لمعايير المنطق، إلّا أنّه لا يقبلها بشكل قاطع، يشكّ، يجترّ، يتألّم، يشعر بالذّنب، بالمسؤولية، فيتأهّب للخطر بعدما يطلق عقله "صفارات إنذار" ليقوم بأفعال قهرية يحمي نفسه من خلالها. وفي انتظار الخروج من الحلقة المفرغة، يغوص المصاب في جملة لا منتهية من

الممارسات ولو أنّها تبدو "مطمئنّة"، إلّا أنّها تأخذ صورة "مخادعة" لذاته التّي تقع في فخّ الوسواس القهري.

على الرّغم من المحاولات النّزولوجية (Nosologiques) الغزيرة التّي عرفها تاريخ الوسواس القهري، والتّي تسعى في مجملها إلى ترتيب وتصنيف هذا الاضطراب من خلال وصف أعراضه الباثولوجية وتشخيصه تشخيصا دقيقا صارما يقوم على خصائص ومعايير مضبوطة. إلّا أنّ ذلك لا يكفي لفهم ما يحدث داخل المصاب. كذلك على الرّغم من تقدّم العلاج الدّوائي، يبقى هذا الأخير عاجزا عن القضاء بشكل نهائي على هذه الأعراض الموصوفة، وهو ما يجعلنا ننظر عادة إلى مرضى الوسواس القهري بأنّهم مُستعصيو العلاج. قد يعود السّبب في ذلك إلى عدم تحليل المعنى اللاّشعوري الذي يعطي معناه الكامل للعرض، فيصبح من الضّروري عياديا الغور وبعمق في العالم النّفسي الدّاخلي لدى المصاب بهذا الاضطراب.

وباعتبار التّوظيف النّفسي تنظيم متعلّق بنمط أو طريقة سير الجهاز النّفسي وهو ما يؤكّد عليه بيرون Perron (1981, p. 1061)، يصبح الاعتماد على هذا الأخير أمرا ضروريا للبحث في أعماق الحياة النّفسية لدى المصاب، لأنّه سيفيدنا بلا شكّ في فهم جميع العمليات النّفسية الدّاخلية ومن ثمّة التّغيرات الباتولوجية التّي تصيب جهازه النّفسي. ولعلّ هذا ما جعل المهتمّين بعلم النّفس المرضي التّحليلي والإسقاطي يتّخذون من التّوظيف النّفسي وسيلة للكشف عن الحياة النّفسية المرضية المعقّدة ومظاهرها بصفة مكثّفة ومختزلة في تقنيات مضبوطة تسمّى الاختبارات الإسقاطية على غرار اختبار الروشاخ وTAT.

وفي هذا السّياق جاءت هذه الدّراسة للكشف عن طبيعة التّوظيف النّفسي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري انطلاقا من إنتاجه الإسقاطي في اختبار الروشاخ.

ولتغطية الموضوع والإلمام بجميع متغيّراته، تمّ تقسيم الدّراسة إلى جانبين، الأوّل هو الجانب النّظري، ويضمّ ثلاثة فصول، تناول **الفصل الأوّل** تقديم الدّراسة من خلال بناء الإشكالية وصياغة فرضياتها وفق ما معمول به منهجيا في الدّراسات الأكاديمية في مجال التّخصص، وتحديد أهدافها وأهمّيتها، وصولا إلى ضبط المفاهيم الإجرائية لمتغيراتها، وأخيرا استعراض عدد من الدّراسات السّابقة ذات الصّلة بموضوع الدّراسة والتّعقيب عليها.

أمّا **الفصل الثّاني**، فتمّ تقسيمه إلى جزأين، تضمّن الأوّل متغيّر التّوظيف النّفسي من خلال الوقوف على جميع المفاهيم الخاصّة به بما فيها الميتاسيكولوجيا، الجهاز النّفسي، وجهات النّظر الميتاسيكولوجية للتّوظيف النّفسي، سيروراته، مبادئه، أنماطه، وأخيرا الميكانيزمات الدّفاعية.

وتضمّن الجزء الثّاني، متغيّر الإنتاج الإسقاطي بدءً بالوقوف على لمحة تاريخية لمفهوم الإسقاط، تعريفه، أنواعه، ثمّ الاختبارات الإسقاطية من حيث تطوّرها التّاريخي ومفهومها، وصولا إلى مفهوم الإنتاج الإسقاطي، واختبار الروشاخ من خلال تطوّره التّاريخي، انتشاره في العالم الغربي وفي الجزائر، طريقة تطبيقه وتصحيحه، وأخيرا خلاصة للفصل.

وتناول **الفصل الثّالث** متغيّر اضطراب الوسواس القهري، بداية بخلفية تاريخية حوله، ثمّ تعريفه، معطيات وبائية حوله، أعراضه، أشكاله، أهمّ النّماذج المفسّرة له، تشخيصه، طرق علاجه، مآله، ثم خلاصة للفصل.

أمّا الجانب الثّاني، فقد خُصّص للدّراسة الميدانية، ويضمّ فصلين، **الفصل الرّابع** تناول الإجراءات المنهجية للدّراسة بما فيها الدّراسة الاستطلاعية، منهج الدّراسة، حدودها الزّمانية والمكانية، حالاتها، أدواتها، لينتهي الفصل بخلاصة.

و**الفصل الخامس** خُصّص لعرض وتحليل نتائج الدّراسة ومناقشة فرضياتها، ثمّ خاتمة، متبوعة بجملة من الاقتراحات، تليها قائمة المصادر والمراجع المعتمدة، وأخيرا قائمة الملاحق.

الفصل الأول
تقديم الدّراســـة

تمهيد

1. إشكاليـة الدّراسـة

2. فرضيات الدّراسة

3. أهـداف الدّراســة

4. أهمّيــة الدّراســة

5. التّعاريف الإجرائية لمتغيّرات الدّراسة

6. الدّراسات السّابقة

الفصل الأول
تقديم الدراســة

تمهيد:

يتضمّن هذا الفصل تقديم الدّراسة من حيث الأسس المنهجية التي تُبنى على أساسها، بداية ببناء الإشكالية وصياغة فرضياتها، وتحديد أهدافها وأهمّيتها، يلي ذلك ضبط المفاهيم الإجرائية لمتغيّراتها، وصولا إلى استعراض عدد من الدّراسات السّابقة ذات الصّلة بموضوع الدّراسة والتّعقيب عليها.

1. إشكالية الدّراسة:

تختصّ السّيكوباتولوجيا أو علم النّفس المرضي (Psychopathologie) بميدان غالبا ما يتمّ الخلط بينه وبين الطّب العقلي (Psychiatrie). إلاّ أنّه بالرّغم من تقارب ميادين ومواضيع التّخصّصين، استطاع علم النّفس المرضي مع بداية القرن العشرين أن ينعزل عن الطّب العقلي، فظهر كعلم قائم بذاته، وأخذ منحى علميا ابتعد من خلاله عن الطّب الفلسفي واستند على المنهج "الباتولوجي" (La méthode pathologique) مع تييودول ريبو Théodule Ribot (Perron, 2015, p.164)، لتتحدّد تدريجيا أهداف ومواضيع ومنهجية هذا العلم بفضل الجهود المتواصلة التي أعطت دفعة كبيرة لبروزه بقوّة، خاصّة بعد إثرائه بعدد متنوّع من النّماذج والمقاربات التي تعنى بتفسير الاضطرابات النّفسية ومسبّباتها.

تمثّل الاضطرابات النّفسية الصّورة الإكلينيكية للفرد في معاناته النّفسية، وبهذا المعنى يتميّز التّشخيص السّيكوباتولوجي عن التشخيص السّيكاتري الذي غالبا ما يركّز على الأعراض الظّاهرة على مستوى سلوك المريض أو ما يُعرف بـ "الأعراضية" (La symptomatologie)، دون اهتمامه بالآليات النّفسية التّي تكمن وراء الاضطراب النّفسي. وعلى خلاف ذلك، يتناول التّشخيص السّيكوباتولوجي جميع حالات المعاناة النّفسية مهما كان مصدرها وشدّتها. فالحداد مثلا ليس مرضا، ولكنّه يتضمّن معاناة تحدّد لعلم النفس المرضي للحداد (La psychopathologie du deuil) مهمّة التّشخيص السّيكوباتولوجي من خلال تحليل جميع الميكانيزمات التي تكمن وراء هذه المعاناة. وفي هذا الصّدد يرى مينكوفسكي Minkowski أنّ علم النّفس المرضي يشير في آن واحد إلى كلّ من علم النّفس الباتولوجية (Psychologie du pathologique) وباتولوجية علم النّفس

(Pathologie du psychologique)، وكلا المفهومين يشيران إلى مجمل النّظريات التي تطرح فهما وتفسيرا للاضطرابات النّفسية من خلال الكشف عن الميكانيزمات الأساسية والسّببية (L'étiopathologie) المؤدية إلى الاضطراب النّفسي. ليصبح بهذا المفهوم الدّراسة العلمية لاختلالات التّوظيف النّفسي (Combaluzier, 2009, p. 10).

وما هو مسلّم به في حقل علم النّفس المرضي أنّ التّوظيف النّفسي هو الذي يعطي معنى للعرض وليس العكس. وانطلاقا من هذا الاعتبار يصبح فهم التّوظيف النّفسي أمرا ضروريا لاستخراج النّماذج السّيكوباتولوجية التّي تتنوّع بتنوّع السّياقات الدّفاعية التّي يختصّ بها كل نموذج (العصابي، الذّهاني، الحدّي).

التّوظيف النّفسي إذن هو مؤشّر هامّ لفهم الحياة النّفسية العميقة للفرد. فهو الطّريقة التّي تعمل بها البنية النّفسية، وهو يميّزها عن باقي البنيات، إنّه مجموع الجوانب والعلامات الظّاهرة والخفيّة التّي ترسم مظهرا وصورة متكاملة لشخصية الفرد، ليجعلانه بذلك متفرّدا ومتميّزا عن الآخر (Ghemmour, 2017, p. 06).

وفي هذا الاتّجاه، يوضّح روّاد التّحليل النّفسي، أنّ التّوظيف النّفسي مرتبط بوظائف الجهاز النّفسي الثّلاث (الهو، الأنا، الأنا الأعلى) وبآلياته الدّفاعية، فتناولوه من منظور اقتصادي دينامي، واعتبروه استثمارا للطّاقة النّفسية. فحركة وتفريغ طاقة الدّوافع وتوزيعها يُعبّر عنها من خلال توظيف بعض السّيرورات النّفسية بين أركان الجهاز النّفسي (نحوي وبوفج، 2017، ص254). وانطلاقا من وجهة النّظر هذه يُصبح فهم التّوظيف النّفسي من الأمور المركّبة لأنّه يرتكز على مجموعة من العمليات النّفسية الدّاخلية التّي تخضع بدورها إلى عدد من القوانين النّفسية المركّبة التّي تتفاعل مع العالم الخارجي انطلاقا من المكوّنات الميتاسيكولوجية التي تشملها البنية (Structure) أو التّنظيمة (Organisation) النّفسية الخاصّة بكلّ فرد (Cupa& Pirlot, 2010, pp. 61-62).

وفي هذا السّياق، يذهب روجر بيرون Roger Perron إلى تناول مفهوم التّوظيف النّفسي من خلال مفهوم "البنية"، فوصفه بأنّه بنية مركّبة (Perron, 2015, p.12)، لما تتميّز به من سمات وخصائص، ولما يحرّكها من رغبات ودوافع، ولما يختلجها من مخاوف وانزعاج، ولما يكوّنه الفرد من علاقات مع الآخرين، ولما ينتهجه من طرق لحلّ مشكلاته. وبهذا المعنى يحمل التّوظيف النّفسي مضمونا معرفيا إدراكيا وآخرا علائقيا انفعاليا (Anzieu& Chabert, 2014, p.312)، وهو ما

يشير إلى بنية الشّخصية في قطبها النّرجسي والموضوعي. وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار البنية الأساس النّفسي الذي يحدّد العمليات النّفسية التّي تقود نحو نمط توظيف نفسي معيّن. فكل بنية تُنتظم حسب نوعية القلق، طبيعة الصّراع، طبيعة العلاقة بالموضوع، العلاقة بين أركان الجهاز النّفسي، والآليات الدّفاعية المستخدمة، وتحت كل بنية يندرج توظيف نفسي معيّن. فهم التّوظيف النّفسي إذن يصبّ في قالب التّشخيص البنيوي الّذي يسمح بتحديد جميع هذه المكوّنات الميتاسيكولوجية، وهي جميعها عناصر مهمّة لتفسير الطّبيعة النّفسية الدّاخلية للصّراع النّفسي الذي يعطي معنى للعرض، وهذا ما يعيدنا إلى دراسة الحالة بصفة متفرّدة وبطريقة معمّقة تقود نحو سجّلات (Registres) مختلفة من التّوظيف النّفسي.

لقد كان التّحليل النّفسي أحد مقاربات التّشخيص السّيكوباتولوجي[1] التّي تضمن صرامتها في تفسير الاضطرابات النّفسية بمختلف أشكالها وأنواعها. فإلى جانب السّيرورات الشّعورية أعاد هذا التّحليل النّفسي الاعتبار إلى السّيرورات اللّاشعورية، وأكّد على دورها المحوري في تشكّل العرض. وعلى هذا الأساس تُعتبر السّيكوباتولوجيا التّحليلية إحدى المجالات المثمرة في المجال السّيكوباتولوجي من خلال التّوغل في أعماق الحياة النّفسية للفرد. حيث تسمح هذه الأخيرة باستخراج نماذج متنوّعة من التّوظيف النّفسي، وذلك بالرّجوع إلى التّنظيمات الصّراعية الثّلاثة الكبرى (العصابية، الذّهانية، والحدّية).

وفي حديثنا عن التّوظيف النّفسي العصابي، فإنّ هذا الأخير يضمّ مختلف السّمات والأعراض العصابية من أبسطها وأخفّها توازنا إلى أعقدها وأخطرها اختلالا. وفي هذا الشّأن تؤكّد شابير وفيردو Chabert et Verdon (2018, p. 150) على عدم التّقليل من أهمية الاضطرابات العصابية، لأنّ ذلك لا يضمن مرونة وثراء التّوظيف النّفسي. فقد تكون هذه الاضطرابات خطيرة ومتكرّرة تؤدّي إلى إصابات مهمّة في التّوظيف النّفسي، يتمّ التّعبير عنها في غالب الأحيان من

[1] اقترح سيربان ايونسكو Serban Ionescu سنة 1992 (14) مقاربة في علم النّفس المرضي لتفسير الاضطرابات النفسية وتتمثّل في: مقاربة التّحليل النّفسي (Psychanalytique)، المقاربة البنيوية (Structuraliste)، المقاربة الظّواهرية (phénoménologique)، المقاربة الوجودية (Existentialiste)، المقاربة اللّانظرية (Athéorique)، المقاربة السّلوكية (Behavioriste)، المقاربة البيولوجية (Biologique)، المقاربة المعرفية (Cognitiviste)، المقاربة التّجريبية (Expérimentaliste)، المقاربة الاجتماعية (Sociale)، المقاربة النّمائية (Développementale)، المقاربة الإيكونسقية (Écosystémique)، المقاربة الإثنوسيكوباتولوجية (Éthnopsychopathologie)، والمقاربة الإيثولوجية (Éthologique) (Bonnet & Fernandez, 2007, p. 17).

خلال كفّ ثقيل (Inhibition lourde) في مجالات مختلفة من حياة الفرد (انفعالية، معرفية، علائقية، جنسية...).

واضطراب الوسواس القهري أو ما يُعرف عادة بـ"TOC" في أوساطنا العيادية، هو أحد الاضطرابات النّفسية المعقّدة التّي قال عنها سيجموند فرويد Sigmund Freud سابقا بأنّها أغنى العصابات (Le plus riche des névroses) من حيث خصوصيته العيادية والبنيوية والتّطوّرية. أمّا بيار جانيه Pierre Janet فقد وصفه من قبل بـ "الشّغف في الاستثمار الفكري" الذي يسيء إلى صاحبه ويسبّب له الألم والمعاناة النّفسية (Brunot, 2005,p. 14). كلّ هذه المواصفات التّي قدّمها النّموذج التّحليلي وغيرها جعلت من الوسواس القهري أحد العصابات التّي تحتلّ خصوصية مميّزة ضمن التّوظيفات العصابية نظرا للطّبيعة المتصلّبة للأنا الأعلى.

والوسواس القهري هو اضطراب نفسي شائع، يوجد في جميع الثّقافات والمجتمعات (Hanus& Oivier, 2010, p. 159)، يتميّز بوجود وساوس (Obsessions) و/أو القهر (Compulsions)، فيؤثّر على نوعية الحياة، ويُعيق توافق الفرد ويهدر ووقته وجهده، ويُعطّل أداءه وتفكيره (Martinroche, 2020, p.16).

تُعرّف الوساوس بأنّها أفكار أو دوافع أو تمثّلات أو شكوك تستحوذ على تفكير المصاب، فيشعر بأنّها خارجة عن إرادته، وتسبّب له ضيقا كبيرا، فيبذل جهدا معتبرا لتجاهلها أو قمعها أو تحييدها(Neutraliser) بواسطة أفكار أو أفعال ترتبط بالقهر (Charpeaud et al, 2015, pp. 92-93).

أمّا القهر فيشير إلى الطّقوس (Rituels) المرضية التّي يشعر المصاب بأنّه مجبر على القيام بها لمواجهة ما يشعر به من قلق تجاه ما ينتابه من أفكار وسواسية. وهو بذلك عبارة عن سلوكيات أو أفعال عقلية تأخذ صورة معاودة ومتكرّرة، وتهدف إلى التّقليل من حالة الكرب والضّيق التّي لا ترتبط بأسباب منطقية (Martinroche, 2020, p.16).

يحتلّ اضطراب الوسواس القهري المرتبة الرّابعة من بين الاضطرابات النّفسية الأكثر انتشارا بعد الفوبيا، الإدمان، والاكتئاب. وتُظهر الدّراسات الوبائية انتشاره بنسبة تتراوح من 1% إلى 3% من مجموع السّكان (Martinroche,2020, p. 19). كما تُقدّر نسبة انتشاره في مدّة ستة أشهر ما بين 0,7% و 2,2% من مجموع السّكان، وما بين 1,9% و3,2% (Tazi, 2018, p. 07). هذه

الإحصائيات المخيفة جعلت هذا الاضطراب يحظى باهتمام واسع من طرف الباحثين في مجال علم النّفس العيادي وعلم النّفس المرضي، فتناولوه بالدّراسة والبحث من وجهات نظر متنوّعة، سواء من وجهة تحليلية أو سلوكية أو معرفية.

وبذكر وجهات النّظر هذه، لا يفوتنا الحديث عن ما قدّمه التّحليل النّفسي من محاولات جادّة لتفسير هذا الاضطراب، فبتركيزه على معنى العرض، ومن خلال الغوص في العالم النّفسي الدّاخلي لدى المصاب، يأخذ هذا الأخير ميزة خاصّة تميّزه عن تناولات التّشخيص السّيكاتري الذي–كما أشرنا سابقا– يستند على الأعراض الظّاهرية كشرط أساسي وقطعي لإدراج الفرد ضمن هذا الاضطراب دون التّطرق إلى تاريخه الشّخصي ولا إلى ظروفه الدّاخلية (علاقته مع عالمه الدّاخلي) التّي تساعد دون شكّ على شرح إشكاليات نفسية عميقة تعكس خصوصية توظيفه النّفسي.

ولأجل هذه الاعتبارات، ركّز علماء النّفس اجتهادهم في وضع الاختبارات الإسقاطية كأحد التّقنيات المستمدّة من مدرسة التّحليل النّفسي التّي تسمح بتناول مظاهر التّوظيف النّفسي سواء في حالته السّوية أو المرضية. ويُعدّ الإنتاج الإسقاطي المتحصّل عليه من خلال الوضعية الإسقاطية بمثابة المرآة العاكسة لمظاهر الأنظمة النّفسية التي تعطي صورة حيّة عن الواقع الدّاخلي للفرد (سي موسي وبن خليفة، 2010، ص16).

ويقصد بالإنتاج الإسقاطي عملية تفريغ وإسقاط لما يشعر به الفرد على المادّة المقدّمة له، حيث تعكس استجابات البروتوكول الخاصّة به بنية شخصيته لأنّها تصل إلى حقيقته الدّفينة عن طريق جهد فكري وعمل تفسير مرتبط بمهارة وتجربة الفاحص (سي موسي وزقار، 2015. ص82). وعلى هذا الأساس يمكن تعريف الإسقاط على نحو ما هو مستخدم في الاختبارات الإسقاطية، بأنّه ميكانيزم دفاعي ينسب بواسطته الفرد ما يتميّز به إلى أفراد أو أشياء خارجية. وهو عملية سيكولوجية دينامية تُنشّط خاصّة أمام المثيرات الغامضة التي عندما يقوم بتفسيرها تكشف عن دوافعه وحاجاته وميولاته. ذلك التّفسير لا يتفّق مع الواقع، وإنّما هو "مرآة" تعكس ما يجري داخل نفسه.

ومن جهته يركّز سامي علي Sami- Ali على المعنى المزدوج الذي يتضمّنه مفهوم الإسقاط، وهو المعنى الخاصّ الذي يبرز بشكل فعّال أثناء الوضعية الإسقاطية، فالإسقاط حسبه يكشف في آن واحد عن إمكانيات الفرد في سيرورة بناء العالم المدرج في ديناميكية إبداعية، وأيضا

عن حدود إمكانياته من خلال علامات هشاشة حدود الأنا (Roman, 2016. p. 31). ومن هذا المنطلق يذهب إلى تفسير الإسقاط كسيرورة خيالية (Processus imaginaire) تظهر في الاختبارات الإسقاطية وتجعل الفرد على اتصال بالعالم الخارجي في قوله:«كلّه واقع خارجي يُقدّم نفسه في خصائص مُدركة إلى حد ما، تصبح خلفية غامضة تبرز من خلالها صور الخيال» (Sami-Ali, 1986, p. 141).

يبدو واضحا من وجهة النّظر هذه أنّ إشكالية التّعبير بين الواقع الدّاخلي والواقع الخارجي تظهر في هذه "الخلفية" التّي تشكّلها الاختبارات الإسقاطية، هذه الأخيرة تجعل الحياة الدّاخلية التّي لا يريد الفرد الاعتراف بها إلى العالم الخارجي تلتقي معه في علاقته به. حيث يمدّنا إنتاجه الإسقاطي بمعطيات وافية عن حاجاته وصراعاته، فكلّما كان المنبّه غامضا كلّما كانت الفرصة مناسبة للحصول على معلومات تتطابق مع شخصيته في توظيفها النّفسي.

وإذا كانت الاعتبارات السّابقة تسري على جميع الاختبارات الإسقاطية، فإنّها تتأكّد أكثر في اختبار الرّوشاخ نظرا لما يتميّز به من طبيعة خاصّة، فهو من أوّل النّماذج النّاجحة التّي تعتمد على أساس وجود علاقة بين الإدراك (La perception) والإسقاط (La projection) في آن واحد كقطبين في التّوظيف النّفسي للشّخصية.

يهدف اختبار الروشاخ إلى الكشف عن مختلف جوانب الشّخصية وفق معايير تحليلية مدروسة تسمح بوضع تشخيص سيكوباتولوجي دقيق وفق توظيف نفسي محدّد. هذه القيمة الإكلينيكية جعلت ديدي أنزيو Didier Anzieu يشبّه هذه الأداة بـ "صورة أشعة" (Une radiographie) بإمكانها أن تكشف عن التّوظيف النّفسي للفرد (Chabert, 2012, p. 12). ولقد أكّدت كاترين شابير Catherine Chabert هذه الفكرة حينما اعتبرت اختبار الروشاخ بمثابة مرآة تختلف خصائصها وفقا لثلاثة أنماط خاصّة من التّوظيف النّفسي: تظهر الخاصية الأولى في التّوظيف الذّهاني كمرآة محطّمة مكسّرة إلى قطع يصعب جمعها لإعادة بناء تمثيل موحّد للذّات. وتظهر الخاصّية الثّانية في التّوظيف الحدّي كمرآة في ازدواجية نرجسية، مع حضور موضوعي لا غنى عنه، يخترق غيابه المشوّش الأغلفة النّفسية. أمّا في التّوظيف العصابي فمشهد المرآة ومسرحها يظهران في بعد ثلاثي ينسّق روايات العصاب (Les romans de névrose) (Chabert, 2012, p. 264).

وفي ذات السّياق، يقول رومان Roman (2015, p. 169) أنّ الحياة النّفسية في اختبار الروشاخ تقدّم نفسها بكل مرونة، وقد توصّل من خلال الإنتاج الإسقاطي للطّفل والمراهق إلى ثلاث مؤشرات رئيسية لتحديد نمط التّوظيف النّفسي الخاصّ بهما، وحدّدها في سجّل تنظيمة النّزوة (L'organisation de la pulsion) وما يصاحبها من تعابير القلق، طرق الدّفاع النّفسي، وأخيرا دينامية العلاقة بالموضوع.

أمّا في الجزائر، فقد برز الاهتمام بدراسة التّوظيف النفسي من وجهة تشخيصية سيكوباتولوجية من خلال الأعمال الرائّدة والمشجعّة على استخدام اختبار الروشاخ، وتُعتبر محاولات جادّة لوضع مراجع قيّمة تضاهي في جودة ونوعية محتواها دراسات الرّواد الغربيين في مجال علم النّفس المرضي التّحليلي وعلم النّفس الإسقاطي (سي موسي وبن خليفة، 2010، ص11)، كدراسات آيت سيدهم خالد، سي موسي عبد الرحمان، بن خليفة محمود، حدادي سامعي دليلة... مؤكّدة في مجملها على الفائدة التّي يقدّمها اختبار الروشاخ في التّشخيص العيادي والسّيكوباتولوجي، وكذا فعاليته في الكشف عن الجوانب الظّاهرة والخفية الدّالة على التّوظيف النّفسي للشّخصية.

كلّ هذه المعطيات والملاحظات التّي توصّل إليها روّاد ممارسي اختبار الروشاخ سواء في الغرب (خصوصا فرقة علم النّفس الإسقاطي لجامعة باريس 5 (Paris V)) أو في الجزائر، تُبرّر لنا استخدام هذا الاختبار الذي سُيمكّننا دون شكّ من قراءة إسقاطية وسيكوباتولوجية دقيقة للتّوظيف النّفسي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري انطلاقا من إنتاجه الإسقاطي. خاصّة بعدما تأكدّت ضرورته لبناء التّشخيصات والتّنبؤات (Les pronostics) من أجل العلاج النّفسي في الوسط العيادي الجزائري (بن خليفة، 2007، ص106) وذلك من خلال الأعمال المكثّفة للجمعية الجزائرية للبحث في علم النفس (SARP)، وكذلك جمعية علم النفس بالجزائر العاصمة (APA) حول اختبار الروشاخ (بالإضافة إلى اختبار TAT) للكشف عن مميّزات التوظيف النفسي للفرد الجزائري (سي موسي وبن خليفة، 2010، ص17). وفي هذا الإطار نجد دراسة سي موسي عبد الرحمان وبن خليفة محمود (2010) حول "الأنظمة النّفسية ومظاهرها في الاختبارات الإسقاطية"

والتّي توصّلت إلى مستويات مختلفة من التّوظيف النّفسي لدى الفرد الجزائري، مع هيمنة التّوظيف الوسواسي بنوعيه النّموذجي بنسبة 32%، والخطير[2] بنسبة 27%.

في الحقيقة، لا يسمح التّأمّل في هذه النّتائج بإظهار فعالية الاختبار في رصد مستويات مختلفة من التّوظيف النّفسي فحسب، وإنّما أيضا فعاليته في تحديد درجات مستوى الخطورة في نفس السّجل السّيكوباتولوجي (كما هو الحال مع مستويات التّوظيف الوسواسي: النموذجي والخطير)، وهذا ما جعل الباحثان يؤكّدان على فعاليته في إبراز ما اصطلحا عليه بـ "العصاب الخطير"[3] إلى جانب التّنظيمات السّيكوباتولوجية الأخرى. أمّا دراسة عبد الله إيمان الصادق عثمان (2016) الموسومة بـ "الدّلالات التّشخيصية لاختبار بقع الحبر لدى مرضى الوسواس القهري والاكتئاب بمستشفى التجاني الماحي" فقد أسفرت عن وجود دلالات تشخيصية على كلّ المحدّدات الرّئيسة لاختبار الروشاخ عند تطبيقه على مرضى الوسواس القهري والاكتئاب بمستشفى التجاني الماحي بالسّودان.

كلّ هذه النّتائج تشجّع على استخدام اختبار الرّوشاخ بهدف رصد سيكوباتولوجية التّوظيف النّفسي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري. فالممارسة العيادية الإسقاطية كما تقول كاترين شابير Catherine Chabert تسمح بالكشف عن العناصر المكوّنة لتنظيمات سيكوباتولوجية خاصّة، وذلك بالرّجوع إلى السّجلات المستخلصة من علم النّفس المرضي التّحليلي انطلاقا من فرويد وأتباعه، كما تسمح هذه الممارسة في نفس الوقت برصد التّغيّرات الفردية والكشف عن تميّز التّوظيف النّفسي حسب كل حالة". وعلى هذا الأساس تمّ الاعتماد على الاتّجاه التّحليلي لتطبيق هذا الاختبار، لأنّه يتجاوز البعد الظّاهري لاستجابات المفحوص إلى السّير البنيوي والدّيناميكي

[2] يتعلّق الأمر بتوظيف وسواسي سيّء البناء بفعل خطورته، حيث تشهد المقاومة الشّديدة بالدّفاعات الصّلبة والمتراكمة على هشاشة داخلية، ويتعلّق الأمر هنا بهجاسية (وسواسية) خطيرة ذات طابع عظامي (Paranoïaque) تلتقي فيها الدّفاعات القديمة (الإسقاط، الانشطار) بتلك الخاصّة بالوسواس. تدعّم هذه الدّفاعات غير المتجانسة بطابعها الصّلب البعد الأكثر نكوصا (النّرجسي) في تنظيم الأنا. ويطرح هذا مشكل تشخيص "العصاب الطّبعي (La névrose caractérielle) (سي موسي وبن خليفة، 2010، ص ص123، 274).

[3] حاول سي موسي وبن خليفة (2010، ص208) اختبار خصوصية التّوظيف النّفسي الذي يقوم على مفهوم العصاب المعقّد، واصطلحاه بالعصاب الخطير، وهو مفهوم مؤسّس انطلاقا من نتائج الجهود المبذولة في إطار البحوث المنجزة بجامعة الجزائر، بالموازاة مع التّكوين المتواصل في جمعية علم النّفس بالجزائر العاصمة (APA). ويتعلّق الأمر بالتّوظيف العصابي غير المرصن (Non mentalisé)، الذي يميّزه أنا جدّ هشّ، يتحمّل صراعا أوديبيا يهدّد حدود الشّخص، مع بروز قويّ للدّفاعات وصلابتها، وهو يدلّ على الضّعف العميق تجاه أي استحضار للعواطف والقلق.

الذي يحرّك التّصرّفات، حيث يتتبّع هذا الاتّجاه الفرد بنوع من المرونة ويترجم أبعاده الدّينامية والاقتصادية انطلاقا ممّا تستدعيه المحتويات الباطنية لمادّة الاختبار (سي موسي وبن خليفة، 2010، ص15)، وذلك يقتضي منّا الوقوف على أهمّ الأسئلة المفتاحية مثل: كيف يدير المصاب قلقه؟ كيف يوظف آلياته الدّفاعية؟ كيف يدير علاقته مع الموضوع ومع الواقع؟ كيف يتعامل مع صراعاته؟ وأخيرا كيف يستجيب لاضطرابه؟

إنّ الإجابة المنتظرة عن هذه الأسئلة من خلال دراسة الإنتاج الإسقاطي لاختبار الروشاخ تسمح لنا بالوصول إلى الأعماق الدّفينة لدى المصاب، ذلك أنّه مطالب بإدراك أشياء محدّدة انطلاقا من بقع حبر غامضة، أين يُترك له العنان لخياله (مبدأ اللّذة)، وفي نفس الوقت يخضع للرّقابة ويتمسّك بالمحتوى الظّاهري للمادّة (مبدأ الواقع) (Chabert, 1998, pp 50-51).

تلك العناصر السّابقة (طبيعة القلق، نوعية الصّراع، طبيعة العلاقة مع الموضوع ومع الواقع، نوعية الدّفاعات النّفسية، ومدى فاعلية الأنا) هي مكوّنات ميتاسيكولوجية جوهرية تمكّن من فهم عميق ودقيق للتّوظيف النّفسي. فاضطراب الوسواس القهري بالإضافة إلى أنه سلسلة من الأعراض، هو نمط مرضي لتوظيف نفسي يشير إلى وجود شخصية مضطربة بشكل خطير (Hanus& Louis, 2010, p. 159).

ومن هذا المنطلق ارتأينا أنّ موضوع سيكوباتولوجية التّوظيف النّفسي والإنتاج الإسقاطي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري من خلال اختبار الروشاخ في بيئتنا المحلّية جدير بالدّراسة الأكاديمية، خاصّة وأنّ السّياق الثّقافي لدى أيّ مصاب يأخذ أهمّية كبيرة في رصد السّيكوباتولوجية المحدّدة لأي اضطراب. كيف لا وثقافة المجتمع التّي يمتصّها الفرد منذ نعومة أضافره تعتبر من الأولويات التي تُلِحُّ على الباحث في علم النّفس أن يوليها اهتمامه الكبير قبل أي حُكم أو تشخيص نفسي، وسوف نستعرض الموضوع من خلال دراسة حالتين ترتاد العيادة النّفسية للباحثة، والكائنة بمدينة عين تموشنت. ولقد تقرّر منهجيا أنّ أحسن المواضيع ما كان نابعا من البيئة المحلّية، لاسيما أنّه متعلّق بأحد أصعب وأعقد التّوظيفات السّيكوباتولوجية بإجماع العديد من علماء النّفس.

وبناء على ما سبق في بناء إشكالية الدّراسة نطرح **التّساؤل الرّئيس التّالي:** ما طبيعة التّوظيف النّفسي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري من خلال الإنتاج الإسقاطي لاختبار الروشاخ؟

والتّساؤلات الجزئية التّالية:

– كيف يتميّز التّنظيم العصابي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري من خلال الإنتاج الإسقاطي لاختبار الروشاخ؟

– كيف يتميّز الاستثمار القهري لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري من خلال الإنتاج الإسقاطي لاختبار الروشاخ؟

2. فرضيات الدّراسة:

للإجابة على التّساؤل الرّئيس صيغت **الفرضية الرّئيسة** للدّراسة كما يلي: يتميّز التّوظيف النّفسي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري بتنظيم عصابي مع استثمار قهري للواقع من خلال الإنتاج الإسقاطي لاختبار الروشاخ.

وتم صياغة الفرضيات الجزئية الآتية:

الفرضية الجزئية الأولى: يتميّز التّنظيم العصابي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري بصعوبة الإعداد النّفسي للصّراع النّفسي الدّاخلي من خلال الإنتاج الإسقاطي لاختبار الروشاخ.

الفرضية الجزئية الثّانية: يتميّز الاستثمار القهري لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري بالمراقبة الصّلبة للواقع المهدّد من خلال الإنتاج الإسقاطي لاختبار الروشاخ.

3. أهداف الدّراسة:

– الكشف عن طبيعة التّوظيف النّفسي لدى المصاب باضطراب الوسواس من خلال الإنتاج الإسقاطي لاختبار الروشاخ.

– الكشف عن طبيعة التّنظيم العصابي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري من خلال الإنتاج الإسقاطي لاختبار الروشاخ.

–الكشف عن طبيعة الاستثمار القهري لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري من خلال الإنتاج الإسقاطي لاختبار الروشاخ.

4. أهمّية الدّراسة:

تستمدّ الدّراسة الحالية أهمّيتها من طبيعة الموضوع الذي تتناوله، ويمكن تحديد أهمّية الدراسة فيما يلي:

تسليط الضّوء على اضطراب الوسواس القهري الذي يعدّ أحد أعقد الاضطربات النّفسية وأشدّها معاناةَ، والتّي تجرّ معها العديد من الاضطرابات النّفسية الأخرى (APA, 2015, p. 280)، حيث تظهر الحياة النّفسية لدى المصاب بهذا الاضطراب في عرضية وسواسية و/أو قهرية تُشكّل حلقة مفرغة ولغزا عياديا، ليس فقط في مجال الطّب العقلي وإنّما أيضا في المجال السّيكوباتولوجي الذي يشغل مجموعة من الاختلالات والتّغيرات الباتولوجية التّي تصيب جهازه النفسي. وفي إثر غياب الدّراسات العيادية والسّيكوباتولوجية – في حدود اطلاع الباحثة– حول موضوع سيكوباتولوجية التّوظيف النّفسي والإنتاج الإسقاطي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري من خلال اختبار الرّوشاخ، والتّي من شأنها تسهيل مهمّة التكفّل النّفسي، واتّخاذ القرارات السّليمة لصالح هذا المصاب في الجزائر لا سيما في البيئة المحلّية، ارتأينا اختيار هذه الدّراسة لتحديد دور متغيّر الوسواس القهري في تشكيل وتكوين العناصر السّيكوباتولوجية للتّوظيف النّفسي كبعد جوهري يساهم في فهم حقيقة ذلك اللّغز العيادي انطلاقا من اختبار الروشاخ الذي يدفع المفحوص إلى إبراز قدراته الوظيفية النّفسية في إطار الفحص الإسقاطي.

وعليه ستكون نتائج الدّراسة مستقاة من الواقع الجزائري المحلّي، حيث أن الفهم الجيّد للتّوظيف الوسواسي سيفيد بشكل كبير في الفهم الدّينامي للحياة النّفسية لدى المصاب، وذلك عن طريق الغور في عالمه النّفسي الدّاخلي، فضلا عن ذلك التّنبؤ بمآله مستقبلا.

كما تسعى هذه الدّراسة إلى إثراء البحوث النّفسية بدراسة عيادية سيكوباتولوجية تحاول الكشف عن طبيعة وخصوصية متغيّر التّوظيف النّفسي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري، خاصّة وأنّ البيئة المحلّية تفتقر لدراسات سابقة – في حدود اطّلاع الباحثة– في الموضوع محلّ الدّراسة.

5. التّعاريف الإجرائية لمتغيّرات الدّراسة:

التّوظيف النّفسي: يشير التّوظيف النّفسي في الدرّاسة الحالية إلى كيفية تفاعل وتعامل المصاب باضطراب الوسواس القهري مع ذاته ومع الآخر ومع الواقع. ويظهر في اختبار الروشاخ من خلال إنتاجه الإسقاطي.

الإنتاج الإسقاطي: يقصد به في الدّراسة الحالية جميع المعطيات الكيفية والكمّية المتمثّلة في استجابات المصاب باضطراب الوسواس القهري باستخدام اختبار الروشاخ، والمقدّمة على شكل بروتوكولات انطلاقا من تعليمة الاختبار.

اضطراب الوسواس القهري: يقصد به في الدّراسة الحالية مجموعة الأعراض المحدّدة في DSMIV TR تحت ترميز [301.9] .F42.

6. الدّراسات السّابقة:

إنّ أهمّ ما يميّز البحث العلمي هو خاصية التّراكمية، لذلك تمثّل الدّراسات السّابقة أرضية خصبة ومنطلقا هامّا لأي دراسة أكاديمية، فبفضلها تتراكم المعرفة العلمية التّي ينطلق منها الباحث من أجل توسيع قاعدة معلوماته عن موضوع دراسته وكيفية تناوله. وفي حدود إمكانيات الباحثة ومدى اطّلاعها، تبيّن أنّ موضوع سيكوباتولوجية التّوظيف النّفسي والإنتاج الإسقاطي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري من المواضيع التي لم تأخذ نصيبها من الدّراسات والبحوث، بحيث لم تجد ولا دراسة سابقة تناولت متغيّرات الدّراسة الحالية مجتمعة. وعليه عمدنا إلى البحث عن الدّراسات التّي تناولت متغيرا أو أكثر، ولو بصفة ضمنية لتوظيفها واستثمارها لغرض استقصاء بعض المعطيات التّي قد تساعدنا في تحليل وتفسير النّتائج التّي ستتّوصل إليها الدّراسة الحالية.

وعلى هذا الأساس خُصص هذا العنصر لعرض مجموعة من الدّراسات السّابقة والتّي رأيناها قريبة نوعا ما من موضوع الدّراسة الحالية. وقد تمّ ترتيبها كما هو معمول به منهجيا من الأقدم إلى الأحدث، بدءا بالدّراسات الجزائرية، ثم العربية، وأخيرا الأجنبية.

أولا – الدّراسات الجزائرية:

1. دراسة سي موسي عبد الرحمان وبن خليفة محمود (2010) والموسومة بـ: **الأنظمة النّفسية ومظاهرها في الاختبارات الإسقاطية،** حيث هدفت إلى الكشف عن مميزات التّوظيف النّفسي لدى الفرد الجزائري، واستخدم الباحثان المنهج العيادي لـ 300 بروتوكول للروشاخ وتفهّم

الموضوع (TAT) لنفس الأفراد مع إضافة بروتوكولات البحوث الأكاديمية (ماجستار ودكتوراه) ليصل العدد الإجمالي إلى 1000 بروتوكول من الاختبارين، وتمثّلت أدوات الدراسة في المقابلة العيادية العلاجية وغير العلاجية باتّباع أسلوب تشخيصي مقارن بين النّوعين من المقابلات، واختبار الروشاخ وتفهّم الموضوع (TAT).

ومن أهمّ النّتائج التّي توصّلت إليها الدّراسة ما يلي:

مستويات التّوظيف النّفسي في اختبار الرّوشاخ:

- التّوظيف الهجاسي (الوسواسي) النّموذجي بنسبة 32%
- التّوظيف الهجاسي الخطير بنسبة 27%
- التّوظيف الرّهابي الخطير نسبة 12%
- التّوظيف الحدّي الاكتئابي بنسبة 10%
- التّوظيف الهستيري النّموذجي بنسبة 9%
- التّوظيف الحدّي النّرجسي بنسبةٍ 4 %
- التّوظيف الهستيري الخطير بنسبة 3%
- التّوظيف الرّهابي النّموذجي بنسبة 1%
- التّوظيف العظامي (البارانويي) بنسبة 1%
- التّوظيف الفصامي بنسبة 1 %

وتقاربت نتائج مستويات التّوظيف النّفسي في اختبار تفهّم الموضوع (TAT)مع نتائج اختبار الروشاخ إلى حدّ كبير كما يوضّحه التّرتيب التّالي:

- التّوظيف الهجاسي (الوسواسي) النّموذجي بنسبة 36%
- التّوظيف الهجاسي الخطير بنسبة 22%
- التّوظيف الحدّي الاكتئابي بنسبة 14%
- التّوظيف الرّهابي الخطير نسبة 10%
- التّوظيف الهستيري النّموذجي بنسبة10%
- التّوظيف الحدّي النّرجسي بننسبة 4 %
- التّوظيف الهستيري الخطير بنسبة 2%
- التّوظيف العظامي (البارانويي) بنسبة 1%

– التّوظيف الفصامي بنسبة 1 %

مستويات التّوظيف النّفسي في المقابلات العيادية:

– التّوظيف الهجاسي النّموذجي بنسبة 31%

– التّوظيف الهجاسي الخطير بنسبة 18%

– التّوظيف الرّهابي النّموذجي بنسبة 11%

– التّوظيف الرّهابي الخطير نسبة 10%

– التّوظيف الحدّي الاكتئابي بنسبة 10%

– التّوظيف الهستيري النّموذجي بنسبة 9 %

– التّوظيف الهستيري الخطير بنسبة 6%

– التّوظيف الحدّي النّرجسي بنسبة 3%

– التّوظيف العظامي (البارانويي) بنسبة 1%

– التّوظيف الفصامي بنسبة 1 %

وتوصّلت الدّراسة إلى اختلافات طفيفة في التّشخيص بين التّقنيات الثّلاث، خصوصا بين التّقنيات الإسقاطية والمقابلات العيادية، وقد تأكدت فعالية اختباري الروشاخ وتفهمّ الموضوع (TAT) في التّمييز بين مستويات مختلفة من التّوظيفات النّفسية.

2. دراسة عدوان يوسف (2012) الموسومة بـ: **دلالات استجابات الروشاخ في البيئة الجزائرية**، فهدفت إلى وضع قائمة معيارية لدلالات استجابات مختلف عوامل اختبار الروشاخ في البيئة الجزائرية، وتمّ استخدام المنهج الوصفي بالاعتماد على طريقتين، أوّلها هي طريقة روشاخ نفسه بتطبيقها على مجموعة من الأفراد ذوي سمات أو خصائص شخصية محدّدة مثل بعض الحالات الاكلينيكية أو بعض حالات التّخلف العقلي أو بعض حالات من الفنّانين أو المهوبين وغيرها. وأمّا الطّريقة الثّانية فتعتمد على استخلاص دلالات استجابات مختلف عوامل الروشاخ انطلاقا من أدوات القياس والفحص النّفسي. وبلغ حجم عيّنة الدّراسة 109 فردا تمّ اختيارهم بطريقة عرضية. واعتمدت الدّراسة على مجموعة من الأدوات تمثّلت في: دراسة الحالة، المقابلة العيادية، مختلف أساليب الملاحظة، اختبار كاتل للذكاء، استخبار الحالات الثمانية (صيغتي أ و ب)، الاستبيان الشّامل للشّخصية، استبيان المظاهر المرضية لاضطرابات الشّخصية، مقياس الأساليب المزاجية، المقياس العالمي المصغّر للفحص النّفسي العصبي (ميني)، واختبار الروشاخ. وتم

معالجة البيانات احصائيا باستخدام المتوسّطات والنّسب المئوية. ومن أهمّ النّتائج التّي أسفرت عنها الدّراسة هي وجود دلالات خاصّة لمختلف استجابات الرّوشاخ في البيئة الجزائرية، مع وجود اختلاف جوهري بين دلالات استجابات الروشاخ في البيئة الجزائرية وبعض البيئات الأجنبية الأخرى.

3. دراسة أخرى لنفس الباحث عدوان يوسف (2015) بعنوان: **الاستجابات المألوفة والأصيلة في اختبار بقع الحبر واضطراب القلق،** هدفت إلى التّعرف على علاقة الاستجابات المألوفة والشّائعة في اختبار بقع الحبر باضطراب القلق، وتم استخدام المنهج الوصفي على عيّنة تكوّنت من (80) مفحوصا ضمّت (40) من الأسوياء و(40) من مرضى القلق، وتمّ معالجة البيانات احصائيا باستخدام التّكرارات، المتوسّطات، النّسب المئوية، واختبار (ت) للفرق بين مجموعتين مستقلتين، وبيّنت نتائج الدّراسة أن مجموعة القلق المرتفع قد أعطت القليل من الاستجابات الشّائعة ووجدت استجابات مبتكرة ذات مستوى شكلي رديء، وتشير الاستجابات المألوفة إلى درجة مشاركة الفرد للأفكار الشّائعة في الجماعة التّي يعيش فيها.

4. دراسة منصوري نفيسة وكبداني خديجة (2017) الموسومة بـ: **أثر البعد الثّقافي في الاستجابات لاختبار الروشاخ وفي تفسير نتائجه،** وقد جاءت بهدف إبراز أثر البعد الثّقافي في استجابات عيّنة من الطّلبة الجامعيين على اختبار الروشاخ، ومحاولة إيجاد بعض السّمات المشتركة بين أفراد المجتمع الجزائري من أجل الخروج بأداة قياس خاصّة بالمجتمع الجزائري، من خلال استخدام المنهج الوصفي والمنهج التّشخيصي بتطبيق الاختبار الإسقاطي الخاصّ ببقع حبر الروشاخ، وأجريت الدّراسة في 6 كلّيات بمدينة وهران على عيّنة تكوّنت من 40 طالبا، وتمّ استخدام المقابلة العيادية والملاحظة العيادية إلى جانب اختبار الروشاخ، وتوصّلت الدّراسة إلى وجود أثر للبعد الثّقافي في الاستجابات التّي قدّمها الطّلبة، واختلاف نتائج الروشاخ بما يتناسب مع الثّقافة الجزائرية مقارنة بالنّتائج الفرنسية بصفة خاصّة والغربية بصفة عامّة.

5. دراسة لحمر فضيلة (2017) بعنوان: **التّوظيف النّفسي للجلد لدى الرّاشد المصاب بالسّرطان –دراسة عيادية من خلال اختباري الروشاخ وتفهّم الموضوع TAT-** وهدفت إلى تحديد مجموعة من المؤشّرات التّي توحي بوجود عمليّات بناء الجلد، ثمّ الكشف عن التّوظيف النّفسي لهذه المؤشّرات من خلال المنهج العيادي، وتكوّنت عيّنة الدّراسة من 35 فردا، واستخدمت الباحثة مجموعة من الأدوات تمثّلت في استبيان مؤشرات الجلد، المقابلة العيادية الموجّهة والنّصف موجّهة،

تحليل المضمون الكمّي والكيفي، اختبار الروشاخ، واختبار تفهم الموضوع TAT. وأشارت نتائج الدّراسة إلى تميّز التّوظيف النّفسي للجلد لدى أغلب حالات الدّراسة بالتنوّع، حيث تمّ تسجيل توظيفا مميّزا للجانب الرّوحاني لدى جميع حالات الدّراسة، وكذلك توظيفا مناسبا للغيرية والمشاركة الاجتماعية، وروح الدّعابة، والعقلنة، أمّا توظيف الإعلاء فكان محدودا لدى بعض الحالات.

ثانيا – الدّراسات العربية:

1. هدفت دراسة جين ماناس (1992) الموسومة بـ: **الاستجابات الجزئية الصّغيرة استجابات الفراغ لاختبار بقع الحبر وعلاقتها باضطراب الوسواس القهري** إلى التّعرف على العلاقة بين الاستجابات الجزئية الصّغيرة واستجابات الفراغ لاختبار بقع الحبر على مرضى الوسواس القهري، وتمّ استخدام المنهج الوصفي، وتكوّنت عيّنة الدّراسة من (60) فردا، (30) منهم أسوياء و(30) مصابون باضطراب الوسواس القهري، وتمّت معالجة البيانات إحصائيا عن طريق المتوسّطات والنّسب المئوية. وأكّدت نتائج الدّراسة أنّ تقارير مرضى الوسواس القهري تحتوي على نسب كبيرة من الاستجابات الجزئية الصّغيرة واستجابات الفراغ (عبد الله، 2016، ص 87).

2. دراسة عبد الله إيمان الصادق عثمان (2016) بعنوان: **الدّلالات التّشخيصية لاختبار بقع الحبر لدى مرضى الوسواس القهري والاكتئاب بمستشفى التجاني الماحي** بالسّودان، وهدفت إلى التّعرف على الدّلالات التّشخيصية لمرضى الوسواس القهري والاكتئاب على المحدّدات الرّئيسة لاختبار بقع الحبر، واستخدمت الباحثة المنهج الوصفي، اختبار الروشاخ كأداة، واستمارات الّتفريغ، وتكوّنت عيّنة الدّراسة من 182 مفحوصا 79 منهم مصاب باضطراب الوسواس القهري و103 مصاب بالاكتئاب وتمّ اختيارهم بالطّريقة الصّدفية، وتمّ معالجة البيانات احصائيا عن طريق التّكرارات والنّسب المئوية. أسفرت الدّراسة عن وجود دلالات تشخيصية على كلّ المحدّدات الرّئيسة لاختبار بقع الحبر عند تطبيقه على مرضى الوسواس القهري والاكتئاب بمستشفى التجاني الماحي.

ثالثا – الدّراسات الأجنبية:

1. **دراسة كاترين شابير Catherine Chabert** (2012) الموسومة بعنوان: **السّيكوباتولوجية في اختبار الروشاخ**، وهدفت إلى دراسة النّماذج السّيكوباتولوجية للتّوظيف النّفسي من خلال اختبار الروشاخ في البيئة الفرنسية، واستخدمت الباحثة المنهج العيادي مع 7 حالات، وتوصّلت الدّراسة إلى أنّ التّفسير التّحليلي لبروتوكول الروشاخ يسمح باستخراج الخطوط الرّئيسة لثلاث أنماط متنوّعة من التّوظيف النّفسي والتّي تتمثّل في كلّ من العصاب (الصّراع بين الرّغبة

والدّفاع، قلق الاخصاء...)، الإصابة النّرجسية (الاستثمار المفرط للحدود بين الدّاخل والخارج...)، وأخيرا الذهان (تفكّك الهويّة، قلق التّجزئة).

2. دراسة هانتر.ل Hanter. L (2016) الموسومة بـ: **العلاقة بين الاستجابات اللّونية في اختبار بقع الحبر واضطراب الوسواس القهري**، وهدفت إلى التّعرف على العلاقة بين الاستجابات اللّونية في بقع الحبر واضطراب الوسواس القهري، باستخدام المنهج العيادي، وتمّ تطبيق اختبار الرّوشاخ على عيّنة تكوّنت من 80 فردا، منهم 40 فردا سويا و40 مصابا باضطراب الوسواس القهري. واستخدم الباحث التّكرارات والمتوسّطات والنّسب المئوية. وأشارت نتائج الدّراسة إلى ارتفاع نسبة الاستجابات اللّونية عند مرضى الوسواس القهري خاصة استجابات اللّون الخالص.

1.6. التّعقيب على الدّراسات السّابقة:

بعد استعراض الدّراسات السّابقة وفقا لما تقتضيه الطّريقة المنهجية لعرضها، سنستعرض أهمّ النّقاط التّي تمّ استخلاصها من تحليل ومناقشة هذه الدّراسات، وذلك من حيث الموضوع، الأهداف، المنهج، العيّنة، أدوات جمع البيانات، وأخيرا النّتائج التّي تمّ التّوصل إليها.

من حيث الموضوع: يمكن تصنيف الدّراسات السّابقة التّي تمّ استعراضها من حيث موضوعها إلى ثلاث فئات. إذ اهتمّت الفئة الأولى بدراسة التّوظيفات النّفسية والسّيكوباتولوجية من خلال اختبار الروشاخ، وهي دراسة سي موسي وبن خليفة (2010)، شابيرChabert (2012)، ولحمر (2017). بينما تناولت الفئة الثّانية دراسة بعض الاضطرابات النّفسية انطلاقا من اختبار الروشاخ، والتّي تمثّلت في القلق، الوسواس القهري، الاكتئاب، وهي دراسة ماناس (1992)، عدوان (2015)، هانتر Hanter (2016)، عبد الله (2016). وركّزت الفئة الثّالثة على الخصوصية الثّقافية لاختبار الروشاخ في البيئة الجزائرية وهي على التّوالي دراسة عدوان (2011)، منصوري وكبداني (2017).

وأمّا من **حيث الأهداف**، فقد تعدّدت واختلفت باختلاف متغيّراتها، فمنها ما هدفت إلى التّعرف على العلاقة بين الاستجابات المقدّمة من خلال اختبار الروشاخ مع عدد من الاضطرابات النّفسية المتنوّعة (القلق، الوسواس القهري، الاكتئاب)، وهي دراسة ماناس (1992)، عدوان (2015)، عبد الله (2016)، هانتر Hanter (2016)، ومنها ما اهتمّت بالكشف عن مميّزات التّوظيفات النّفسية والسّيكوباتولوجية من خلال اختبار الروشاخ كدراسة سي موسي وبن خليفة

(2010)، لحمر (2017)، وشابير Chabert (2012)، ومنها ما ركّزت على البعد الثّقافي لاختبار الروشاخ كدراسة عدوان (2011)، ومنصوري وكبداني (2017).

وأمّا من **حيث المنهج**، فتنوّعت مناهج الدّراسة التي اعتمدها الباحثون في الدّراسات السّابقة، فمنها ما اعتمدت على المنهج الوصفي مثل دراسة ماناس (1992)، عدوان (2011)، (2015)، عبد الله إيمان (2016). ومنها ما اعتمدت على المنهج الوصفي بالأسلوب التّحليلي والتّشخيصي وهي على التّوالي دراسة منصوري وكبداني (2017). أمّا دراسة سي موسي وبن خليفة (2010)، لحمر (2017)، شابيرChabert (2012)، هانتر Hanter (2016) فتشابهت من حيث استخدامها للمنهج العيادي.

ومن حيث **العيّنة**، نلاحظ أنّها تنوّعت وتباينت فيما بينها، فمنها ما تناولت فئة المرضى باختلاف أنواعها من مرضى السّرطان في دراسة لحمر (2017)، ومرضى القلق في دراسة عدوان (2011)، ومرضى الوسواس القهري مع الاكتئاب في دراسة عبد الله (2016). ومنها ما جمعت بين عيّنة الأسوياء وعيّنة مرضى الوسواس القهري مثل دراسة ماناس (1992)، وهانتر Hanter (2016). ومنها ما تناولت عيّنة الطّلبة كما هو الحال مع دراسة منصوري وكبداني (2017)، في حين ركّزت دراسة عدوان (2011) على سمات شخصية مختلفة وتنوّعت بين حالات التّخلف العقلي، الفنّانين، والمهوبين. وقد تميّزت دراسة سي موسي وبن خليفة (2010) بحجم (300)، وكان أصغر عدد لحالات الدّراسة في دراسة شابير Chabert(2012) بـ 7 حالات.

وأمّا **الأدوات**، فتشابهت أغلب الدّراسات السّابقة المذكورة في اعتمادها على اختبار الروشاخ. وتشابهت دراسة لحمر (2017) مع دراسة سي موسي وبن خليفة (2010) في استخدامها لاختبار الروشاخ وTAT والمقابلة العيادية، واختلفت معها في استخدامها للاستبانة وتحليل المضمون الكمّي والكيفي. أمّا دراسة عدوان (2011) فاستندت إلى مجموعة من الأدوات وتمثّلت في: دراسة الحالة، المقابلة العيادية، مختلف أساليب الملاحظة، اختبار كاتل للذكاء، استخبار الحالات الثمانية (صيغتي أ و ب)، الاستبيان الشّامل للشّخصية، استبيان المظاهر المرضية لاضطرابات الشّخصية، مقياس الأساليب المزاجية، المقياس العالمي المصغّر للفحص النّفسي العصبي (ميني).

كما استخدمت بعض الدّراسات الأساليب الإحصائية في تفسير نتائجها وهي: دراسة ماناس (1992)، وعبد الله (2016).

وأمّا من حيث **النّتائج**، فتنوّعت نتائج الدّراسات السّابقة بتنوّع فروض وأهداف كلّ واحدة منها، ومع ذلك اتّفقت أغلبها على أهميّة اختبار الروشاخ في دراسة الاضطرابات النّفسية واستخراج النّماذج السّيكومرضية المتنوّعة، وهذا ما أظهرته دراسة ماناس (1992)، سي موسي وبن خليفة (2010)، شابير Chabert (2012)، عبد الله إيمان (2016)، هانتر Hanter (2016)، ولحمر (2017). وأكّدت كلّ من دراسة عدوان (2011)، منصوري وكبداني (2017) على الخصوصية الثّقافية لاختبار الروشاخ.

ومن خلال هذا العرض للدّراسات السّابقة يمكن استنتاج ما يلي:

– سجّلنا على مستوى الدّراسة الجزائرية التّي قام بها سي موسي وبن خليفة (2010) ملاحظة مهمّة مفادها أنّ اختبار الروشاخ يسمح بالكشف عن تنظيمات سيكوباتولوجية متنوّعة من حيث نماذج التّوظيف النّفسي المميّزة لها. حيث تلتقي هذه الدّراسة مع الدّراسة الحالية في دراسة التّوظيف النّفسي للفرد الجزائري، وتختلف معها من حيث البيئة المحلّية وحجم العينة الواسعة التّي تناولتها، وكذلك من حيث توظيفها لتقنيتين إسقاطيتين (الروشاخ و TAT) بدلا من تقنية إسقاطية واحدة (الروشاخ). ومع ذلك سمحت لنا نتائج هذه الدّراسة من تحديد بعض المؤشّرات التّشخيصية للتّوظيف الوسواسي من خلال اختبار الروشاخ والكشف عن دلالته الخاصّة عند الفرد الجزائري.

– تتشابه الدّراسة الحالية مع دراسة عدوان (2011)، (2015) من خلال البيئة الجزائرية واختبار الروشاخ، وتختلف معها من حيث منهجها ومتغيّراتها، أي تختلف من حيث الهدف المراد الوصول إليه.

– تتقاطع الدّراسة الحالية مع دراسة لحمر (2017) وإن اختلفت في عنوانها وبعض متغيّراتها في نقطة محورية وهي دراسة نفس المتغيّر التّابع المتمثّل في التّوظيف النّفسي عند الفرد الجزائري، وهذا ما مكّننا من تسجيل بعض الأفكار المفيدة حول كيفية انعكاس الإصابة النّفسية (نتيجة الإصابة بالسّرطان) على التّوظيف النّفسي في شكل معاناة نفسية من خلال اختبار الروشاخ.

– على الرّغم من اختلاف الدّراسة الحالية مع دراسة منصوري وكبداني (2017) من حيث متغيّراتها ومنهجها وأهدافها، إلّا أنّ هذه الأخيرة ساهمت في توجيه مسار الدّراسة بإزالة بعض الغموض عن كيفية استخدام وتناول اختبار الروشاخ في البيئة الجزائرية.

– تلتقي الدّراسة الحالية مع دراسة ماناس (1992)، عبد الله (2016)، وهانتر Hanter (2016) في متغيّر الوسواس القهري، وهذا ما مكّننا من تفحّص المنهجية والأفكار التي اعتمدت عليها هذه الدّراسات في تناول متغيّر الوسواس القهري من خلال اختبار الروشاخ.

– على الرّغم من اختلاف الدّراسة الأجنبية لشابير Chabert (2012) في الأبعاد الثّقافية والاجتماعية، إلاّ أنّها تقوم بدور هادف في توجيه وتدعيم الدّراسة الحالية، حيث أبرزت الخصوصية السّيكوباتولوجية لثلاث توظيفات نفسية من خلال اختبار الروشاخ، وهذا ما ساعد في توجيه مسار الدّراسة الحالية ووتوضيح الرّؤيا وإزالة الغموض.

في ضوء ما تم استعراضه من الدّراسات السّابقة، وعلى الرّغم من أهمّيتها، إلاّ أنّ أيّا منها لم تتناول بشكل خاصّ موضوع سيكوباتولوجية التّوظيف النّفسي والإنتاج الإسقاطي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري. كما نلاحظ أنّ أغلب هذه الدّراسات سواء التّي تناولت التّوظيف النّفسي أو الوسواس القهري كانت إمّا عربية أو غربية، وهي بذلك تختلف في سياقها الثّقافي عن البيئة الجزائرية.

أمّا بالنّسبة للدّراسات الجزائرية، فكانت جلّها عبارة عن دراسات كمّية وصفية اهتمّت بالوصف الكمّي للظّاهرة – باستثناء دراستي سي موسي وبن خليفة (2010)، ولحمر (2017) – وهذا ما دفعنا إلى اعتماد نوع مختلف من البحوث العلمية، هو البحث الكيفي من خلال المنهج العيادي الذي يقوم على دراسة الحالة بشكل فردي ومعمّق لتحليل أبعادها النفسية العميقة –في حدود الإمكانيات العلمية والعملية للدّراسة الحالية–

مجمل القول أن جملة الدّراسات السّابقة التّي تمّ عرضها، شكّلت لنا قاعدة معرفية، ساهمت في توجيه مسار الدّراسة الحالية، فكانت مادّة علمية استنبطنا من خلالها تصوّرا علميا لموضوع الدّراسة، وإطارا نظريا ساعد على توضيح الرّؤية وإزالة الغموض عن المشكلة البحثية من حيث تحديدها وضبطها. كما ساعدتنا على التّعرف على الجوانب التّي لم يتمّ بعد دراستها. بحيث لم ترد دراسات سابقة بحثت بشكل خاصّ في موضوع سيكوباتولوجية التّوظيف النّفسي والإنتاج الإسقاطي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري من خلال اختبار الروشاخ في البيئة الجزائرية –في حدود اطلاع الباحثة– وهو ما مكّن من تحديد متغيّرات الدّراسة بعيدا عن التّكرار غير المرغوب فيه، وضبط الإشكالية بشكل مناسب. كما ستكون نتائج الدراسات السّابقة مرجعية لتحليل ومناقشة نتائج الدّراسة الحالية.

خلاصة الفصل:

تضمن هذا الفصل الإطار العامّ للدّراسة، من حيث بناء الإشكالية وصياغة فرضياتها، أهداف الدّراسة وأهمّيتها، ضبط المفاهيم الاجرائية لمتغيرّاتها، لينتهي في الأخير باستعراض جملة من الدّراسات السّابقة ذات الصّلة بموضوع الدّراسة، ثم التّعقيب عليها.

الفصل الثاني

التّوظيف النّفسي والإنتاج الإسقاطي

أولا – التّوظيف النّفسي

1. المقاربة الميتاسيكولوجية للتّوظيف النّفسي
1. 2. مفهوم التّوظيف النّفسي
3.1. مفهـــوم الجهـــــاز النفســـي
4.1. وجهات النّظر الميتاسيكولوجية للتّوظيف النّفسي
5.1. سيرورات التّوظيف النّفسي
6.1. مبـــــادئ التّوظيـــــف النّفســـــي
7.1. أنمـــــاط التّوظيـــف النّفســـــــي
8.1. الميكانيزمـــــــــات الدّفاعـــيـــــة

ثانيا : الإنتاج الإسقاطي

1. الإسقاط
2. الاختبـــــارات الإسقاطيـــــــة
3. مفهوم الإنتاج الإسقاطي
4. اختبار الروشاخ

خلاصة الفصل

الفصل الثاني
التّوظيف النّفسي والإنتاج الإسقاطي

تمهيد:

ترتبط دراسة التّوظيف النّفسي باستعمال الميتاسيكولوجيا عند سيجموند فرويد Sigmund Freud، إذ يستند هذا الأخير إلى بناء نماذج مدروسة انطلاقا من التّصوّر الفرويدي للنّفس البشرية، والذّي يركّز على فكرة التّنسيق بين مجموعة من العناصر تتقاسم وفق ترتيب معيّن وظائف متعدّدة تشكّل في مجملها ما يسمّى بـــ "الجهاز النّفسي".

وتقدّم لنا أعمال سيجموند فرويد Sigmund Freud حول "الميكانيزمات الدّفاعية"، مفاهيما جديدة تسمح بفهم نموذجه الميتاسيكولوجي وفكرته حول بناء الجهاز النّفسي وما يصيبه من اختلالات وتغيّرات باثولوجية. ولقد استخدم مصطلح "الإسقاط" للدّلالة على ميكانيزم دفاعي يعزو من خلاله الفرد أحاسيسه ومشاعره المؤلمة إلى العالم الخارجي. ففكرة الإسقاط عنده تستند إلى ضرورة التّسليم بوجود صراع نفسي داخل الجهاز النّفسي.

سيتناول أوّل جزء من هذا الفصل مفهوم التّوظيف النّفسي في ضوء الميتاسيكولوجيا التّي أسّسها سيجموند فرويد Sigmund Freud، مفهوم الجهاز النّفسي، مختلف وجهات النّظر والأساليب والمبادئ التّي تندرج ضمنه، ثمّ أنماطه المتنوّعة، وصولا إلى مفهوم الدّفاع النّفسي وبعض أنواع الميكانيزمات الدّفاعية التّي يلجأ إليها الفرد لتخطّي صراعاته النّفسية.

ويأتي الجزء الثّاني من هذا الفصل ليتناول متغيّر الإنتاج الإسقاطي، ولقد تضمّن أوّلا مفهوم الإسقاط، من خلال التّطرّق إلى التّطور التّاريخي للمصطلح، ثمّ مفهومه وأنواعه، ليأتي بعد ذلك مفهوم الاختبارات الإسقاطية، الإنتاج الإسقاطي، اختبار الروشاخ، وأخيرا خلاصة للفصل.

أوّلا: التّوظيف النّفسي

1. المقاربة الميتاسيكولوجية للتّوظيف النّفسي:

يسمح الوقوف على مفهوم الميتاسيكولوجيا بتحديد مجموعة من المبادئ والنّماذج والمصطلحات التّحليلية النّفسية التّي تقود نحو فهم التّوظيف النّفسي بصورة دقيقة وشاملة في ضوء التّصوّر الفرويدي الذي يأخذنا إلى مسافات بعيدة، إلى جبل من الجليد يقع جزء منه فوق

سطح الماء وجزء آخر عميق تحت الماء، يقتضي بلوغه العودة إلى معنى وأبعاد الميتاسيكولوجيا كما أسّسها سيجموند فرويد Sigmund Freud.

1.1. مفهوم الميتاسيكولوجيا:

الميتاسيكولوجيا[4] (Métapsychologie) هي كلمة مشتقّة من الكلمة اليونانية "Méta" التّي تعني "ما يتجاوز ويشتمل". وقد وظّف سيجموند فرويد Sigmund Freud مصطلح "الميتاسيكولوجيا" للإشارة إلى نظرية نفسية أصيلة قام بتأسيسها بعدما طوّر عددا مهمّا من النّماذج والمفاهيم انطلاقا من تجربته العيادية. فالجهاز النّفسي، نظرية النّزوات، وجهة النّظر الموقعية، وجهة النّظر الدّينامية، وجهة النّظر الاقتصادية...هي كلّها مفاهيم تعيدنا إلى النّظرية الفرويدية العميقة. ذلك أنّ الميتاسيكولوجيا كما يقول سيجموند فرويد Sigmund Freud هي: «بنية فوقية تأمّلية، في حال إثبات عدم كفايتها يمكن التّضحية بأيّ جزء منها أو استبداله بجزء آخر دون أي ضرر أو ندم» (Chabert& Verdon, 2018, p. 42).

يغطّي مصطلح الميتاسيكولجيا مجموعة المبادئ والمصطلحات والنّماذج النّظرية الخاصّة بالتّحليل النّفسي التّي تلتحم وتتصهر مع بعضها البعض لتشكّل الأساس القاعدي لهذا التّوجه. وقد تُغنينا كلمات سيجموند فرويد Sigmund Freud عن الكثير ممّا يمكن قوله في هذا السّياق. حيث يقول في مؤلّفه "حياتي والتّحليل النّفسي":

> «كنت قد بذلت فعلا في مراحل سابقة من عملي محاولات في سبيل الوصول إلى نظريات أعمّ، بادئا من ملاحظات التّحليل النّفسي. فقد وجّهت النّظر في مقال قصير هو "بيانات خاصّة بمبدئيْ التّوظيف النّفسي في الحياة النّفسية" الذي نُشر عام 1911إلى سيطرة مبدأ اللّذة وتجنّب الألم في الحياة النّفسية، ثم حاول ما يسمّى مبدأ الواقع محلّه (ولم يكن في ذلك طبعا أي جديد). وبعد ذلك (1915-1917) حاولت تأليف 'ما بعد علم النّفس"[5] ، وكنت أقصد بذلك منهجا في البحث ينظر بمقتضاه إلىّ كلّ عملية نفسية من حيث علاقتها بثلاث إحداثيات أطلقت عليها على التّوالي: الديّنامي، الطوبوغرافي، والاقتصادي، وهُيّئ لي أنّ ذلك يُمثّل أبعد هدف يمكن أن يطمح علم النفس لبلوغه. ولكن المحاولة لم تكتمل، وبعد كتابة بحثين أو ثلاثة: "الغرائز وأطوارها، "الكبت"، 'اللاّشعور"، "الحداد والاكتئاب"...الخ،توقّفت، وربّما ذلك من الحكمة (...) وقد أخذتُ على عاتقيفي أحدث أبحاثي النّظرية

[4] أشار سي موسي وبن خليفة (2010) في كتابهما "علم النّفس المرضي التّحليلي والإسقاطي: الأنظمة النّفسية ومظاهرها في الاختيارات الإسقاطية" الجزء الأوّل ، أنّ مفهوم الميتاسيكولوجيا من المصطلحات التي يصعب نقلها إلى العربية بصفة سليمة، وقد ترجمها المؤلّفان بـــ " ما وراء علم النّفس". ونشير من جهتنا بأنّها التّرجمة الأكثر شيوعا بين المحلّلين النّفسيين العرب، خاصّة في مؤلّفات المغرب العربي، وتهدف لدراسة التّوظيف النّفسي من ناحية طوبوغرافية، دينامية، واقتصادية.

[5] أي الميتاسيكولوجيا.

مهمّة تحليل جهازنا النّفسي على أساس النّظر التّحليلي للوقائع المرضية فقسمته إلى أنا، وهو وأنا أعلى...» (فرويد، 1994، ص ص88-89).

إنّ هذه الشّهادة التّي قدّمها سيجموند فرويد Sigmund Freud إن دلّت على شيء إنّما تدلّ على التّعديلات المستمرّة التّي عرفها ضرب أعماله لتفسير الحياة النّفسية بشكل واضح وملموس. حيث سعى سيجموند فرويد Sigmund Freud (1915) من خلال التّصوّر الذي قدّمه عن التّوظيف النّفسي -الذي أعاد صياغته باستمرار- إلى تفسير مجمل الظّواهر النّفسية من خلال تسمية هذا النّموذج المفاهيمي بـــ 'الميتاسيكولوجيا". ففي الوقت الذي اهتمّت فيه المقاربات النّفسية بشكل أساسي بالظّواهر الشّعورية، اهتمّ سيجموند فرويد Sigmund Freud وبشكل خاصّ بالظّواهر اللاّشعورية، وكان يتصوّر كلّ سيرورة نفسية وفقا لثلاث إحداثيات هي: الموقعية، الدّينامية، والاقتصادية. وبدأ تحليل التّوظيف النّفسي عنده انطلاقا من بناء نماذجه الوهمية التّي افترضها للجهاز النّفسي بفضل الميتاسيكولوجيا (De Kernier et al, 2019, p. 07).

يعرّف لابلانش وبونتاليس Laplanche et Pontalis الميتاسيكولوجيا في "معجم التّحليل النّفسي" بعلم النّفس الذي قام سيجموند فرويد Sigmund Freud ببنائه، حيث يتضمّن مجموعة من النّماذج للمفاهيم البعيدة نوعا ما عن التّجربة مثل الجهاز النّفسي ونظرية النّزوات، والتّي تسمح بفهم التّوظيف النّفسي انطلاقا من ثلاث وجهات نظر مختلفة: وجهة النّظر الموقعية، الدّينامية، والاقتصادية (زيوي، 2009، ص22).

2.1. مفهوم التّوظيف النّفسي:

تقتضي دراسة التّوظيف النّفسي ضمن النّظرية السّيكودينامية، الرّجوع بصورة وضرورية وتلقائية في نفس الوقت إلى المصادر والمعطيات الفرويدية التّي يستحيل الاستغناء عنها، وذلك لما تضمنه من فهم دقيق وعميق لمختلف المبادئ والقوانين التي تحكم العمليات النّفسية المعقّدة التّي تحدث داخل الجهاز النّفسي.

وفي هذا الإطار، نجد كاترين شابير Catherine Chabert قد تبنّت ودافعت عن النّموذج التّحليلي للتّوظيف النّفسي في شكله الإجرائي التّطبيقي في الفحص النّفسي لاسيما في التّقنية الإسقاطية، وخصصّت العديد من مؤلفاتها (1994، 1996، 1998، 2012، 2018) لشرح المبادئ الفرويدية، وأكّدت على أهمّية العودة إلى المصادر الأولى للمصطلح. وترى أنّ التّوظيف النّفسي هو نظام ميكانيكي للعمليات أو السّلوكيات النّفسية (Chabert, 1998, p. 09).

يشير مصطلح التّوظيف النّفسي إلى توظيف الجهاز النّفسي الذي يمثّل جهازا لعلاج الاستثارات. ويمثّل عند سيجموند فرويد Sigmund Freud نموذجا لنظرية تحمل بعدا فضائيا وآخرا سيروراتيا، ليتضمّن بذلك العمل النّفسي الذي يهدف إلى تخفيض كمّية الطّاقة التّي ترتبط بالاستثارة النّزوية التّي يكون منبعها الجسد. وفي حديثنا عن التّوظيف النّفسي، تجدر بنا الإشارة إلى أنّ سيجموند فرويد Sigmund Freud قد رفض في عام 1985 نشر مقاله "L'Esquisse d' une psychologie scientifique" وكان الهدف من وراء ذلك هو إعطاء التّوظيف النّفسي تصوّرا مناسبا لمتطلبات علم الطّبيعة. وبفضل القطيعة الابستمولوجية التي أحدثها مقاله " تفسير الأحلام" خرج سيجموند فرويد Sigmund Freud من التّصوّر العصبي للتّوظيف العقلي الذي يركّز على الجانب العصبي، ليدخل باستعمال مجاز الفضاء في جوّ نفسي (جعدوني، 2011، ص26).

يعرّف بيرون Perron (2015, pp. 12,14) التّوظيف النّفسي من خلال مفهوم "البنية" (Structure)، فوصفه بأنه بنية مركّبة (structure complexe) تتميز بثلاث عناصر أساسية هي الشّمولية، الانسجام، والاستمرارية في الوقت. تعني الشّمولية ذلك التّصوّر المنسجم الذي نكوّنه حول الفرد من خلال خصائص معيّنة، حيث يعمل الانسجام بينها وبين العناصر الدّاخلية التّي يتكوّن منها الفرد بطريقة شاملة تعطينا وصفا معيّنا له يسمح لنا بالتّعرف عليه كطريقة تفكيره مثلا. أمّا التّماسك فيعني أنّ هناك انسجاما معيّنا بين أفعال، ومواقف، وأفكار الفرد، وهذا ما يجعله متفرّدا ومتميّزا عن باقي الأفراد. بينما الاستمرارية في الوقت فتعني أن تماسك هذا النّظام الوظيفي ينبع من قوانين تنظيمة (Lois d'organisation) أين يكون نشاطه مستمرّا يحتفظ به الفرد لفترة طويلة في حياته، باستثناء حالة الاختلال النّفسي أو الجسدي الذي يهدّد توازن الشّخص بأكمله.

إنّ هذه الخصائص التّي قدّمها روجر بيرون Roger Perron تشير في مجملها إلى قوّة داخلية تحكم التّوظيف النّفسي للفرد من خلال قوانين نفسية تجعله مختلفا عن غيره. هذا الاختلاف لا يقتصر فقط على الجانب الخارجي، وإنّما أيضا على نوع الآليات الدّفاعية وطبيعة العلاقة بالموضوع. تتداخل هذه الأخيرة مع الصّراع النّفسي ونوعية القلق، وهذا ما يسمح بالوقوف على ظواهر التّوظيف النّفسي بصورة معمّقة. فكلّ شخص تبدأ حياته بطاقة نزوية (énergie pulsionnelle) تكون مدعومة بالحبّ والكراهية، إذ تتكوّن شخصيته وتُنتظم وتتشكّل

وفق الرّعاية الأمومية الأولى، ومن هنا تبدأ المؤشرات الأولى للأنا في العمل، وتتأسّس آليات الدّفاع الأولى (Ghemmour, 2017, p. 67).

التّوظيف النّفسي إذن هو سيرورة ديناميكية تخضع لقوانين ومبادئ أساسية، ويتضمّن عمليات وسلوكيات نفسية، حيث تتقاسم هذه السّيرورة المعقّدة وظائف معيّنة لتشكّل بذلك ما يعرف بالجهاز النّفسي. هذه الأخيرة تعمل على حماية الأنا من الأخطار التّي تهدّد أمنه واستقراره، وهو ما يؤدّي إلى تحقيق الانسجام والتّوازن النّفسي الدّاخلي.

3.1. مفهوم الجهاز النفسي:

رغم التّطوّر الذي شهده الفكر الميتاسيكولوجي من خلال الأعمال المتوالية لسيجموند فرويد Sigmund Freud، إلاّ أنّه لم يتخلّ أبدا عن فكرة الجهاز النّفسي، وأكّد على الخصائص التّي تُنسبها النّظرية الفرويدية إلى "النّفس" كقدرتها على تحويل الطّاقة المحدّدة وتمايزها إلى أنظمة أو هيئات (Instances) مختلفة (Chabert& Verdon, 2018, p. 45). ولقد كان سيجموند فرويد Sigmund Freud من الأوائل الذين قدّموا الفرضية القائلة: « لا أعتقد أنّ أحدا قد حاول بناء الجهاز النّفسي على هذا المنوال» (Freud, 1981, p. 03).

يمثّل الجهاز النّفسي النّموذج الميتاسيكولوجي الأوّل الذي أسّسه سيجموند فرويد Sigmund Freud مابين سنة 1895 و1900، حيث قام بوصفه وصفا مفصّلا في الفصل السّابع من كتابه تفسير الأحلام. ولقد أدّى التّمييز بين المواقع النّفسية المختلفة التي اقترحها له، وكذلك بين حالة الحلم وحالة اليقظة إلى رفض فكرة المواقع التّشريحية للدّماغ (Chabert& Verdon, 2018, p. 45). فهذا النّموذج يستند إلى الفرضية الفرويدية القائلة بأنّ: «الحياة النّفسية هي وظيفة للجهاز النّفسي الذي نعطيه توسّعا مكانيا، ونتوقّع أنّه متكوّن من عدّة أجزاء» (Freud, 1981, p. 455).

ومن خلال المقارنة مع جهاز بصري، قام سيجموند فرويد Sigmund Freud ببناء الجهاز النّفسي وتمثيله كأداة، سمّى أجزاؤها المُكوَّنة بالهيئات (Instances) أو النّظم (Systèmes) (Chabert, 1998, p. 14)، وكان يرى أنّ داخل كلّ نظام تظهر العديد من الفروق بالرّجوع إلى الوظائف المختلفة الموكّلة إليه. وبذلك تترك الإدراكات بصماتها في شكل آثار يتمّ حفظها عن طريق الذّاكرة (Chabert & Verdon, 2018, p. 46).

ومن جهة أخرى توضّح شابير Chabert (1998, pp. 14-15) أنّ التّرتيب المكاني هنا ليس ضروريا، بل يكفي تأسيس تتابع مستمرّ. فبفضل الإثارة التّي تخترق الأنظمة النّفسية خلال عمليات نفسية معيّنة وفقا لترتيب زمني محدّد، يعمل الجهاز المكوّن من هذه الأنظمة النّفسية المختلفة في اتجاه ينطلق من طرف حسّي (Sensitive) نحو طرف متحرّك (Motrice)، أي أنّ النّموذج الأوّل للجهاز النّفسي هو مبني على نموذج الجهاز الانعكاسي. ومع ذلك تقول كاترين شابيرCatherine Chabert أنّه يجب إدخال عددا من الاختلافات داخل الأنظمة، مع مراعاة الوظائف المختلفة الموكّلة إليها. ولأنّ الإدركات (Perceptions) تترك أثارا تبقى محفوظة بفضل الذّاكرة، كان من الضّروري التّمييز بين نظامين: أحدهما هو إدراكي (Perceptif) بشكل أساسي، يعطي للشّعور تعدّدا وتنوّعا للصّفات الحسّاسة، لكنّه لا يحتفظ بأيّ شيء. أمّا الثّاني، فهو عكس الأوّل يحافظ وبـــ "إخلاص" على الآثار بفضل الذّكريات اللاّشعورية. ومع ذلك يقوم النّظامان بأداء مهام جدّ مختلفة، ممّا يجعل الذّاكرة والصّفات التّي تميّز الشّعور متعارضة مع بعضها في الأنظمة النّفسية. ويتم الانتقال من نظام إلى آخر بفضل "الرّقابة" (La censure) الّتي تقوم بالتّحكم وتعزّز الجانب المكاني لنظرية الجهاز النّفسي.

يتكوّن محتوى الجهاز النّفسي والأنظمة المختلفة التّي تشكّله كليّا من الصّور الذّهنية، والتّمثّلات. حيث تجد الطّاقات والنّزوات التّي تحرّكها مصادرها في الجسم، وتعمل على تفريغ التّمثّلات التّي تصبح نفسها تمثّلات لاحتياجات الجسم (Chabert& Verdon, 2018, p. 46).

ومن خلال الجهاز النّفسي قام سيجموند فرويد Sigmund Freud بشرح مفهوم التّوظيف النّفسي الذي قام بتقسيمه وعزو كل وظيفة منه إلى جزء مُكوّن للجهاز، متبنّيا من خلال ذلك فرضية فيشنر Fechner التّي تقول بأنّ: «المشهد الذي يتحرّك في الحلم ربّما يكون مختلفا عن حياة التمثّل المستيقظ» (Chabert, 1998, p.14).

4.1. وجهات النّظر الميتاسيكولوجية للتّوظيف النّفسي:

لإظهار النّشاط النّفسي بشكل ملموس، حدّد سيجموند فرويد Sigmund Freud التّوظيف النّفسي في ثلاث وجهات نظر أساسية، وهي تشير في مجملها إلى ليونة الحركات البنائية للنّظرية الفرويدية، نعرضها كما يلي:

1.4.1. وجهة النّظر الموقعية:

يعود لفظ "الطّوبوغرافيا" أو "الطّوبولوجيا" إلى الكلمة الإغريقية "Topos" التّي تعني الموقعية، ويقصد به نظرية المكان في المفهوم الفلسفي. أمّا من ناحية التّحليل النّفسي، فلقد استعمل مفهوم الموقعية مند نصف القرن التّاسع عشر من خلال الاهتمام بالأعمال النّورو-فيزيولوجية بالمواقع العصبية (Chabert& Verdon, 2018, p. 45).

ويشير مصطلح "الموقعية" (Topique) كما جاء في "dictionnaire de la psychanalyse" إلى أسلوب نظري في تمثّل التّوظيف النّفسي باعتباره جهاز له ترتيب مكاني، وباعتبار الجانب النّفسي تفاعل دينامي لمجموعة من القوى أو الأنظمة التّي تكون غالبا في صراع عنيف، اقترح سيجموند فرويد Sigmund Freud تمثّل هذه الأنظمة من خلال جهاز نفسي موزّع مكانيا (Chemama, 1993, p. 284).

لقد تضمّن أوّل كتاب نُشر لسيجموند فرويد Sigmund Freud حول الأفازيا (Aphasia) (1891) انتقادات شديدة حول محدودية الآراء الطّوبولوجية (النّظريات الموقعية) مضيفا إليها مجموعة من الاهتمامات الوظيفية (Bergeret et al, 2008, p. 53). وفي مؤلّفه "L'Esquisse psychanalytique" (1895)، قدّم سيجموند فرويد Sigmund Freud مفهوم "الموقع" انطلاقا من بنائه للجهاز النّفسي، إذ نتحدّث عن "الموقع" للإشارة إلى "أماكن" نفسية تخضع لقوانين سيرورانية (Processuelles) مختلفة (De Kernier et al, 2019, p. 12).

وفي نفس الإطار، يشير بروير Breurer من خلال أعماله مع سيجموند فرويد Sigmund Freud حول العصابات الهستيرية إلى فكرة أساسية مفادها أنّ الوظائف النّفسية تفترض هي الأخرى أنظمة مختلفة للأجهزة. ويقول بأن مرآة التّليسكوب لا يمكن أن تكون في نفس الوقت لوحة فوتوغرافية، أي أنّ الوظيفة الإدراكية ووظيفة الذّاكرة تتطلّبان نظامين متختلفين (Bergeret et al, 2008, p. 53).

ومن جهته يقول فرويد Freud (1994، ص528) من منظور يقارب هذا الرّأي: «سنتصوّر الجهاز النّفسي كما لو كان آلة مركبة تسمّى مقوّماتها المختلفة "جهات اختصاص" أو "أنظمة"، ولنا بعد ذلك أن نتوقّع وجود علاقة مكانية منتظمة بين هذه الأنظمة، مثلما تُرتّب أنظمة العدسات المختلفة في المقراب واحدة خلف الأخرى».

ويظهر أوّل تنظير موقعي للجهاز النّفسي في الفصل السّابع من " تفسير الأحلام" (1900)، وذلك رغم اهتمام سيجموند فرويد Sigmund بفكرة الإطار العصبي للجهاز العصبوني منذ "مشروع علم النّفس العلمي" (1895). وكذلك من خلال رسائله لزميله فليس Fliess، خاصّة الرّسالتين: 1-1-1896 و 6-12-1896 (زيوي، 2009، ص23).

تعبّر وجهة النّظر الموقعية عن وجود تمايز في الجهاز النّفسي إلى عدد من الأنظمة التّي تتّصف بخصائص أو وظائف مختلفة، تتوزّع تبعا لنظام خاص بالنّسبة لبعضها البعض، وتــعتبر هذه الأخيرة مجازا (Une métaphore)عن مواضع نفسية ذات تصوّر مكاني تشبيهي. فمصطلح الموقعية يركّز على التّرتيب المكاني، أي على وجود أماكن نفسية متمايزة لكلّ منها طبيعة خاصّة ونموذجا مختلفا من النّشاط (Bergeret et al, 2008, p. 42).

وفي إطار هذا التّصوّر قدّم سيجموند فرويد Sigmund Freud نظريتين موقعيتين، ميّز في الأولى (1900) بين ثلاثة أنظمة (الشّعور، ما قبل الشّعور، اللاّشعور)، وفي الثّانية (1920) بين ثلاث قوى أو هيئات "وجهات اختصاص" (الهو، الأنا، والأنا الأعلى). وفي حديثنا عن "الموقعيتين"، قد يبدو لنا أنّ الموقعية الثّانية جاءت لتلغي أو لتعوّض سابقتها، إلاّ أنّ ذلك غير صحيح، فبالرّغم من اختلاف طريقتهما في النّظر إلى التّوظيف النّفسي إلّا أنّ استعمالهما معا يُعتبر ضروريا للوصول إلى فهم وتقييم شامل للتّوظيف النّفسي. وهذا ما سيبدو لنا من خلال عرض كلا النّموذجين بشيء من التّفصيل.

1.1.4.1. الموقعية الأولى:

هي التّرتيب المكاني الأوّل الذي تصوّره سيجموند فرويد Sigmund Freud للجهاز النّفسي، وأيّد هذا النّموذج إلى غاية عام 1920 (De Kernier et al, 2019, p. 12).

لقد تمّ بناء النّموذج الموقعي للجهاز النّفسي بشكل تدريجي منذ الأعمال الأولى لسيجموند فرويد Sigmund Freud حول الهستيريا مستعينا بأفكار بروير Breurer، وكان هدفه هو وضع مفاهيم تقترب إلى المفاهيم العصبية – الفزيولوجية والنّسيجية، ليهتمّ بعد ذلك بفهم العمليات النّفسية من خلال التّنظير النّفسي. وانطلاقا من فكرة "الموقع النّفسي" (Lieu psychique)، اعتبر سيجموند فرويد Sigmund Freud ظهور العرض نتيجة لعبور الذّكريات اللاّشعورية إلى الشّعور، وتوصّل إلى ضبط الفرق بين ثلاث أنظمة مختلفة هي: الشّعور، ما قبل الشّعور،

واللاّشعور. ويعتبر من خلال "تكملة ميتاسيكولوجية لنظرية الحلم" (1915) النّوم رجوع إلى نرجسية أوّلية، ليتمكّن بذلك من استخراج نقاط الرّبط بين الحلم والفصام، أين يظهر سحب استثمار الواقع (زيوي، 2009، ص ص23-24). وهو الأمر الذي جعله يؤكّد على دور الشّعور في الفصل بين جدلية الدّاخل/ الخارج أي بين الحياة الدّاخلية والواقع الخارجي، ذلك أنّ الفرد ينمو ويتطوّر من خلال شبكات التّبادل مع بيئته العلائقية، ولكن أيضا مع نفسه ومع عالمه الدّاخلي (Chabert, 1998, p. 27).

تسمح الموقعية الأولى بمقاربة بنائية للتّوظيف النّفسي في علم النّفس المرضي من خلال إعادة بناء الحركات الموقعية، الاقتصادية والدّيناميكية التّي تحكم أساليب التّعبير. ولقد طوّر سيجموند فرويد Sigmund Freud هذا النّموذج في نفس الفترة التّي أنشأ فيها نظرية العصاب، وركّز فيه على الذّاكرة الطّفولية والكبت من جهة، وعلى السّيرورات المحفّزة من طرف عمل الحلم من جهة أخرى (Chabert& Verdon, 2018, p. 49).

يتضمّن مفهوم الموقعية الأولى حسب سيجموند فرويد Sigmund Freud مجموعة من الأنظمة ذات توجّه مكاني ثابت حسب كلّ نظام، وعلى هذا الأساس، تخضع أيّ إثارة للجهاز النّفسي لترتيب زمني محدّد. فكما أشرنا سابقا، يتكوّن الجهاز النفسي من عدّة أنظمة، وصور عقلية، وتمثّلات، كما يتميّز بنهاية حسّية تعمل على استقبال المدركات المختلفة. وكذلك الاحتفاظ بآثار ذاكرة ترتبط بوظيفة الذّاكرة التّي تتميّز بخاصية لاشعورية، وأخرى حركية تفترض وجود هيئتين نفسيتين تفرض إحداهما على الأخرى عملية الرّقابة وهذا ما يمنع الوصول إلى الشّعور. ولقد أعطى سيجموند فرويد Sigmund Freud تسمية نظام "ما قبل الشعور" لآخر نظام يرتبط بالنّهاية الحركية، وذلك للدّلالة على العمليات التي تحدث على مستواه. ثمّ يأتي خلفه نظام "اللاّشعور"، هذا الأخير يستحيل وصوله إلى نظام الشّعور إلاّ من خلال نظام ما قبل الشّعور نظرا للتّعديلات التّي يُحدثها هذا الأخير على مختلف الاستثارات (زيوي، 2009، ص ص24-25).

اختصارا لما سبق، يتكوّن الجهاز النّفسي حسب الموقعية الأولى من ثلاثة أنظمة هي: الشّعور (اختصارا: ش "Cs")، كما يسمّى أيضا هذا النّظام بنظام " الإدراك- الشّعور (ويسمّى

اختصارا: (إد-ش"PC-Cs")، ما قبل الشّعور (اختصارا: قبش"Pcs")، اللاّشعور (اختصارا: لاش"Ics") (Bergeret et al, 2008, p. 54).

- الشّعور:

يغطّي الشّعور وظائف نظام إدراك/ شعور، وهو مجموع التّجارب الفردية التّي يعيها الفرد على "الفور"، وذلك لما يتّصف به من ميزة "آنية" تسمح بتمييز الإدراكات الدّاخلية والخارجية بين مجمل الظّواهر النّفسية.

يقع نظام الشّعور حسب سيجموند فرويد Sigmund Freud في صدر الجهاز النّفسي، حيث يتموضع هذا الأخير بين العالم الخارجي من جهة، وأنظمة آثار الذّاكرة من جهة أخرى. ولقد عرّفه بمجموعة السّلوكيات الإدراكية، أي قدرته على الاحتفاظ بالصّفات الحسّية للعالم الخارجي وفق معادلة: الإدراك/الواقع (العالم الخارجي)، ويقول في هذا الصّدد: « يتكوّن الجهاز الإدراكي النّفسي من طبقتين: تكون إحداهما خارجية صادّة للإثارات التّي تعمل على التّخفيض من شدّة الإثارات التّي تأتي من الخارج، أمّا الثّانية فهي نظام ما قبل الشّعور/ الشّعور، تتموقع خلف الأولى، وتمثّل السّطح المستقبل للاستثارات(Chabert, 1998, pp. 16-17) ».

وفي سنة 1915، صرّح سيجموند فرويد Sigmund Freud أنّ شعور الفرد ليس معيارا كافيا لتمييز الأنظمة. ومع ذلك لم يتخلّ أبدا عن فكرته القائلة بأنّ الشّعور ينتمي إلى نظام منتظم (Organisé)، كما يشير إلى أنّ الوصول إلى مستواه ليس من مميّزات الموضع الموقعي للمحتوى (المحتوى اللاّشعوري المكبوت) (Chabert, 1998, pp. 16-17).

وبالرّغم من تعارض وظيفة الإدراك مع وظيفة الاحتفاظ بالصّفات الحسّية، إلاّ أنّ الشّعور يشغل وظيفة أساسية. وهذا يعني أنّ نظام الإدراك/ الشّعور لا يحتفظ بأي آثار متبقية للاستثارات التّي يسجّلها، فهو يعمل وفق سجّل كيفي على خلاف باقي الجهاز النّفسي الذي يعمل وفق الكمّيات (Bergeret et al, 2008, p. 54). يعني ذلك ترجمة كل ما هو كيفي إلى كمّي، وفي هذا الشّأن توضّح شابير Chabert (1998, p. 17) أنّ هناك سلوكيات شعورية كالتوتّر تتطلّب تعديلا دقيقا أين يصبح البعد الاقتصادي (من حيث الشّدة، والاختلاف في الشّدة) ضروريا. هذا التّعارض ما هو إلا دليل على أن الشّعور يكشف فقط عن جزء صغير من العمليات النّفسية،

ومادام أنّ معظمها لا شعورية، يصبح من الضّروري تحديد الطّبيعة الشّعورية أو اللاشّعورية لأي ظاهرة نفسية.

يقول سيجموند فرويد Sigmund Freud في هذا الشّأن:

«ذلك أنّ الشّعور الذي ننظر إليه باعتباره عضوا حسّيا مخصّصا لإدراك الكيفيات النّفسية قادر في حياة اليقظة على تلقي التّهييجات من جهتين: أوّلا من الحافة المحيطةبسطح الجهاز كلّه، من النّظام الإدراكي، ثم بالإضافة إلى ذلكمن تهييجات اللّذة والألم التي تدلّ الدّلائل على أنّها تكاد تكون الكيف الوحيد الذي يصحب تنقّلات الطّاقة في داخل الجهاز، فجميع العمليات الأخرى التّي تقع في الأنظمة النّفسية -بما فيها قبش- مجرّدة من كلّ كيفية نفسية، وبذلك لا تستطيع أن تكون موضوعات للشّعور إلا من حيث تسلم لذّة أو ألما»

(فرويد، 1994، ص562).

يمكن الإشارة في الأخير إلى أنّ نظام الشّعور هو مقرّ عمليات التّفكير المنطقي الواقعي الذي يراقب باستمرار النّزوات المندفعة من نظام اللّاشعور الذي يخضع لمبدأ اللّذة، فهو النّظام الذي نستعمله عادة في حالة اليقظة كإصدار الأحكام والوعي بالمتناقضات.

- ما قبل الشّعور:

يقع نظام ما قبل الشّعور بين نظام الشّعور ونظام اللاّشعور، وقد أولاه سيجموند فرويد Sigmund Freud أهمّية تتمثّل في وضع الفروق بين كلّ من الشّعور واللاّشعور، حيث تقوم الرّقابة الأولى بفصله من اللاّشعور لتمنع بذلك مرور المحتويات اللاّشعورية إلى ما قبل الشّعور. وفي المقابل يقوم ما قبل الشّعور بالتّحكّم في كلّ من الشّعور والمهارات الحركية، ويخضع المرور من ما قبل الشّعور إلى الشّعور إلى رقابة ثانية تختلف عن سابقتها (ما بين اللاّشعور وما قبل الشّعور) من حيث وظيفتها الأساسية التّي تتمثّل في "الانتقاء" (La sélection) أي استبعاد التّمثّلات المزعجة والمهدّدة للشّعور.

ونظرا لارتباطه باللّغة اللّفظية وتمثّلات الكلمات (Langage verbal et représentations de mots)، يسير ما قبل الشّعور أساسا وفق السّيرورات الثّانوية، ومع ذلك تبقى بعض محتوياته خاضعة في بعض الأحيان إلى السّيرورات الأولّية التّي تخضع لمبدأ اللّذة، وهذا ما يمنح لهذا النظام ميزة "الوسيط" (intermédiaire) بين اللاّشعور والشّعور (Chabert& Verdon, 2018, p. 47).

يقول سيجموند فرويد Sigmund Freud:

«جميع العمليات الأخرى التّي تقع في الأنظمة النّفسية – بما فيها قبل الشّعور- مجرّدة من كلّ كيفية نفسية، وبذلك لا تستطيع أن تكون موضوعات للشّعور إلاّ من حيث تسلم لذة أو ألم. ونحن

بذلك مساقون إلى أن نستخلص أنّ هذهالتّفريغات من اللّذة والألم تنظّم سير العمليات الاستثمارية تنظيما أوتوماتيكيا (أي بدون تدخّل الشّعور). ولكن لكي يصبح الإتيان بأفعال أدقّ تركيبا شيئا ممكنا، فقد صار من الضّروري فيما بعد أن يُجعل سير الأفكار غير متوقّف على انتقاء الألم أو وجوده، ولهذا الغرض لحتاجَ النّظام "قبش" إلى أن تكون له كيفيات خاصّة به تستطيع أن تجتذب انتباه الشّعور، ومن الرّاجح هنا أكبر الرّجوح أنّه قد وجدها بربط العمليات قبل الشّعورية بنظام التّاكرة للرّموز اللّغوية – وهو نظام لا يخلو من الكيف- »

(فرويد، 1994، ص562).

وفي نفس الإطار، يوضّح بارجوري وآخرون Bergeret et al (2008, p. 54) أنّه يمكن تعريف ما قبل الشعور بشكل صحيح من خلال خصائص محتواه وطريقة عمله. فبالنّسبة لمحتواه، يمكن القول بأنّه غير حاضر داخل ساحة الشّعور، ومع ذلك يمكنه المرور بسهولة إلى المعرفة الشّعورية. فهو مكوّن من "تمثّلات الكلمات"، وينتمي لنظام آثار الذّاكرة (Traces mnésiques). وقد أطلق عليه سيجموند فرويد Sigmund Freud بـــ " الأنا الرّسمي" (Le moi officiel) التي نكون على استعداد لتحمّلها.

- اللاّشعور:

يدلّ اللاّشعور بالمعنى الطّوبوغرافي الموقعي على أحد الأنظمة التّي حدّدها سيجموند فرويد Sigmund Freud في إطار نظريته الأولى عن الجهاز النّفسي. ولخّص خصائصه في مجموعة من المحتويات النّفسية المكبوتة التّي لم تتمكّن من العبور إلى الرّقابة (La censure) والوصول إلى نظام ما قبل الشّعور/ الشّعور تحت تأثير الكبت (Bergeret et al, 2008, p. 54).

ويمكن وصف اللاّشعور بأنّه الجانب الأكثر قدما (Archaïque) في الجهاز النّفسي والأكثر قربا إلى المصدر النّزوي، وهذا ما يجعل محتواه يتكوّن أساسا من التّمثّلات الفكرية لهاته النّزوات ومن الشّحنات الانفعالية المرتبطة بها. وفي هذا الشّأن يتساءل بارجوري وآخرون Bergeret et al (2008, pp. 54, 56): «لماذا تمثّلات النّزوات وليس النّزوات؟»، ويجيبون مباشرة: «لأنّ النّزوة بالنّسبة لسيجموند فرويد Sigmund Freud هي مصطلح يقع على الحدود بين البيولوجي والسّيكولوجي، وكذلك على مستوى العمليات العقلية، فتمثّلات النّزوات هي التّي تتدخّل، وهي على مستوى اللاّشعور "تمثّلات الأشياء" (في مقابل تمثّلات الكلمات في ما قبل الشعور)، التّي لاقت كبتا أوّليا».

يتشكّل اللاّشعور خلال حياة الفرد وتحديدا أثناء طفولته. تتميّز وظائفه بالسّيرورة الأوّلية، حيث تكون الطّاقة حرّة أين يظهر تفريغها دون قيود. تنتقل هذه الطاقة الحرّة بسهولة

من تمثّل إلى آخر فتُكثّف (Condensation) أو تُزاح (Déplacement) على الموضوعات دون اعتبار للمنطق، وهذا ما يُشير إلى خضوع هذا النّظام إلى مبدأ اللّذة.

تشكّل العناصر المكبوتة جوهر اللاّشعور، وهي عبارة عن تمثّلات نزوية لا يمكنها أبدا أن تصبح شعورية أو حاضرة في اللاّشعور إلاّ من خلال تمثّلها. حيث تُنتظم التّمثّلات اللاّشعورية في التّخيلات (Fantasmes) التي تثبّت فيها النّزوات وتوضع على شكل سيناريوهات خيالية للرّغبة.

إضافة إلى ذلك، يمكن استيعاب محتويات اللاّشعور في الطّفولة بقدر ما لم تُدمج جميع تجارب الطّفولة مع اللاّشعور. فعمل الكبت يسمح بالتّمييز الأوّل بين اللاّشعور وما قبل الشّعور والشّعور، مع عدم الخلط بين هذا الأخير والمحتويات التّي يحتوي عليها (Chabert& Verdon, 2018, p. 47-48).

في نهاية عرضنا لوجهة النّظر الموقعية الأولى، يمكن الإشارة إلى أنّ العبور من جهاز لآخر يحدث بفضل الرّقابة (La censure) التّي تقوم بضبط وتقوية موقعية الجهاز النّفسي (Chabert& Verdon, 2018, p. 46). هذه الأخيرة تقوم بدورها تماما كما تقوم شرطة الحدود بدورها في السّماح أو رفض المرور من بلد إلى آخر.

ومن أجل شرح أوضح ومختصر لهذه الأنظمة يمكننا الاستعانة بالمخطّط الذي قدّمه بارجوري وآخرون Bergeret et al (2008, p. 55) كما يظهر في الشّكل الموالي:

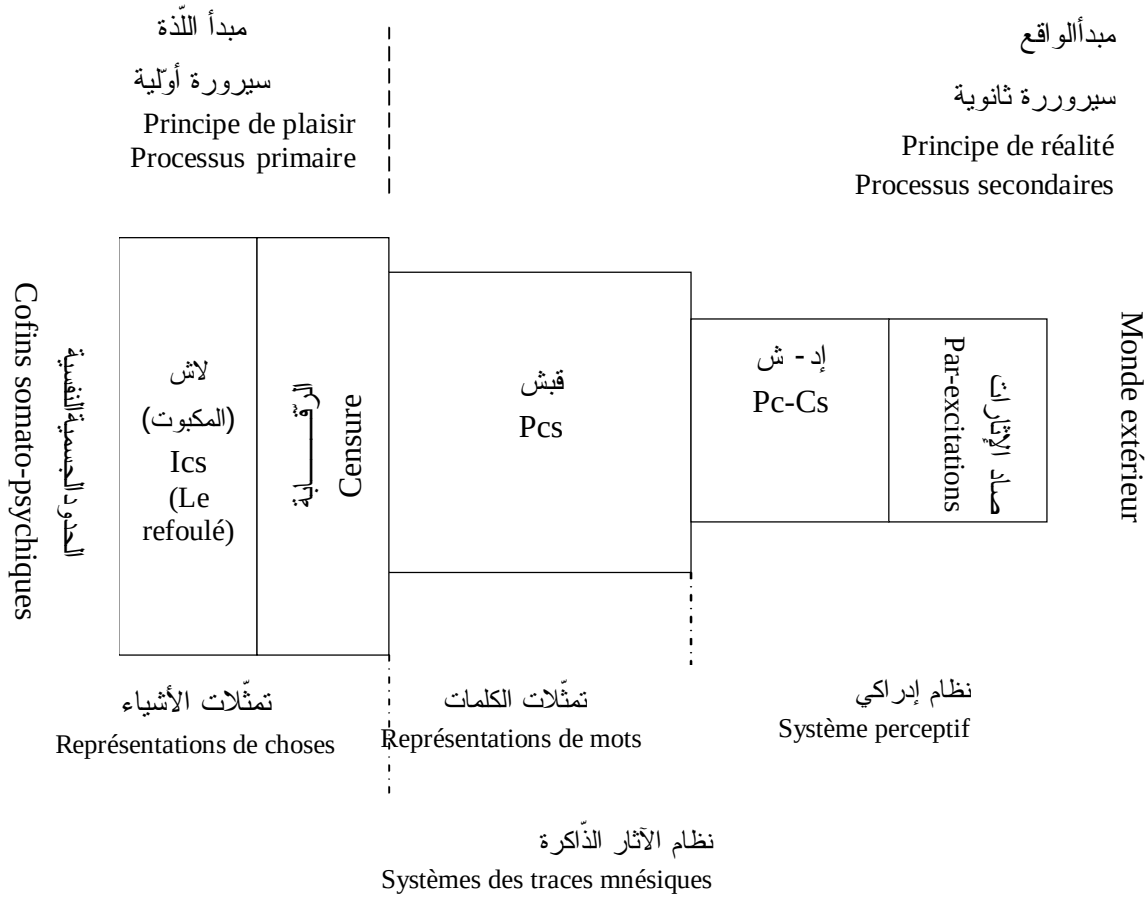

شكل رقم (01): مخطط الجهاز النفسي حسب الموقعية الأولى

المصدر: (Bergeret et al, 2008, p. 55).

2.1.4.1. الموقعية الثّانية:

يمكننا تتبّع المراحل الانتقالية لسيجموند فرويد Sigmund Freud من الموقعية الأولى إلى الموقعية الثّانية بالرّجوع إلى "محاولات التّحليل النّفسي"، ولقد ظهر هذا التّعديل نتيجة للمراجعات التّي قام بها على نظرية النّزوات مؤكّدا في ذلك على الجانب الوصفي والدّينامي للاّشعور. وفي إدراجه للموقعية الثّانية، خصّص سيجموند فرويد Sigmund Freud جزءً كبيرا من دراساته حول "علم النّفس الجمعي" واعتبر الجانب الفيلوجيني (Phylogénétique) في اللاّشعور مرادفا للهو، ونظاما مهمّا ضمن النّظرية الجديدة للجهاز النّفسي. وقد طوّر هذه النّظرية من خلال مقاله " الأنا والهو" (1923) (زيوي، 2009، ص27).

تشير الموقعية الثّانية إلى التّرتيب الثّاني للجهاز النّفسي، وقد ظهرت بوادرها ابتداء من سنة 1920، قدّم من خلالها سيجموند فرويد Sigmund Freud تصوّرا جديدا للتّوظيف النّفسي

ميّز من خلاله بين ثلاث هيئات أو قوى هي: الهو، الأنا، والأنا الأعلى (Chabert& Verdon, 2018, p. 59). ويبدو واضحا في هذا النّموذج أنّ مصطلح "القوى" أو "الهيئات" أو "وجهات اختصاص" الذي له دلالة ديناميكية وبنائية في آن واحد قد حلّ محلّ مصطلح " النّظام". فهذه القوى ولو أنّها مرتبطة بعلاقات تبعية إلاّ أنّها مستقلّة نسبيا عن بعضها البعض (De Kernieret et al, 2019, p. 13).

تؤكّد شابير وفيردو Chabert&Verdon (2018, p. 59-60) في إطار ظهور الموقعية الثّانية، أنّ هذا التّصوّر الجديد لا يعني التّخلي عن التّصوّر السّابق (الموقعية الأولى). فكلا الموقعيتين تلتقيان في دراسة الجهاز النّفسي من حيث أنظمته (الشّعور/ ما قبل الشّعور/ اللاّشعور) والقوى المكوّنة له (الأنا/ الهو/ الأنا الأعلى)، وومع ذلك لا يوجد تطابق بين هذه الأنظمة والقوى: فإذا تمّ وصف الهو بشكل قريب جدّا من اللاّشعور، فإنّ الأنّا ليس فقط الشّعور.

- الهو:

من المهمّ أوّلا وقبل التّطرّق لماهية وخصائص هذه الهيئة النّفسية، أن نستكشف العلاقة بين الهو واللاّشعور كما وضحها سيجموند فرويد Sigmund Freud في مؤلّفه "الأنا والهو عندما يقول":

> لقد ذهبنا إلى أنّه توجد في كلّ فرد منظّمة دقيقة للعمليّات العقلية سميناها الأنا، ويشمل هذا الأنا الشّعور (...) وهو المنظّمة العقلية التّي تشرف على جميع العمليات العقلية (...) وعن هذا الأنا أيضا يصدر الكبت الذي تمنع به بعض نزعات العقل لا من الظّهور في الشّعور فحسب، بل تمنع أيضا من الظّهور في سائر صور النّشاط الأخرى، وتظهر هذه النّزعات المكبوتة أثناء التّحليل متعارضة مع الأنا (...)ونحن نرى الآن أنّ المريض يجد كثيرا من المشقّة حينما نجابهه ببعض المهام أثناء التّحليل، كما نرى تداعي أفكاره يتوقّف كلّما اقترب من الأشياء المكبوتة، ونقول له حينئذ أنّ هناك مقاومة متغلّبة عليه، ولكنّه يكون غير منتبه للأمر إطلاقا (...) وبما أنّ هذه المقاومة بدون أدنى شكّ تصدر عن أناه وتُنسب إليه، فإنّنا نجد أنفسنا في موقف لم نكن توقّعه، فلقد وجدنا في الأنا ذاته شيئا لا شعوريا أيضا، وهو يتصرّف تماما كالشّيء المكبوت (...)والنّتيجة التّي نصل إليها من هذه الملاحظة فيما يتعلّق بممارسة التّحليل النّفسي هي أنّنا نجد أنفسنا في ارتباك وصعوبة لا حدّ لهما فيما إذا تمسّكنا برأينا السّابق وحاولنا مثلا أن نستنج الأمراض العصابية من الصّراع الذي ينشب بين الشّعور واللاّشعور، ويُصبح من الواجب علينا أن نستبدل بهذا التّقابل تقابلا آخرا مستمدّا من تبصّرنا في شروط تركيب العقل، أعني ذلك التّقابل بين الأنا المنظّم وبين ما هو مكبوت ومنفصل عن الأنا (...) فإنا ندرك أن اللاّشعور لا يتطابق مع المكبوت، ولا يزال صحيحا أنّ كلّ ما هو مكبوت لا شعوري، ولكن ليس كلّ ما هو لا شعوري مكبوتا»

(فرويد، 1982، ص ص31-32).

يبدو واضحا من خلال هذه الشّهادة التي قدّمها سيجموند فرويد Sigmund Freud والذي يُقرّ من خلالها بأنّ المقاومة التّي تصدر عن الأنا هي لا شعورية، أنّ اللاّشعور لم يُطرح هذه المرّة (أي في إطار الموقعية الثّانية) كنظام، وإنّما ككيفية أو خاصية يتميّز بها الهو. هذه الخاصّية هي موجودة جزئيا في القوى النّفسية الأخرى (الأنا والأنا الأعلى)، وهذا ما يميّزها عن الهو الذّي تبقى فيه خاصية اللاّشعور الكيفية الوحيدة الموجودة فيه، فهو في مجمله لا شعوري تُسيّره نفس القوانين التّي تُسيّر اللاّشعور.

وعلى هذا الأساس، يمكننا أن نخصّص للهو مكانة مشابهة تماما لنظام اللاّشعور كما هو محدّد في الموقعية الأولى، وذلك خاصّة من خلال عمله وفق السّيرورات الأوّلية التّي تخضع لمبدأ اللّذة، فهو يتميّز بغياب الفرد كسلطة موحّدة من خلال سيادة الحركات النّزوية.

يمكن تعريف الهو بأنّه القطب الذي يتضمّن كلّ ما يأتي به الفرد منذ ولادته، ليكون بذلك أقدم جزء في الجهاز النّفسي وأهمّه. كما يشتمل على ما تمّ تحديده من قِبَلْ النّزوات في التّعبير النّفسي، ذلك أنّ النّزوات المنبثقة من التّنظيم الجسدي تجد في الهو الأسلوب الأوّل للتّعبير النّفسي. وبهذا يُصبح الهو حسب سيجموند فرويد Sigmund Freud المستودع الأوّل للطّاقة النّزوية من وجهة نظر اقتصادية، ويدخل في صراع مع الأنا والأنا الأعلى، وهذا ما يُدمج وجهة النّظر الدّينامية (Chabert& Verdon, 2018, p. 60).

ولأنّ الهو قطب خاصّ بغرائز الهدم والموت، حاول سيجموند فرويد Sigmund Freud وصفه للتّعبير عن "المعترك" (L'arène) الذي تتصارع فيه الغرائز، فشبّهه بـــ "قدر يغلي"، ممتلئ بالإثارة، مشحون بـــ "قوى عمياء" (Des puissances aveugles) لا يمكن السّيطرة عليها، في فوضى تتصارع فيه على نحو غامض وبوحشية غرائز الموت مع غرائز الحياة (Chemama, 1993, p. 36).

لا يفوتنا أن ننوّه في الأخير، أنّ الهو هو قطب مقيّد جزئيا بالأنا الأعلى والأنا الذي يبقى في عمل مستمرّ ويخدم ثلاثة "سادة" في وقت واحد هي: الواقع، الأنا الأعلى، والهو (De Kernier et al, 2019, p. 13).

- الأنا:

تحت تأثير العالم الخارجي، يتشكّل قطب خاصّ يلعب دور الوسيط بين الهو والعالم الخارجي، يُسمّى "الأنا". فعلى نقيض الهو، يتشكّل هذا الأخير حسب سيجموند فرويد Sigmund Freud من خلال نمط معقّد من التّنظيم النّفسي الذي يقوم بدور المعدّل والمثبّط (Chabert& Verdon, 2018, p. 60).

يفترض سيجموند فرويد Sigmund Freud انطلاقا من آرائه السّابقة حول المقاومة التّي تصدر عن الأنا بأنّ هذا الأخير يحمل في ذاته شيئا لا شعوريا، وفي هذا الشّأن يوضّح بارجوري وآخرون Bergeret et al (2008, p. 59):

> « في إطار هذه الموقعية يكون في الأنا جزء كبير لا شعوري، ويبدو هذا جليّا في بعض ميكانزمات الدّفاع، على سبيل المثال وبطريقة جدّ اعتيادية في السّلوكيات الوسواسية، حيث يجهل الفرد دافع وميكانيزمات سلوكه، ولكن أكثر من ذلك، لا بدّ أن تُعتبر هذه الميكانيزمات في مظهرها القهري التّكراري، وفي تجاهلها للواقع بأنّها خاضعة للسّيرورات الأوّلية».

الأنا إذن هو موطن الشّعور، وفي نفس الوقت حيّز للتّظاهرات اللاّشعورية، فهو يقوم بوظيفة رئيسة بين الهو والأنا الأعلى، وبين داخل وخارج الجهاز النّفسي، وعلى هذا الأساس يقول عنه سيجموند فرويد Sigmund Freud (1923) بأنّه "كائن حدودي" (Un être frontière). هذا الأخير يقوم بالعديد من الوظائف فعنه –كما ذكرنا سابقا- تصدر المقاومة والكبت، ويحاول أن يفرض مبدأ الواقع على الهو الذي يسيطر عليه مبدأ اللّذة. فبالنّسبة للخارج يسيطر الأنا على الحركات الإرادية ويقوم بحفظ الذّات، كما يتعلّم معالجة المثيرات الخارجية من خلال تراكم الخبرات في الذّاكرة، وتفادي المثيرات الشّديدة، ويستقبل المثيرات المعتدلة بالتكيّف والمواءمة مع العالم الخارجي بطريقة مناسبة. أمّا فيما يتعلّق بالدّاخل فإنّ الأنا مرتبط بالرّقابة ضدّ الهو، فهو يعدّل، يمنع، يتحكّم، أو يحاول السّيطرة على المطالب النّزوية من خلال إشباعها أو تأجيلها أو حتى كبحها تماما. الأنا إذن هو الوسيط الأساسي الذي يراعي المتطلّبات المتناقضة للعالم الخارجي والهو والأنا الأعلى بجزء كبير من اللاّشعور، إضافة إلى نواة الشّعور (Chabert& Verdon, 2018, p. 60).

تقدّم أعمال فرويد حول "Le narcissisme " و" L'incorporation et les identification " مفاهيما جديدة توضح أن الأنا هيئة نفسية لا تظهر على الفور وإنّما تتشكّل تدريجيا. فيعرفها كوحدة (Unité) تُقدّم نفسها كموضوع للحبّ تماما مثل الموضوع الخارجي. حيث تحتلّ

سيرورات الاستدخال والتّقمص (Processus d'intériorisation et d'identification) مكانة ووظيفة محدِّدة لتشكّل الأنا وتعديله، ويتمّ استدخال العلاقات مع المواضيع الخارجية والمواضيع الأصلية، ممّا يعني أنّ هناك ترابط داخل الجهاز النّفسي بواسطة الجهاز النّفسي من ناحية نفس-داخلية (Intrapsychique) لما يحدث في الخارج على مستوى العلاقات الشّخصية الخارجية (Chabert& Verdon, 2018, p. 61).

وفي المقابل، إذا كان الهو هو القطب النّزوي في الشّخصية، فإنّ الأنا هو القطب الدّفاعي فيها، هذا الأخير يكون قويّا في جوانب، وضعيفا في جوانب أخرى، حيث يقول سيجموند فرويد Sigmund Freud في مؤلّفه "الأنا والهو":«ونحن نرى هذا الأنا نفسه من جهة النظر الأخرى، كأنّه مخلوق ضعيف يقوم بخدمة أسياد ثلاثة، وهو مهدّد تبعا لذلك ثلاثة أخطار مختلفة: من العالم الخارجي، ومن ليبيدو الهو، ومن قسوة الأنا الأعلى» (فرويد، 1982، ص89).

- الأنا الأعلى:

تدريجيا، يتشكّل داخل الأنا قطب آخر يمتدّ من خلال التّأثيرات والتّقمّصات الوالدية يُسمّى "الأنا الأعلى". وشيئا فشيئا ينفصل هذا الأخير عن الأنا ويعارضه، فتتجسّد قوّة ثالثة يأخذها الأنا بعين الاعتبار.

لقد قدّم سيجموند فرويد Sigmund Freud الأنا الأعلى سنة 1915 من خلال دراساته حول "اتّهام الذّات الميلانخولي" (L'auto-accusation mélancolique)، وفي سنة 1923 أدخله كجهاز منفصل عن الأنا. ونظرا لوظيفته الحسّاسة، اعتبره سيجموند فرويد Sigmund Freud "وريث عقدة الأوديب" لما يستدخله من أوامر ومحرّمات الوالدين. وبهذا المعنى يكشف الأنا الأعلى عن سيرورات التّقمص، فيتنازل الطّفل عن رغباته الأوديبية ويتماهى مع متطلبات والديه، ويستدخل نواهيهما. وفي هذا الإطار، يوضّح سيجموند فرويد Sigmund Freud أنّ أنا الأعلى للطّفل لا يتشكّل من الصّورة الوالدية، ولكن من صورة "الأنا الأعلى للوالدين"، فيمتلئ بنفس محتواهم، ويُصبح المُمثّل (Le représentant) للعادات ولجميع الأحكام القيمية التّي تستمرّ مع الأجيال (Chabert& Verdon, 2018, pp. 61-62).

وفي وجهة نظر مشابهة، يقول بارجوري وآخرون Bergeret et al (2008, p. 60):« لا يتعلّق الأمر هنا بتقمّص شخصية الوالدين (أو أنا الوالدين) فمن المعروف أنّ: الأنا الأعلى قاسٍ، قد يتكوّن انطلاقا من أب لطيف، فالتّقمص يتمّ بالاعتماد على الأنا الأعلى للوالدين الذي يظهر من خلال تصرّفاتهما التّربوية، ومن جيل إلى آخر».

يتشكّل الأنا الأعلى كقوّة نفسية حاسمة، وهو قابل أن يتغذّى من حبّ الوالدين الذي يتمّ استدخاله أيضا، ويراقب الأنا من أجل ضمان تقديرا أساسيا، بتجنّب الفوارق المهمّة التّي تتعلّق بالمُثل المرجعية.

إن خاصية " الرّقيب " التّي يتميّز بها الأنا الأعلى والتي تحمي وتعطي حدودا بنائية، غالبا ما يتمّ إهمالها لصالح التّمثّلات القاسية التّي تتمثّل أساسا في التّحريم والعقاب (Chabert& Verdon, 2018, p. 62).

لا يفوتنا الحديث أخيرا عن الوظائف الأساسية الثّلاث التّي يقوم بها الأنا الأعلى وهي: الملاحظة الذّاتية (Auto-Observation)، الضّمير الأخلاقي (Conscience morale) أو الرّقابة، يُضاف إلى ذلك وظيفة الامتثال. ويكمن الفرق بين الوظيفتين الأخيرتين في الشّعور بالذّنب بالنّسبة للأنا الأعلى لارتباطه بالضّمير الأخلاقي (لا يجب عليك وإلاّ شعور بالذّنب)، والشّعور بالنّقص بالنّسبة للأنا المثالي لارتباطه بالوظيفة المثالية (يجب عليك وإلاّ شعور بالنّقص) (Bergeret et al, 2008, pp. 60-61).

وهكذا، ومن خلال هذا النّموذج، يكون سيجموند فرويد Sigmund Freud قد قدّم في جميع أعماله فهما أصيلا للتّوظيف النّفسي، حيث قام بتعيين مهاما خاصّة للجهاز النّفسي، يمكن تجميعها ككلّ تحت مصطلح " العمل النّفسي" (Le travail psychique) (Chabert& Verdon, 2018, p. 62).

2.4.1. وجهة النّظر الدّينامية:

يرى سيجموند فرويد Sigmund Freud في دراسته "الفكر التّحليلي لاضطرابات الرّؤية ذات المصدر النّفسي"(1910) أنّ النّزوات لا تكون دائما في اتّفاق، وهذا ما يؤدّي إلى الصّراع النّفسي. هذا المفهوم الذي نجده منذ بداية أعماله في التّحليل النّفسي، ينتج بين الأنا واللاّشعور، وقد أشار إليه بوجود طاقة محرّكة دون تسميتها بالنّزوة (زيوي، 2009، ص36).

وإذا كان الصّراع النّفسي ذو أهمية كبيرة في التّجربة التّحليلية، وتعريفه سهل في إطار الفهم العيادي، فإنّه صعب التّعريف ومعقّد في إطار الميتاسيكولوجيا الفرويدية، ويمكن تناوله من ناحيتين: فمن النّاحية الموقعية يظهر كصراع بين الأنظمة، فينبع من الأنظمة الثّلاثة: الشّعور/ ما قبل الشّعور/ اللاّشعور في الموقعية الأولى. ومن الأنا، الهو، الأنا الأعلى في الموقعية الثّانية. هذه المواجهة تشير إلى تعارض بين مبدأ اللّذة ومبدأ الواقع. أمّا من النّاحية الاقتصادية – الدّينامية فيظهر كصراع بين النّزوات (Chabert, 1998, p. 24).

تدرس وجهة النّظر الدّينامية العمليات النّفسية التّي تنجم عن الصّراع النّفسي بين القوى المتصارعة فيما بينها. حيث تفترض وجهة النّظر هذه وجود قوّتين متصارعتين داخل النّفس، فينجم الصّراع بين القوى اللاّشعورية التّي تضغط من أجل الظّهور والتّعبير عن نفسها في الشّعور، والقوى المعارضة التي تحاول منعها من ذلك. أي الصّراع بين الرّغبات والدّفاع ضدّها، وهو ما يفسّر الاضطراب النّفسي في التّناول السّيكوباتولوجي التّحليلي.

إنّ القدرة على تحمّل ومعالجة الصّراعات النّفسية، التّفكير فيها، التّعبير عنها في كلمات، أو على العكس، صعوبة أو استحالة القيام بذلك، يمثّل أنماطا مختلفة من التّوظيفات النّفسية السّيكوباتولوجية. فمفهوم التّوظيف النّفسي المرتبط بصلابة الجهاز إلى حدّ ما-والذي يشكّل موقعه المجازي- أحد المحاور الرّئيسة للسّيكوباتولوجية التّحليلية (العصاب، الذهان، والتّوظيف الحدّي) والأعراض الخاصّة بها في جزء مشترك لطرق متصارعة بين أنظمة الموقعية الأولى وبين القوى النّفسية في الموقعية الثّانية (Chabert& Verdon, 2018, p. 62-63).

تعتمد وجهة النّظر الدّينامية حسب سيجموند فرويد Sigmund Freud على فرضية التّوظيف النّفسي "المتُحرك" (Mobile) بواسطة قوى متعارضة تشكّل أصل الصّراع النّفسي. إذ يتصوّر الظّواهر النّفسية من خلال هذا المفهوم (الصّراع النّفسي) الذي يرتبط بفكرة القوّة التّي تقوم بدفعة معيّنة ذات أصل نزوي (Une poussée d'origine pulsionnelle). كما تؤكّد وجهة النّظر هذه على البعد الدّيناميكي للتّوظيف النّفسي من منظوره التّحليلي، والذي يتعارض بصرامة مع النّماذج السّتاتيكية الثّابتة (Statiques). لا يعني ذلك الأخذ بعين الاعتبار مفهوم "القوّة" فقط، إنّما أيضا فكرة جوهرية مفادها أنّ داخل النّفس ذاتها توجد قوى تتصارع "حتما" مع بعضها البعض.

وفي هذا الإطار يُعرّف الصّراع النّفسي من خلال معارضة المتطلّبات الدّاخلية المتضادّة، حيث يوضح سيجموند فرويد Sigmund Freud (1905) في "دراسات حول الهستيريا" كيف تظهر مقاومة مرتفعة خلال بروز الذّكريات المرضية "أثناء سيرورة العلاج". ويُعرّف العرض العصابي كنتاج لحلّ تسوية بين مجموعة من التّمثّلات المتناقضة التّي تعمل كقوى متصارعة، تكون بعضها مدفوعة بحركات الرّغبة، وبعضها الآخر مدفوعة بحركات مضادة تدعمها الممنوعات (Chabert, 1998, pp. 23- 24).

ومن أجل فهم أكثر لوجهة النّظر الدّينامية تجدر بنا العودة إلى فكرة "الثّنائية" (Dualisme) في التّصوّر الفرويدي، والتّي تجتمع في نزوتين أساسيتين تتصارعان وتتواجهان لتُشكّلان بذلك المعنى الدّينامي للصّراع النّفسي. حيث تقابل الثّنائية بين النّزوة الجنسية، ونزوة حفظ الذّات (نزوة الأنا). هذه الأخيرة تعتبر أساس الصّراع النّفسي في التّعارض بين النّزوات الموجّهة نحو الموضوع (الجنسي) وتلك التّي تركّز على الفرد (الحفاظ على الذّات) (Chabert, 1998, p. 25).

ومن هذا المنطلق، يركّز سيجموند فرويد Sigmund Freud في تفسيره لوجهة النّظر الدّينامية أساسا على مصطلح "النّزوة"، حيث يقول في "ثلاث مباحث في نظرية الجنس":« نعني بالنّزوة الممثّل النّفسي لمصدر متواصل التّنبيه من داخل الجسم نميّز بينه وبين التّنبيه الخارجي والمتقطّع، تحتّل النّزوة إذن موقعها عند الحدّ الفاصل بين المضمارين النّفسي والجسمي»(فرويد، 1982، ص43).

وفي هذا الصّدد يرى سيجموند فرويد Sigmund Freud أنّ النّزوة هي مكوّن أوّلي يدخل في علاقة مع الأنا، ويعتبرها بذلك "ظاهرة سوماتية نفسية" (Phénomène somato-psychique) (Kienberger, 2001, p. 04). فالدّفعة النّزوية " كمفهوم حدودي" ركّز عليه سيجموند فرويد Sigmund Freud تمتدّ في النّفس لاتّصالها بالجسد. وبهذا المعنى تُصبح النّزوة ظاهرة دينامية متحرّكة وليست شيئا جامدا، حيث يقول: «ما هو جسدي ليس فقط جزء من النّزوة، بل هو أحد محدّداتها (Assoun, 2004, p. 04) ». الجسم إذن في علاقة مستمرّة مع النّفس، لأنّه الهيكل الذي يسمح ببنائها (Kienberger, 2001, p. 04).

يعمل بارجري وآخرون Bergeret et al (2008, p. 66) بوجهة النّظر هذه بقولهم:« يمكننا أن نلاحظ أنّ التّعبير مطلب عمل مفروض على "النّفس"، ومتناسق مع مفهوم "الدّفعة" (poussée La) المتواجد داخل النّزوة في حدّ ذاتها».

تجدر الإشارة في الأخير، إلى أنّ الصّياغة النّظرية التّي قدّمها سيجموند فرويد Sigmund Freud في إطار الموقعية الثّانية قد قدّمت مقاربة أكثر تنوّعا للشّخصية، إذ يتضاعف الصّراع الدّيناميكي بين القوى النّفسية بطريقة ما من خلال "ثنائية نزوية" (Dualisme pulsionnelle) جديدة تشمل نزوات الحياة (Pulsions de vie) ونزوات الموت (Pulsions de mort) دون تطابق الصّراع بين القوى النّفسية مع الصّراع النّزوي (Chabert, 1998, p. 25).

3.4.1. وجهة النّظر الاقتصادية:

تشير كلمة " الاقتصاد" في إطار وجهة النّظر الاقتصادية إلى الطّاقة النّفسية ومفهوم الكمّية (énergie psychique quantifiable)، حيث تدرس وجهة النّظر هذه كيفية تنقّل وتوزيع الطّاقة النّفسية عبر مختلف أنظمة الجهاز النّفسي من زاوية كمّية، أي أنّها قابة للقياس كمّيا، وهي بذلك قابلة للزّيادة والنّقصان والتّعادل (Chabert, 1998, p. 25).

لا يخف علينا في هذا المجال، أنّ تسيير الحياة النّفسية يأخذ بعين الاعتبار مجمل التّمثّلات والعواطف. ويشير لفظ "العاطفة" إلى الجانب الكمّي في استثمار التّمثّلات، حيث ترتبط كمّية من الطّاقة النّفسية بتمثّل نفسي أو موضوع خارجي واقعي. وبالاستناد إلى مفهوم النّزوة الذي يشير إلى مجموع الإثارات الدّاخلية، انتهى سيجموند فرويد Sigmund Freud إلى وصف الطّاقة النفّسية للعاطفة من خلال هذا المفهوم. ولأنّ النّزوة مكوّن بيولوجي، تشمل -كما رأينا سابقا- جانبا سوماتيا وآخرا نفسيا، فإنّ الطّاقة اللّيبيدية تُستمدّ منها، لتُصبح بذلك طاقة خاصّة بالاستثمارات (زيوي، 2009، ص30). وبناء على وجهة النّظر هذه، أصبح من الممكن وصف كلّ نشاط الجهاز النّفسي بمصطلحات اقتصادية كالاستثمارات، الاستثمارات المفرطة، سحب الاستثمار (Chabert, 1998, p. 25).

يرتبط مفهوم الاستثمار من منظور التّحليل النّفسي عادة بوجود طاقة مرتبطة به. فبعدما كان التّوظيف النّفسي يفسّر وفق نموذج عصبي- فيزيولوجي" يرى بوجود طاقة تأخذ مسارا عصبونيا يكون مشحونا مسبقا، وهو ما يعيدنا إلى مفهوم "الطّاقة العصبية" الذي ظهر مند

الأعمال الأولى لسيجموند فرويد Sigmund Freud مع زميله بروير Breurer حول "دراسات في الهستيريا" و"مشروع علم النّفس العلمي"، إلاّ أنّ فرويد Sigmund Freud استطاع قلب هذه المفاهيم، وأثبت أن الهستيريا هي حالة نفسية "بحتة"، ووضّح أنّ جزء من الطّاقة اللّيبيدية يمكنه أن يتحوّل إلى استثارة جسدية، ويتمثّل هذا التحوّل في فصل الشّحنة الطّاقوية عن التّمثّلات التّي تتعرّض لعملية الكبت، فتنتقل الطّاقة اللّيبيدية إلى الجسد.

ومن هنا تظهر أهمّية الاستثمار في فهم الاقتصاد النّفسي، حيث يأخذ هذا الأخير أشكالا متنوّعة، ففقدان الموضوع مثلا يمكنه أن يؤدّي إلى سحب الاستثمار اللّيبيدي، حيث تتولّد حالة إكتئابية ناجمة عن الإحباط. أمّا سحب الاستثمار من التصوّرات المكبوتة تحت وطأة الأنا الأعلى فبإمكانه أن يؤدي إلى استثمار عكسي وفي هذه الحالة نتكلّم عن التّكوينات العكسية (Les formations réactionnelles) أين تكون الطّاقة سهلة الاستعمال للحفاظ على الكبت (زيوي، 2009، ص30).

عموما، تشير الفرضية الاقتصادية إلى فكرة أساسية مفادها أنّ الجهاز النّفسي يقوم بوظيفة الحفاظ على الطّاقة التّي تنتشر فيه عند أدنى مستوى ممكن. وبهذا يضمن الجهاز النّفسي تحويل هذه الطّاقة وجعلها محتملة نفسيا. حيث يخضع هذا الأخير لإثارات ذات أصل خارجي وداخلي. تسمّى الإثارات الدّاخلية بالنّزوات التّي تقوم بدفعات (Des poussées) معتبرة. وعلى هذا الأساس يمكن وصف هذا النّشاط الذي يتعلّق بإنشاء ومعالجة الإثارات نفسيا، بمصطلحاته الاقتصادية.

تجدر الإشارة في الأخير إلى أنّه قد تمّ التّمييز في إطار نظرية التّوظيف النّفسي بين التّمثّل (Représentation)، والكمّ العاطفي (Quantum d'affect) أو كمّية الإثارة أو الطّاقة التّي ترتبط بالتّمثّل (Chabert& Verdon, 2018, p. 25).

5.1. سيرورات التّوظيف النّفسي

استخلص سيجموند فرويد Sigmund Freud في إطار الميتاسيكولوجيا أسلوبين للتّوظيف النّفسي، يمثّل كلاهما أسلوب للنّشاط الوظيفي للجهاز النّفسي، يتمّ التّمييز بينهما كما يلي:

1.5.1. السّيرورات الأوّلية:

لقد وصف سيجموند فرويد Sigmund Freud مجموع السّيرورات التّي يسير وفقها توظيف النّشاط النّفسي اللاّشعوري في خضوعه لمبدأ اللّذة، بـــ "السّيرورات الأوّلية" (Processus primaires). تتميّز هذه الأخيرة من وجهة نظر موقعية بالنّشاط العقلي اللاّشعوري، وبذلك وبما أنّها تنشط على مستوى الهو فهي تخضع لمبدأ اللّذة (Principe de plaisir)، ليُصبح هدفها الوحيد هو الإشباع والتّحقيق الآني والفوري للرّغبة.

أمّا من وجهة نظر دينامية اقتصادية فإنّ الطّاقة النّفسية في السّيرورات الأوّلية تُسيّر بحرّية تامّة، وتنتقل من تمثّل إلى آخر دون عراقيل وفق ميكانيزمات التّكثيف (Condensation) والإزاحة (Déplacement) إذ تسمح بتقنيع شحنة تمثّل/عاطفة لكي لا يتعرّف عليها، وهذا ما يمكّنها من الانتقال إلى الحيّز الشّعوري. تهدف هذه الطاقة الحرّة إلى إعادة الاستثمار للتّمثّلات المرتبطة بتجارب الرّضا المكوّنة للرّغبة البدائية (Laplanche& Pantalis, 1967, p. 341).

2.5.1. السّيرورات الثّانوية:

يميّز السّيرورات الثّانوية (processus secondaires) نظام ما قبل الشّعور/الشّعور، ونظرا لخضوعها لمبدأ الواقع (Principe de réalité) فإنّ الطّاقة عند مستواها تكون مقيّدة ومربوطة في البداية قبل أن تسيل بشكل خاضع للضّبط، ويتمّ الاستثمار في التّمثّلات بصفة أكثر استقرارا، بينما يؤجّل الإشباع.

تتشكّل السّيرورات الثّانوية تدريجيا خلال الحياة، ونظرا لخضوعها لمبدأ الواقع فإنّها تسعى لتحقيق الرّغبات تماشيا مع الواقع الخارجي بصورة مقبولة اجتماعيا، وهذا ما يحدّ من السّيرورات الأوّلية فيُصحّح ويُعدّل مبدأ اللّذة. هذا التّعارض ما بين السّيرورات الأوّلية والسّيرورات الثّانوية يشير إلى التّعارض ما بين مبدأ اللّذة ومبدأ الرّغبة. وعلى هذا الأساس، تُشكّل السّيرورات الثّانوية تعديلا للسّيرورات الأوّلية، حيث تقوم بوظيفة ضابطة يساعدها تشكيل الأنا الذي يقوم بدور كبير يتمثّل في صدّ السّيرورات الأوّلية (Laplanche& Pantalis, 1967, pp. 342-343).

6.1. مبادئ التّوظيف النّفسي:

يُقصد بمبادئ التّوظيف النّفسي المبادئ الأساسية التّي تحكم الحياة النّفسية للفرد بما في ذلك سلوكياته وتجاربه الشّخصية. وتتميّز هذه الأخيرة بالتّماسك والتّكامل فيما بينها، كما أنّها تخدم بعضها البعض.

تتمثّل مبادئ التّوظيف النّفسي كما حدّدها سيجموند فرويد Sigmund Freud في ما يلي:

1.6.1. مبدأ الثّبات:

يُقصد بمبدأ الثّبات (Principe de constance) ميل الجهاز النّفسي للحفاظ على كمّية الإثارة التّي يحتويها في أدنى مستوى ممكن، أو على الأقلّ على ثباتها قدر الإمكان، مع الأخذ بعين الاعتبار سياقات تفريغ الطّاقة التّي يرافقها الإشباع والسّياقات الدّفاعية ضدّ فائض الإثارات.

يأتي هذا الثّبات حسب سيجموند فرويد Sigmund Freud من خلال تصريف الطّاقة الحاضرة فعليّا من جهة، ومن خلال تجنّب ما يمكن أن يزيد من كمّية الإثارة، والدّفاع ضدّ هذه الإثارة الزّائدة من جهة أخرى. وذلك لأنّ الفرد يسعى لتجنّب زيادة التّوتر عن طريق تنشيط آليات نفسية، فيبحث عن التّفريغ بهدف التّخلص منها أو على الأقلّ التّخفيف من أيّ توتّر جديد وفقا لمبدأ اللّذة الذي يظهر في علاقة مع مبدأ الواقع (Laplanche& Pantalis, 1967, p. 332).

2.6.1. مبدأ اللّذة/ مبدأ الواقع:

يعتبر مبدأ اللّذة ومبدأ الواقع مبدآن لصيرورة الأحداث النّفسية، ففي مؤلّفه "Formulations sur les deux principes de l’advenir psychique" (1909-1911) عمل سيجموند فرويد Sigmund Freud على تعميق أفكاره حول عمل الجهاز النّفسي مميّزا بين سجّلين من التّوظيف النّفسي هما مبدأ اللّذة ومبدأ الواقع. حيث يرى أنّ عند كلّ شخص قطبية التّكيف (Polarité d’adaptation) مع الواقع، وقطبية الانسحاب (Polarité de retrait) الدّاخلي الذي تضمنه الأحلام والتّحقيق المطلق للرّغبات.

إنّ هذا التّصوّر يقدّم مفهوما جديدا لمفهوم التّكيف، إذ يفرض التّحليل النّفسي توظيفا مزدوجا من حيث مبدأ اللّذة/ ومبدأ الواقع باعتباره مكوّنا للنّفس البشرية سواءً في حالتها السّوية أو المرضية. فمن خلال ترسيخ مبدأ الجدلية بين الواقع الدّاخلي والواقع الخارجي، يدعّم التّحليل

النّفسي علم النّفس اللاّشعور والقطبية المزدوجة (La double polarité) لعلاقات الفرد مع ذاته، ومع عالمه الدّاخلي والتّمثّلات التّي يعيشها، بالإضافة إلى علاقاته مع الآخرين والعالم الخارجي، حيث يخضع المرور والحدود بين هذين الفضاءين لتغيرات داخلية وداخلية ذاتية (Chabert& Verdon, 2018, p. 57).

- **مبدأ اللّذة:**

هو أحد المبادئ الأساسية التّي تسيّر التّوظيف النّفسي. ويعبّر عنه بالميل الذي يستجيب به المولود الجديد في بداية حياته، فهو يعبّر عن حالة نفسية أُزعجت مبدئيا من طرف المتطلّبات الملحّة للرّغبات الدّاخلية (Freud, 1981, p. 136).

ما يجدر ذكره هو أنّ فكرة الارتكاز على مبدأ اللّذة كمفهوم معدّل للتّوظيف النّفسي لا تعود إلى سيجموند فرويد Sigmund Freud بل سبقه فشنر Fechner من قبل في الإشارة إلى مفهوم "مبدأ اللّذة للفعل" ليصف الحالة التي تكون فيها أفعالنا محددّة باللّذة واللاّلذة الصّادرة عن تصورّات الأفعال الحالية أو عن نتائجها. ودراساته الأولى، وظّف سيجموند فرويد Sigmund Freud مفهوم "مبدأ اللّاذة" للإشارة إلى ميكانيزم التّعديل الأوتوماتيكي، ليستعمل بعدها مفهوم مبدأ اللّذة الذي لم تطرأ عليه تغييرات كبيرة في التّفكير الفرويدي. وبالرّغم من أنّ سيجموند فرويد Sigmund Freud قد ربط في البداية بين اللّذة وانخفاض الاستثارة من جهة، واللاّلذة وارتفاعها من جهة أخرى، إلاّ أنّه تخلّى عن هذه الفكرة، وهذا ما يتضّح من خلال "ما وراء مبدأ اللّذة" (1920) عندما أكّد على أهمّية التّمييز بين اللاّلذة والإحساس بالإستثارة، نظرا لوجود إستثارات مرغوبة. كما حدّد الفرق بين مبدأ اللّذة ومبدأ الثّبات، حيث يُشير الأوّل إلى تدفّق حرّ للطّاقة، بينما يُشير الثّاني إلى ربط هذه الطّاقة (زيوي، 2009، ص32).

عموما، يهدف مجمل النّشاط النّفسي إلى الحصول على اللّذة وتجنّب الانزعاج، وباعتبار أنّ الانزعاج مرتبط بزيادة كمّيات الإثارة، واللّذة مرتبطة بتخفيض هذه الكمّيات، فإنّ مبدأ اللّذة هو مبدأ اقتصادي، لأنّ الجهاز النّفسي يميل إلى تجنّب أو تصريف الطّاقة المزعجة (Laplanche& Pantalis, 1967, p. 332).

- **مبدأ الواقع:**

لمبدأ اللّذة علاقة مع مبدأ الواقع، ففي البداية تهدف النّزوات إلى التّفريغ والإشباع بطرق أكثر فورية، ولكن تدريجيا تصل هذه الأخيرة إلى استدخال الواقع الخارجي، ليظهر بذلك مبدأ الواقع كمبدأ معدّل للطّاقة النّزوية، حيث يقوم بتحويل الطّاقة الحرّة إلى طاقة مرتبطة، وهو ما يوافق نظام ما قبل الشّعور/ الشّعور (زيوي، 2009، ص33).

وباعتبار مبدأ الواقع شكلا معدّلا لمبدأ اللّذة، يؤدّي المحيط دورا مهمّا في تكوينه، فهو يعمل على تأجيل الحصول على اللّذة أو الحصول عليها تبعا للشّروط التّي يفرضها العالم الخارجي. ويُعتبر هذا الأخير المبدأ المنظّم للنّشاط النّفسي، ويظهر ثانويا كتعديل لمبدأ اللّذة الذي يسود لوحده في البداية، ويتوافق أداءه مع سلسلة كاملة من التّكيفات التي يتعيّن على الجهاز النّفسي المرور بها كنموّ الوظائف الشّعورية، الحكم على الأمور، الانتباه، الذّاكرة، والأفعال التّي ترمي إلى تعديل ملائم للواقع محل التّفريغ الحركي، حيث تُزاح كمّيات صغيرة من الاستثمار، وهو ما يفترض من وجهة نظر اقتصادية تحوّلا للطّاقة الحرّة التّي تميل إلى السّريان من تمثّل إلى آخر دون أي عائق إلى طاقة مربوطة وذلك لارتباطه بنظام ما قبل الشّعور/ الشّعور(Laplanche& Pantalis, 1967, pp. 336-338).

ننوّه في الأخير أنّ الانتقال من مبدأ اللّذة إلى مبدأ الواقع لا يعني إلغاء مبدأ اللّذة، بل يُعتبر أسلوبا لتأمينه، فهو يؤمّن الحصول على الإشباعات في الواقع، وفي مقابل ذلك يستمرّ مبدأ اللّذة في السّيادة على جزء بأكمله من النّشاط النّفسي، وهو نوع من الحيّز الخاص بالهوام الذي يُنشّط وفقا لقوانين السّيرورات الأولية على مستوى اللاّشعور (Laplanche& Pantalis, 1967, 338).

3.6.1. مبدأ التّكرار:

يُعبّر التّكرار كعملية نفسية عن حالة لاشعورية يصعب مقاومتها، حيث يقع الفرد وفقها في مواقف صعبة ومؤلمة، مكرّرا بذلك تجارب قديمة دون تذكّر نموذجها الأصلي، وعلى العكس من ذلك يعيش انطباعا بدرجة عالية من النّشاط والحيوية بأنّ الأمر يرتبط بشيء يجد مبرّراته الكاملة في الواقع الرّاهن.

يعني اضطرار التّكرار أو أوتوماتيكية التّكرار (L'automatisme de répétition) الميل نحو تكرار التّجارب القويّة مهما كانت الوجدانات المؤدّية إلى هذه التّكرارات، فينزع الفرد إلى تكرار هذه التّجارب بصفة لا شعورية وكأنّها ليست مرتبطة بسياق الماضي وإنّما معاشة في الحاضر الرّاهن. ويُعتبر هذا الأخير من وجهة نظر سيجموند فرويد Sigmund Freud كعامل مستقلّ غير قابل للاختزال إلى الدّينامية الصّراعية التي تقتصر على تداخل مبدأ اللّذة ومبدأ الواقع.

يهدف الأنا من خلال تكرار تجاربه الماضية والمؤلمة إلى التّخفيف من شدّة التوتّر المتعلّق بالصّدمة، وبالتّالي التّخفيف من وطأتها على الجهاز النّفسي. ولقد تطرّق سيجموند فرويد Sigmund Freud لهذا المبدأ في إطار التّكرار الملموس في الأحلام الصّدمية، أين تتكرّر هذه الأحلام وتحقّق إشباعا بديلا يهدف للسّيطرة على الحدث الصّادم. فالفرد ينزع لتكرار وقعة الصّدمة سواء كان ذلك بشكل عفوي، أو نتيجة لحادث آخر يستدعي الصّدمة الأصلية، ليبقى الهدف دائما هو التّخفيف من حدّة الألم والقلق النّاجم عن الصّدمة (Laplanche& Pantalis, 1967, pp. 86,88).

7.1. أنماط التّوظيف النّفسي:

سنعتمد في عرضنا النّظري لأنماط التّوظيف النّفسي التّي تطوّرت -كما أشرنا سابقا- بفضل الميتاسيكولوجيا الفرويدية، على تصنيف كاترين شابير Catherine Chabert والتّي بدورها تبنّت النّموذج التّحليلي للتّوظيف النّفسي، وذلك لشرح وتبسيط العرض السّيكوباتولوجي ودلالته النّفسية في التّناولات العيادية.

1.7.1. التّوظيف العصابي:

حتّى يشرح التّوظيف العصابي وضّح سيجموند فرويد Sigmund Freud، إلى أي مدى يمكننا أن نقارب بين الميكانيزمات التّي تؤسّس الحلم وتلك التّي تؤسّس "العرض العصابي". حيث يرى أنّ هذه الميكانيزمات المتشابهة تراقب (Censurent) وتخفي (Masquent) التّمثّلات عن طريق مجموعة من الميكانيزمات الدّفاعية هي: الإزاحة، العزل، التّحويل، التّرميز، الكبت. وهكذا ومن خلال عمل الحلم يكون سيجموند فرويد Sigmund Freud قد تمكّن من إدراك التّكوين الفردي والمعقّد للأعراض العصابية، حيث كتب في "تفسير الحلم" ملاحظة أساسية: «الحلم ليس

ظاهرة باتولوجية، ولا يفترض وجود اضطراب في التّوازن النّفسي، لا يترك وراءه أي ضعف في القدرة على الأداء» (Chabert& Verdon, 2018, p. 149).

تعكس هذه الكلمات أهمّية كبيرة يؤكّد من خلالها سيجموند فرويد Sigmund Freud على وجود احتمالية مرضية للإعداد العصابي (L'aménagement névrotique)، مع الحفاظ على العلاقة بين العادي والمرضي. فالتّنظيم العصابي بالنّسبة له ليس طبيعيا ولا مرضيا، وذلك لأنّه يمكننا التّوظّف بتنظيمة عصابية بطريقة مرنة ومحرّرة، أو بطريقة مكلّفة وغير عادية. فعندما تصبح المعاناة النّفسية ثقيلة للغاية، وعندما يمنع تحديد الاستقلالية النّفسية والأمن الدّاخلي اليومي عيش حياة يمكن فيها الحبّ، أو الإلتقاء، أو العمل، أو عندما تستمرّ الأفعال التي يقوم بها المريض في إلحاق الضّرر بذاته أو بالآخرين، لا يصبح ممكنا وصف نمط التّوظيف بالعادي (Chabert& Verdon, 2018, p. 149).

يعرف التّنظيم العصابي كلاسيكيا حسب لابلانش وبونتالييس Laplanche et Pontalis (1967, p. 267) بأنّه: "إصابة نفسية المنشأ أين تكون الأعراض تعبيرا رمزيا لصراع نفسي، يجد جذوره في التّاريخ الطّفولي للفرد، ويشكّل تسويات (Des Compromis) بين الرّغبة والدّفاع".

يمكننا أن نستخلص من هذا التّعريف أربعة أبعاد أساسية يقوم عليها التّنظيم العصابي وهي: التّعبير الرّمزي، الصّراع النّفسي، التّاريخ الطّفولي، وأخيرا التّسوية.

- يفترض الطّابع الرّمزي للتّعبير العرضي عملا نفسيا للتّرجمة (Traduction) مشابها لذلك الذي ينطوي عليه الحلم باستخدام الإزاحة والتّكثيف (Condensation) والتّرميز (Symbolisation) فهو يكشف عن السّمك الاستهامي بمحتواه الظّاهري والكامن (Chabert et al, 2008, pp. 11-13)، يعني ذلك أنّ الصّراع النّفسي يأخذ صورا مختلفة للتّعبير عنه: على الجسد في التّحوّل الهستيري، حول موضوع مخيف في الرّهاب، وحول طقوس يجب القيام بها أو فكرة ثابتة في عصاب الوسواس. لذلك تستدعي الرّمزية بالتّوازي مع الحلم والأعراض العصابية، الوصول إلى سجّل تعبيري مزدوج (محتوى ظاهري ومحتوى كامن). هذه الأخيرة تشهد على الوظيفة الفعّالة للإبدال والتّرميز والتّكثيف التّي تعكس ثراء الهوامات ومحتوياتها الموضوعية. ويظهر البعد المرضي لهذه الأعراض عندما تصبح التّسوية التّي تحقّقها غير مريحة تؤدّي إلى

استثمارات وزيادة القلق وسوء التّكيّف، مع استنزاف كبير للطّاقة النّفسية من أجل تعبئة ميكانيزمات نفسية أكثر صلابة ونمطية، أهمّها: الكبت، التّحويل، التّكوين العكسي، والعزل.

- يأخذ الصّراع النّفسي طابعا داخليا (Intrapsychique)، وهذا لا يعني أنّه منفصل عن الواقع الخارجي بما في ذلك أحداث الحياة. فمن جهة، يستخدم العرض هذا الواقع الخارجي، ومن جهة أخرى، فإنّ المحتويات الطّفولية تواجه الواقع الخارجي المُحبِط. يكون الصّراع بشكل خاصّ بين الأنا الأعلى والهو، ويتعلّق بالأوديب وأثره البنائي لدينامية التّقمّصّات، مع غلبة قلق الإخصاء (Angoisse de castration)، وهو قلق مرتبط بالهوامات المحارمية (Incestueuses) مع شعور بالذّنب و/ أو الشّعور بالعجز والنّقص في الدّيناميات النّفسية التّي تكون في الغالب مصدر معاناة كبيرة. نجد في التّنظيم العصابي علاقة ثلاثية تناسلية: أب-أمّ- طفل (Chabert& Verdon, 2018, pp. 151, 153).

2.7.1. التّوظيف الذّهاني:

تذكر شابير Chabert (1998, p.113) بأنّه يمكن اعتبار الفصام كمرجعية نموذجية لإشكالية الذّهان، بقدر ما يوضّح هذا الأخير بقوّة انقطاع علاقات الفرد مع الآخرين وحتّى مع ذاته.

تتميّز التّنظيمات الذّهانية كما جاء في (Chabert& Verdon, 2018, pp. 208, 210) ببعض الحقائق المشتركة كما يلي:

- اضطرابات خطيرة في العلاقة بالواقع الخارجي، وفي هذا الشأن يصرّ سيجموند فرويد Sigmund Freud أنّ الصّراع في الذّهان يظهر خاصّة بين الأنا والواقع، وأنّ مبدأ اللّذة يسيطر على مبدأ الواقع، وأنّ السّيرورات الأوّلية تسيطر على السّيرورات الثّانوية. حيث لا يستطيع المصاب التّمييز بين الواقع والخيال، بين ما هو موجود في الخارج وما يأتي منه، فهو غالبا ما يدّعي الهروب من الواقع ولكن غالبا ما تكون هذه المحاولة فاشلة، ويمكن الخطر في إنكار الواقع باستمرار ويتفكّك عنه.

- نشير فيما يتعلّق بهشاشة العلاقة بالواقع الخارجي إلى هيمنة اضطرابات الهوية (Troubles identitaires)، يعني ذلك أن شعور المصاب بأنّه حيّ، كامل، مختلف، وفي نفس الوقت مشابه للآخرين، ليس مضمونا ولا ثابتا. نتحدّث هنا إذن عن قلق التّجزئة (Angoisse de

(morcellement والتّلاشي (Anéantissement) لوصف الأنا المكوّن من عدّة أجزاء تعمل بشكل أو بآخر بشكل مستقلّ عن بعضها البعض، وأحيانا بطرية جدّ فوضوية (Chaotique) كما هو في التّفكّك الفصامي.

- نسجّل في هذا التّوظيف انتشار ميكانيزمات دفاعية بدائية مثل الإنكار، ازدواجية الأنا، والّتي تساهم في مجملها في بناء الهذيان كوسيلة لمواجهة القلق. لتبقى العلاقة بالموضوع في التّوظيف الذّهاني ثنائية اندماجية (Fusionnelle) من النّوع النّرجسي لأنّها مدمجة في نرجسية الأمّ.

3.7.1. التّوظيف الحدّي:

تعود الإشكالية المركزية للتّوظيفات الحدّية إلى قلق فقدان حبّ الموضوع (Angoisse de perte d'amour d'objet)، يشكّل الثّبات الاكتئابي (Constance dépressive) النّواة المشتركة لهذه التّنظيمات بنفس طريقة قلق الإخصاء عند العصابيين (Bergeret et al, 2008, p. 225). حيث يُظهر هذا الأخير (قلق فقدان الموضوع) بشكل واضح صعوبات على حدّ سواء في قدرات الإرصان للوضعية الاكتئابية وفي التّعامل بين العواطف والتّصوّرات (بمعنى ميلاني كلاين (Melanie Klein)) وهو ما يفسح المجال لميكانيزمات دفاعية متقهقرة كالإنشطار، النّفي، الإسقاط، التّقمّص الإسقاطي، ازدواجية الصّورة الهوامية.... (Chabert, 1998, 107).

تؤكّد التّعريفات الكلاسيكية للتّوظيفات الحدّية على تجاوز السّلوك العصابي والسّلوك الذّهاني مع توزيع متنوّع من الطّرق حسب الأفراد: ومع ذلك لا يجب أن لا تفقد الهيمنة العصابية (La dominante névrotique) أو الهيمنة الذّهانية (La dominante psychotique) أصالة هذه التّنظيمات السّيكوباتولوجية التّي تستخدم ميكانيزمات دفاعية خاصّة للكفاح ضد القلق الإكتئابي.

ولو أنّ المحتوى الإشكالي يبقى واحدا، تشير شابير Chabert (1998, p.107) إلى التّمييز بين التّوظيفات الحدّية والتّوظيفات النّرجسية لتوضّح كيف أنّ الإعدادات النّزوية والدّفاعية المختلفة لها نفس الهدف وهو محاولة سدّ قلق فقدان حبّ الموضوع.

- عند النّرجسي: يشكّل الإعلان بالإكتفاء الذّاتي المدعّم بالمثلنة (L'idéalisation) والتّجميد النّزوي المحور الأساسي للسّياقات النّفسية: " إذا اكتفيت بذاتي، بُعد أو فقدان الآخر لن يمسّني"

- عند الحدّي: يحدث العكس، حيث يستدعي إعلان الاعتماد المفرط للموضوع وجوده المستمرّ، لتعويض نقائص الاستدخال (Intériorisation) والكفاح ضدّ الهوامات التّدميرية التّي تشكّل الوجه الآخر للاعتماد.

يتمحور الصّراع في التّنظيمات الحدّية بين مثال الأنا مع الهو والواقع، وتبقى العلاقة بالموضوع ثنائية لكنّها مختلفة عن "الثّنائية البدائية" (La dyade primitive) الموجودة في الذّهانات. حيث يكون الفرد محبوبا من طرف الآخر "القويّ" و"العظيم" من خلال الانفصال عنه كموضوع متميّز وفي نفس الوقت من خلال الاتّكال عليه (Anaclitique) (علاقة ثنائية إتّكالية) (Bergeret et al, 2008, p. 225).

8.1. الميكانيزمات الدّفاعية:

1.8.1. مفهوم الدّفاع النّفسي:

تضمّنت دراسة سيجموند فرويد Sigmund Freud الموسومة بـــ "العصابات النّفسية الدّفاعية" (1894) لفظ الدّفاع (Défense) وعلاقته بالتّوظيف العصابي، أين وضّح العلاقة بين التّوظيف الدّفاعي والجنسية النّفسية في رسالته لفليس Fliess بتاريخ 21 ماي 1894 موضّحا من خلال ذلك بأنّ الدّفاع يكون ضدّ الجنسية، كما اعتبر من خلال أعماله حول الهستيريا الكبت مرادفا للدّفاع.

توسّع سيجموند فرويد Sigmund Freud في مفهوم الدّفاع فيما بعد، وذلك بالرّغم من بقاء الكبت دفاعا رئيسيا مقارنة بالدّفاعات النّفسية الأخرى. حيث اعتبر في "دراسات حول الهستيريا" (1895) الأنا كعامل للسّياق الدّفاعي، فانعدام التّوافق بين الأنا والتّمثّل يجعل مختلف الأساليب الدّفاعية تتعامل مع هذا التّمثّل بفصله عن العاطفة التّي يرتبط بها. وفي نفس الفترة قام سيجموند فرويد Sigmund Freud بوضع نموذج ميتاسيكولوجي للدّفاع من خلال التّمييز بين الإستثارات الخارجية التّي يمكن تجنّبها أو التّي نجد فيها مركب حاجز يمكنه التّرشيح (صاد-الإستثارات)، وبين الإستثارات الدّاخلية التّي لا يُمكن تجنّبها والمتمثّلة في النّزوة والتّي تظهر من خلالها السّياقات الدّفاعية. وفي سنة 1896، ومن خلال "الملاحظات الجديدة حول العصابات النّفسية الدّفاعية" وصف سيجموند فرويد Sigmund Freud ميكانيزم التّحوّل الهستيري (Mécanismes de conversionhystériques)، والميكانيزمات الوسواسية(Mécanismes obsessionnelles) على

غرار العزل، التّكوين العكسي، الإلغاء، الإزاحة الفوبية، والاسقاط الاضطهادي (زيوي، 2009، ص41).

وفي سنة 1915، استعمل سيجموند فرويد Sigmund Freud لفظ الميكانيزم الدّفاعي لأوّل مرّة في "الميتاسيكولوجيا" لوصف السّياقات الدّفاعية، وللإشارة إلى الاستعمال الدّفاعي في المصير النّزوي. وأكّد على ضرورة استرجاع مفهوم الدّفاع، وذلك لأنّ الكبت لا يمكن استعماله بصورة عامّة للإشارة إلى كلّ السّياقات التّي يستعملها الأنا في الصّراعات المؤدّية إلى العصاب.

وفي مؤلّفه "كفّ، عرض، قلق" (1926)، احتفظ سيجموند فرويد Sigmund Freud بالمعنى الخاصّ للكبت، وخصّ بمصطلح "الدّفاع" جميع الطّرق والأساليب التّي يلجأ إليها الأنا في صراعاته، والتّي يُحتمل أن تؤدّي إلى العصاب، بينما يتمّ الاحتفاظ بمصطلح الكبت لطريقة محدّدة من هذه الطّرق الدّفاعية (Freud, 1981, p. 92).

وفي "ميتاسيكولوجيا" استعمل سيجموند فرويد Sigmund Freud لفظ الميكانيزم الدّفاعي لأوّل مرّة سنة 1915 ليصف به السّياقات الدّفاعية، وليشير إلى الاستعمال الدّفاعي في المصير النّزوي، مؤكّدا على ضرورة استرجاع مفهوم الدّفاع، وذلك لأنّ الكبت لا يمكن استعماله بصورة عامّة للإشارة إلى كلّ السّياقات التّي يستعملها الأنا في الصّراعات المؤدّية إلى العصاب.

وتشير أنّا فرويد Anna Freud في مؤلّفها "الأنا وميكانزمات الدّفاع" (1936) إلى تأقلم الأنا مع الواقع الخارجي من جهة، وإلى علاقته النّزوية اللاّشعورية من جهة أخرى. وعرّفت الدّفاع كعملية تخصّ بالأنا وتهدف إلى حماية الفرد من المتطلّبات النّزوية القويّة، أي أنّها تهدف إلى ضمان أمن الأنا وتجنب الألم (زيوي، 2009، ص ص42).

تجدر الإشارة أخيرا إلى ضرورة التّمييز بين دفاعات الأنا (Défense) سواء كانت مرضية أو لا، والمقاومة (Résistance) التّي تظهر في التّحويل وأثناء العلاج التّحليلي، أين يدافع الفرد ضدّ الاتصال العلاجي والوعي بمختلف جوانبه، خاصّة من خلال تداعيات الأفكار التّي تعيقه للتّخفيف من القلق العلائقي (Bergeret et al, 2008, p. 104). فكما رأينا سابقا، أكّد سيجموند فرويد Sigmund Freud على الجانب الدّفاعي للمقاومة من خلال الموقعية الثّانية، موضّحا أنّه أثناء السّيرورة العلاجية تظهر الميكانيزمات الدّفاعية على شكل مقاومة ضدّ الشّفاء،

حيث يعتبر الأنا الشّفاء خطرا، وفي هذا السّياق تُشير أنّا فرويد Anna Freud إلى أنّ تحليل الدّفاعات الدّائمة للأنا يوافق تحليل الدّفاعات التّي تظهر في العلاج (زيوي، 2009، ص43).

2.8.1. مفهوم الميكانيزمات الدّفاعية:

تُعرّف ميكانيزمات الدّفاع بأنّها مختلف العمليات التّي يُمكن للدّفاع أن يختصّ بها. وتتنوّع الآليات السّائدة تبعا لنمط الإصابة، والمرحلة الجينية محلّ الدّراسة، بالإضافة إلى درجة تطوّر الصّراع الدّفاعي، كما أنّها آليات تنشط على مستوى الأنا (Combaluzier, 2009, p. 34).

تعرّفها شنتوب Shentoub (1973, p. 597) بأنّها مجموعة من العمليات التّي يستخدمها الأنا، وتهدف إلى الحماية وإلى نوع من الانبساط البيولوجي والنّفسي أمام التّأثيرات الدّاخلية (النّزوات) والخارجية (المتطلبات وتقلّبات المحيط)، كما تؤكّد على أهمّيتها لفهم الفرد سواء في حالته المرضية أو حتّى السّوية.

ومن جهة أخرى يطرح بارجوري وآخرون Bergeret et al (2008, p. 104) إشكالية الدّفاع النّفسي منوّهين على عدم اعتبار "الأنا" كهيئة أو قوى"عامّة" كما كان يُعتبر في السّابق. فبينما طوّر المؤلفون الفرنسيون المفاهيم الخاصّة بالنّرجسية، قام أمثالهم الانجليزيون بتوسيع مفهوم "الذّات" (Self) من خلال تسليط الضّوء على الخطأ الذي وقع فيه المترجمون الأوائل لسيجموند فرويد Sigmund Freud باستخدامهم مصطلح " الأنا" (Le moi) على حساب مصطلح " Ich" بالألمانية. وذلك أنّ "Ich" (ضمير شخصي خاص بالشّخص الأوّل المفرد الاسمي المستخدم في الرّفع "المرفوع" أي الفاعل المفرد القائم بفعل) لا تتطابق مع الأنا (التّي تترجم Mich بالألمانية، أي حالة النّصب لتعيين الشّيء المعني بالفعل، أي الفاعل يأخذ نفسه (أي ذاته نفسها)، أي ذاته كموضوع، أي ما يخصّ العلاقة النّرجسية (La relation narcissique) وليس النّظام التّناسلي (L'ordre génital) أين يستهدف الفاعل "أنا" ("I" enanglais ou" je" en français) " بالتّحديد موضوعا آخرا).

ويضيف بارجوري وآخرون Bergeret et al (2008, p. 104) في هذا الشّأن:

«من أجل عدم تشويش الأذهان أكثر، ولكن بعد تحديد الخطأ الدّلائلي "السّيميائي"، نستمر هنا (وللأسف) في تسمية "Le moi"باللّغة الفرنسية بالـ "Ich" الألمانية الأصل، علينا إذن أن نأخذ في الاعتبار، الميكانيزمات النّاضجة (إلى حدّ ما) التّي تهدف للدّفاع عن الأنا (الـ "Ich") (ما يسمّى خطأ في اللّغة الفرنسية ("Le moi") من جهة، وتلك التّي ببساطة يمكن اعتبارها مسؤولة عن الدّفاع عن الوجود الدّرجسي أي الذّات (Self) من جهة أخرى».

واستنادا إلى وجهة النظر هذه، يمكننا تصنيف الميكانيزمات الدّفاعية إلى ميكانيزمات بدائية (Primitives) تتعلّق بالذّات كالاسقاط، الاجتياف، الانشطار، الإنكار، التقمّص الإسقاطي، الإغفال. وميكانيزمات أخرى أكثر نضجا تتعلّق بالأنا وتهدف لحماية الذّات كالكبت والتّسامي (Bergeret et al, 2008, p. 104).

وتجدر الإشارة في هذا الصّدد، إلى وجود ميكانيزمات مسؤولة عن الدّفاع عن هيئات الشّخصية المختلفة (الهو، مثال الذّات، مثال الأنا، الأنا الأعلى) من الصّراع النّاجم بينها. بالإضافة إلى الصّراعات التّي يمكن أن تتعارض مع هذه الهيئات في مجملها (بما في ذلك الأنا والذّات) ضدّ الضّغوطات القادمة من الواقع الخارجي. وبالرّغم من السّمعة السّيئة للميكانزمات الدّفاعية التّي توحي مباشرة إلى الجانب الصّراعي وحتى المرضي، إلاّ أنّها تشير كذلك إلى الجانب التّكيّفي الذي غالبا ما يتمّ إغفاله، فهي تُجنّب الفرد التّوترات والصّراعات النّفسية، فالفرد ليس مريضا لأنّه "يمتلك ميكانيزمات دفاعية"، ولكن لأنّ دفاعاته التّي يستخدمها عادة هي غير فعالّة، أو صلبة، أو غير متكيّفة مع الواقع الدّاخلي والخارجي، وهذا ما يعيق التّوظيف النّفسي في مرونته، وتجانسه، وتكيّفه.

ولقد ميّز أ. بيبرينغ E. Bibring و د. لاغاش D. Lagache بين ميكانيزمات الدّفاع الأوتوماتيكية اللاّشعورية التي تخضع للسّيرورات الأوّلية (مبدأ اللّذة) والتّي تهدف إلى تخفيف الشّحنات النّزوية من جهة، وبين ميكانيزمات التّخرج (Mécanismes d'engagement) التّي تخضع للسّيرورات الثّانوية (مبدأ الواقع) والتّي تهدف إلى تعديل الظّروف الدّاخلية وفق التّكيّف المرن للفرد مع الظّروف الخارجية التي لا تستدعي التّجنب وإنّما الاندماج والتّحكّم كعمل الحداد، أو التّكيف مع الوضعيات المقلقة من جهة أخرى (Bergeret et al, 2008, pp.104-105).

عموما، تعرف الميكانيزمات الدّفاعية بأنّها مجموعة من الاستراتيجيات النّفسية التّي تمارس على مستوى اللاّشعور، يلجأ إليها الفرد (لاشعوريا) لتخطّي الصّراع النّفسي والمشاعر السّلبية والمؤلمة ، وهي بذلك نشاط نفسي خاصّ بالأنا يعمل على حماية الفرد من التّهديدات غير المحتملة.

3.8.1. أنواع الميكانيزمات الدّفاعية:

تتنوّع الميكانيزمات الدّفاعية وتُصنّف حسب مدى فاعليتها، مراحل ظهورها، وأخيرا مستوى نضجها. فمنها ما نجدها خاصّة بالعصابي، ومنها ما نجدها خاصّة بالذّهاني، ومنها ما هي خاصّة بالحدّي. نذكر من أهمّ هذه الحيل الدّفاعية كما ورد في بارجري وآخرون Bergeret et al (2008, pp. 107, 108) ما يلي:

- الكبت (Le refoulement):

يعتبر الكبت من أقدم وأهمّ ميكانيزمات الدّفاع التّي وصفها سيجموند فرويد Sigmund Freud منذ سنة 1895. ولقد ربطه ارتباطا وثيقا مع مفهوم اللاّشعور، ليحتلّ بذلك وبمفرده الجزء الرّئيس من الطّاقات الدّفاعية لاستبعاد وحدات الحالات الوجدانية من الشّعور. وفي صورته الوظيفية يبدو أنّ الكبت ميكانيزم ضروري لتسهيل السّيرورات النّفسية، إلاّ أنّ ظهوره بصورة مرضية يميّز التّنظيمات الدّفاعية العصابية، في حين أنّ التّنظيمات الأقلّ إرصانا تناسليا تشمل ميكانيزمات دفاعية أخرى. ولقد أشار سيجموند فرويد Sigmund Freud إلى ارتباط الكبت باللّيبيدو بالإضافة إلى تمركزه الأساسي حول الإشكالية التّناسلية، فهو لا ينتمي إلى السّيرورات الدّفاعية البدائية، ويمكن تعريفه كسيرورة نشطة تهدف إلى الحفاظ على التّمثّلات غير المقبولة خارج الشّعور.

الكبت إذن هو عملية نفسية يحاول الفرد من خلالها صدّ الخبرات والأفكار والذّكريات المؤلمة وكلّ ما هو مرفوض على المستوى الشّعوري، فيعمل الأنا باستمرار على صرف كمّية معتبرة من الطّاقة لإبقائها على مستوى اللاّشعور.

يتمّ عادة التّمييز بين ثلاثة مستويات مختلفة من الكبت كالآتي:

- الكبت الأوّلي (Refoulement primaire): ويخصّ مرحلة بدائية تكون إمّا فردية أو جماعية، حيث يتعرّض التّمثيل المعيق (صور مشهد بدائي، تهديد، إغراء من طرف راشد) مباشرة للكبت.

- الكبت ذاته: وهو تحرّك مضاعف وانجذاب من التّثبيتات الخاصّة بالكبت الأوّلي، بالإضافة إلى قذف الأجهزة المحرّمة والمتمثّلة في الأنا الأعلى (والأنا الذي يصبح مرتبطا بالأنا الأعلى).

- عودة المكبوت: ويتمثل في هفوة بسيطة من الكبت، صمام وظيفي ومفيد (الحلم، الهوام) كما يأخذ شكلا آخرا أقل أهمّية (الزّلات (Lapsus)، الأفعال المفلتة (Actes manqués)) أو تظاهرات مرضية تشير إلى فشل الكبت (العرض).

وبناء على هذا التّصنيف، يتصّف الكبت من وجهة النّظر الاقتصادية بالحركة فهو "حيّ" (Vivant) لا يتوقّف عن نشاط الاستثمار، وزوال الاستثمار المتعلّق بالتّمثّلات المقلقة بواسطة ما قبل الشّعور، وكذلك بالاستثمار المضادّ للتّمثّلات النّزوية الموجودة التّي يحصل لها إعادة الاستثمار الذي يظهر على شكل تمثّلات أخرى مقبولة.

- الإنكار(Le déni):

يؤكّد بارجري وآخرون Bergeret et al على ضرورة التّمييز بين ميكانيزم الإنكار وميكانيزمي الإلغاء (Annulation) والنّفي (Dénégation). حيث يتعلّق الأمر في الإنكار بإقصاء تمثيل مزعج وليس بمحوه (الإلغاء) أو برفض الاعتراف به (النّفي)، أي إنكار الواقع وحتى المدركات المتعلّقة بهذا التمثيل المُعاش كخطر أو مؤلم للأنا. يظهر الإنكار بشكل أساسي في حالات الذّهان حيث يحدث إنكار للواقع المؤلم ككلّ دون خصوصية، وكذلك في حالات الانحراف إلاّ أنه لا ينطوي في هذه التّنظيمة سوى على جزء متمركز حول الواقع.

- الإسقاط (La projection):

يشير الإسقاط إلى العملية التي يطرد من خلالها الفرد من ذاته الصّفات والمشاعر والرّغبات التي لا يقبلها في ذاته، فيموضعها في شخص آخر أو في موضوع خارجي. ويتضمّن هذا الميكانيزم بالنّسبة لسيجموند فرويد Sigmund Freud ثلاثة أزمنة متتالية تبدأ بمنع التّمثّل المزعج للنّزوة الدّاخلية، يليه تشويه المحتوى، ثم يعود إلى الشّعور في شكل تمثيل مرتبط بالموضوع الدّاخلي.

يحدث الإسقاط في أي وقت من الحياة النّفسية للفرد، سواء في الظّواهر غير المرضية أو أثناء العلاج. ويشير هذا الميكانيزم الدّفاعي إلى فشل الكبت بفضل الدّفاعات الأكثر نضجا، كالكبت، حيث يدافع الأنا عادة ضدّ الخطر الدّاخلي باستخدام الشّعور مباشرة بطريقة فورية وأوتوماتيكية. وفي حال إذا لم تعد هذه الإجراءات كافية، يصبح من الضّروري تحويل الخطر

الدّاخلي عن طريق الإسقاط إلى خطر خارجي حيث تعمل ضدّه الوسائل القديمة والأساسية للذّات باستخدام وخداع الشّعور، كالإسقاط، الإزاحة، والتجّنب.

ويبدو من المهم الوقوف على الاختلاف بين الإسقاط الأوّلي (Primaire) الذي لا يلجأ إلى الكبت، ويساهم في التّمييز بين الذّات (Self) واللاّذات (Non-Self) بالاستناد على العالم الخارجي، وهو إسقاط عادي يعمل على تقوية الذّات وتحديد المخطّط الجسدي. وبين الإسقاط الثّانوي (Secondaire) الذي يتطّلب حركات الكفّ (Inhibition) أو الكبت، ومنه يصبح الموضوع الخارجي "مغمور" بالكراهية المُسقطة ومضطهد(Persécuteur). ففي حالة الغيرة مثلا يمكن للتّمثيل المحرّم لرغبة خداع الآخر أن يتظاهر في ثلاث درجات من التّأكيد على الخداع من طرف الآخر: الغيرة البسيطة، الغيرة المرضية، وهذيان الغيرة.

- الإزاحة (Le déplacement):

هي ميكانيزم دفاعي جدّ بدائي وبسيط، يرتبط بالسّيرورات الأولية، ويتمّ من خلاله فصل التّمثيل المزعج للنّزوة المحرّمة عن عاطفتها، فيُنقل إلى تمثيل آخر أقلّ إزعاجا، لكنّه يرتبط بالتّمثيل الأوّل من خلال عنصر رابط. ويبقى مثال "الصغير هانز" (Le petit Hans) مثالا كلاسيكيا عن ميكانيزم الإزاحة: الحقد (نزوة محرّمة) على أب غير مرغوب فيه، ويثير الخوف من الأب (عاطفة). من خلال الإزاحة ستترك العاطفة المزعجة تمثيل- الأب وسيُزاح نحو تمثيل-الحصان.

تظهر الإزاحة عادة في حالات الفوبيا أمام فشل المكبوت، فمثلا تسمح الإزاحة بحصر وموضعة القلق في موضوع خارجي،كما ترتبط الإزاحة أيضا بالأحلام، حيث تلعب الرّقابة دورا محدودا في الحلم، وترتبط الإزاحة في تحليل الحلم بميكانيزمات عمل الحلم إذ تساهم في التّكثيف وإمكانية التّمثيل، فيحدث الانتقال من فكرة مجرّدة إلى صورة تمثيلية مكافئة لها بواسطة الإزاحة.

- التّكوين العكسي (La formation réactionnelle):

يتعلّق الأمر بـــ" استثمار مضاد" (Contre investissement) في موقف مسموح به لطاقة نزوية مسحوبة من تمثّلات ممنوعة. فعلى سبيل المثال يمكن أن تكون الرّعاية بمثابة تكوين عكسي لردّات فعل عنيفة أو عدوانية. كما يمكن لمتطلّبات النّظافة عند المصاب بالوسواس أن تشكّل

تكوين عكسي ضدّ رغبته في التّلوّث. إنّه ميكانيزم مبكّر (Précoce) ولكن هشّ (Fragile)، يتطوّر خلال مرحلة الكمون لصالح القيم التّي تطرحهما السّياقات التّاريخية والاجتماعية والثّقافية على حساب الحاجات النّزوية الفضّة أو العدوانية أو الجنسية أو المباشرة، عن طريق السّعي لاستنزافها بشكل غير مباشر. وبذلك يساهم هذا الجانب الوظيفي والنّفعي للتّكوين العكسي في تكييف الفرد مع الواقع المحيط به.

- التّكوين البديل (La formation substitutive):

يُكبت التّمثيل الفاشل في اللاّشعور، ويوجد على مستوى مبدأ اللّذة "نقص" تقوم الأنا بملئه بواسطة عملية مزدوجة تتمثّل في الاستبدال والتّعويض في آن واحد. وذلك لإشباع الاستبدال من جهة، ومن جهة أخرى لتسوية التّمثيل الشّعوري المُستبدل حتى تصبح اللّذة الممنوعة (الرّغبة المحرّمة) مقبولة في الشّعور دون ظهورها بصورة واضحة وذلك بفضل تداعيات الأفكار.

- تكوين التّسوية (La formation de compromis):

يُشير تكوين التّسوية إلى عودة المكبوت بطريقة لا يمكن التّعرف عليها، وذلك ليس عن طرق الإبدال وإنّما عن طريق التّشويه، حيث تُشوّه التّمثّلات المكبوتة بواسطة الدّفاع إلى أن تصل إلى درجة غير متعرّف عليها، وهكذا يتمكّن تكوين التّسوية من إرضاء الرّغبة اللاّشعورية ومتطلّبات الدّفاع في آن واحد.

- تكوين العرض (La formation de symptômes):

يُشير هذا الميكانيزم إلى عودة المكبوت، حيث ينتج العرض من الميكانيزمات الثّلاثة السّابقة في نفس الوقت: التّكوين العكسي، التّكوين البديل، وتكوين التّسوية. إضافة إلى ذلك يأخذ العرض فورا وبفضل التّسوية والاستبدال معنى خاصا في كل وحدة سيكومرضية، كما أنّه يرتبط بشكل وثيق مع نوع العلاقة بالموضوع الخاصّة بكلّ تنظيمة مرضية. يسير الدّفاع الذي يشكّله العرض في اتّجاه مواجهة القلق الخاصّ: تجنّب قلق الخصاء (Castration) في العصاب، قلق التّجزئة (Morcellement) في الذّهان، وقلق فقدان الموضوع (Perte d'objet) في الحالات الحدّية.

- الإلغاء (Anulation):

هو الميكانيزم الذّي قال عنه سيجموند فرويد Sigmund Freud بأنّه سيرورة نشطة تتضمّن تشويه ما نقوم به، حيث تُلغى من خلاله التّمثّلات المزعجة، الأفكار، السّلوكيات وكأنّها لم تحدث تماما، فيقوم الفرد بأفعال وأفكار وسلوكيات موجّهة لمحو كل ما يتعلّق بالتّمثّلات المؤلمة.

يشكّل الإلغاء ميكانيزم دفاعي جدّ نكوصي(Régressif)، فهو يحدث عندما تصبح السّيرورات العقلية "الكلاسيكية" القائمة على سوء الاستثمار(Désinvestissement) أو الاستثمار المضاد -Contre) (investissements التّي غالبا ما تحمل التّمثّلات الموضوعية غير كافية. فالإلغاء يتعلّق بالواقع نفسه مادام أنّ الزّمن كعنصر للواقع يتمّ إنكاره وتغييره.

- النّفي (Dénégation):

هو ميكانيزم أكثر قدما من الكبت، حيث لا يتمّ كبت التّمثّل النّزوي المزعج، ويظهر إذن في الشّعور، لكن يدافع الفرد عن نفسه برفضه الاعتراف بأنّه يستطيع التّصرف أمام نزوة تمسّه شخصيا.

يعتبر سيجموند فرويد Sigmund Freud هذا الميكانيزم في مقدّمة الكبت. وتربط ميلاني كلاين Mélanie Klein النّفي بازدواجية الأنا (Dédoublement du moi) في الدّفاع ضدّ الموضوع السّيء (Le mauvais objet). لكن بالنّسبة لها كلا الموضوعين السّيء والجيّد هما خارجيان.

أمّا بالنّسبة لسيجموند فرويد Sigmund Freud فإنّ الأمر يتعلّق فقط باجتياف (Introjecter) ما هو جيّد ورفض ما هو سيّء، فما هو داخلي يبقى ذاتي، وما هو خارجي يصبح الهدف.

يعمل النّفي خاصّة على مستوى الإدراكات الخارجية، في حين يتناول الكبت الجانبيين النّزويين.

- العزل (Isolation):

يُعتبر العزل من أهمّ الميكانزمات الدّفاعية المميزّة للعصاب الوسواسي، يتمّ من خلاله إقصاء العاطفة المرتبطة بتمثل صراعي (ذكريات، أفكار)، حيث يبقى التّمثّل على مستوى

الوعي، ويعزل التّمثّل العقلي عن سياقه العاطفي الانفعالي، وتعزل الأفكار عن آثارها الانفعالية (Ionescu et al, 1997, p.216).

وصف سيجموند فرويد Sigmund Freud هذا الميكانيزم الدّفاعي منذ سنة 1894، الذي يتضمّن فصل التّمثّل المزعج عن عاطفته. وفي سنة 1926 حدّد مصير هذا التّمثّل الذي يمكنه أن يبقى في الشّعور لأنّه محروم من أيّ اتّصال أو علاقة ترابطية. أمّا على المستوى الحركي، فإنّ العزل هو استبعاد لإمكانية اللّمس كوسيلة لتجنّب أيّ اتّصال، فيمنع بذلك العلاقة المؤلمة بين الموضوع والأفكار (Bergeret et al, 2008, p. 118).

ثانيا: الإنتاج الإسقاطي

1. الإسقاط:

1.1. التّطور التّاريخي لمصطلح الإسقاط:

استُعمل مصطلح الإسقاط لأوّل مرّة سنة 1939 من طرف فرانك Frank ليصف به نوع محدّد من التّقنيات. ونشر في ذات السّنة مقالا في جريدة علم النّفس الأمريكية بعنوان " التّقنيات الإسقاطية لدراسة الشّخصية". وقد ابتكر هذا التّعبير "التّقنيات الإسقاطية" (Techniques projectives) لتفسير العلاقة بين ثلاثة اختبارات نفسية هي اختبار تداعي الكلمات ليونغ Jung (1904)، اختبار بقع الحبر لهيرمان روشاخ Herman Rorschach (1920)، واختبار تفهّم الموضوع (TAT) لموراي Murray (1935) (Anzieu& Chabert, 2015, p.13). حيث يرى أنّه يمكن تناول شخصية الفرد، وذاك بإعطائه مجالا يتوفّر على تجربة أو مادّة قليلة التّنظيم من حيث بنائها، ليتمكّن من إسقاط قيمه ومشاعره، فيُحدث بذلك إسقاطا لعالمه الخاصّ ولشخصيته، لأنّ الفرد سوف يُنتظم ويتعامل مع هذه المادّة ويتفاعل معها بعواطفه (Sami-Ali, 1970, p. 247).

ولقد بيّن فرانك Frank أنّ هذه التّقنيات تُشكّل النّموذج الأوّل لتحقيق دينامي وشامل للشّخصية. حيث قارن اختبار تفهّم الموضوع (TAT) بتحليل الطّيف (L'analyse spectrale) في الفيزياء، وبصورة أشعّة من خلال الأشعّة السّينية "X" في علم التّشريح المرضي. كما كان يرى أنّ الأشكال الجديدة للحتمية العلمية (الحتمية الجدلية والسّببية) غزت علم النفس، حتّى أصبحت الاختبارات الإسقاطية واحدة من أكثر الأدوات قيمة للمنهج العيادي في علم النفس، وواحدة من أكثر التّطبيقات العلمية المثمرة في المفاهيم النظرية لعلم النّفس الدّيناميي وخاصّة التّحليل النّفسي (Anzieu& Chabert, 2015, pp. 13-14).

ولقد أثار مقال فرانك Frank جدلا واسعا حول تسمية التّقنيات الإسقاطية وحول علاقتها بمفهوم الإسقاط في المعنى التّحليلي لسيجموند فرويد Sigmund Freud. حيث يمكن تلخيص هذا الجدل في ثلاث نقاط كما حدّدها سامي علي Sami-Ali (1970, pp. 249, 252):

- لا توجد أيّ علاقة بين مفهوم الإسقاط والمفهوم المُراد إعطاؤه للتّقنيات الإسقاطية، لذلك لا بدّ من تغييره. ويؤيّد أيزنك Eysenk هذا الموقف عندما يقول أنّ هذه التّقنيات لا تستخدم مفهوم

الإسقاط ما دام أنّه لم يتم اعتبارها كروائز. واقترح تسميتها بـــ "التّقنيات التّعبيرية" (Techniques expressives)، وهو المعنى الذي يرى فيه " الطّريقة التّي يتناول بها الفعل"، أي ماهية السّلوك.

- يبعث استعمال التّقنيات الإسقاطية لمفهوم الإسقاط إلى تحديد ميكانيزمات دفاعية معيّنة، ولكن ليس بالمعنى التّحليلي للمفهوم. ومن هذا المنطلق حاول رابابور Rappaport صياغة فرضية إسقاطية مفادها أنّ التّعابير السّلوكية للفرد من أبسطها إلى أكبرها دلالة تكشف عن شخصيته، وهي بذاك تكشف عن تنظيمه المتفرّد".

- هناك تواصل بين مفهوم الإسقاط في التّحليل النّفسي وفي التّقنيات الإسقاطية، وفي هذا الشّأن يؤكّد فريق شافيرSchafer أنّ هذا التّواصل مشروط باعتبار الإسقاط ميكانيزم دفاعي فقط في التّحليل النّفسي، إذ يتعلّق الأمر هنا بـــ: "سياق يعتمد على اتّخاذ خصائص لفرد ما، وهذه المميّزات ليست بالضّرورة موجودة في الواقع. فالصّفات المأخوذة من المُثير ناجمة عن رغبات الفرد الذي يفسّر ذلك وكأنّه هو المثير".

أمام هذه المواقف المتضاربة بين الباحثين، حاول بيلاك Bellak من خلال دراساته التّجريبية لإعادة بناء مصطلحات التّحليل النّفسي أن يحسم الموقف مشيرا إلى أنّ الإسقاط هو " إسناد لا شعوري" لأحاسيس ومشاعر وصفات الفرد على الآخرين" (Sami-Ali, 1970, p. 246).

وانطلق بيلاك Bellak في دراسته من التّعريف الدّفاعي المحض لمفهوم الإسقاط في التّحليل النّفسي، مبرهنا أن الفرد لا يُسقط على إنتاجه من خلال اختبار تفهّم الموضوع (TAT) عواطفه السّلبية فقط، بل يتعدّى ذلك إلى انشغالاته وعواطفه الإيجابية. ولقد وجد بيلاك Bellak نفسه في تناقض عندما أكّد أنّ السّياق الدّفاعي في إنتاج البروتوكول لا يُمكن حصره في الإسقاط. وهذا لأنّ الإسقاط كما يرى سيجموند فرويد Sigmund Freud هو مفهوم أعمّ وأشمل، لا يمكن تناوله بمعناه الدّفاعي فقط كما افترض بيلاك Bellak. ولكي يخرج من هذا التّناقض، اقترح بيلاك Bellak فيما بعد تعويض مصطلح "الإسقاط" بمصطلح "الإدراك الواعي" (Aperception) ليقصد به التّفسير الدّينامي الذي تعطيه العضوية (أي البنية) للإدراك (Sami-Ali, 1970, p. 240).

2.1. مفهوم الإسقاط:

لسنوات عديدة اهتمّ العياديون بالإطار الإسقاطي وبتحديد الخصائص الرّئيسة التّي تنظّم الوضعية الإسقاطية بنفس الطّريقة التّي حدّدوا من خلالها الإطار التّحليلي وإطار المقابلة العيادية.

يكمن القاسم المشترك لجميع الاختبارات الإسقاطية في النّوعية الخاصّة للمادّة المقدّمة، فهي في نفس الوقت ملموسة وغامضة وتسمح بتداعي الكلمات، وبخلق جوّ علائقي أصيل بين الفرد والمختصّ النّفسي العيادي بفضل الموضوع الوسيط الذي يمثّله الاختبار(Anzieu& Chabert, 2015, p. 25).

وإذا كانت كلمة الإسقاط التّي طبقّها سيجموند فرويد Sigmund Freud على نوع معيّن من الاختبارات النّفسية قد حققّت ثورة كبيرة في علم النّفس، فإنّ ذلك راجع إلى معانيها المختلفة كما نجدها في قاموس روبرت Robert الذي يفرّق بين ثلاث معاني لمفهوم الإسقاط كما يلي:

- يبعث المعنى الأوّل إلى الفعل الفيزيائي الذي يشير إلى فعل " قدف" الشّيء أو رميه إلى الأمام. فمن خلال تشبيه مجازي وصف سيجموند فرويد Sigmund Freud الفعل النّفسي المميّز للبارانويا، والذي يتضمّن طرد المشاعر المؤلمة ونسبها إلى الآخر. وبهذا المعنى تُعزّز الاختبارات الإسقاطية وتعمل على "تفريغ" كلّ ما يرفضه الفرد في نفسه، وكلّ مشاعره المؤلمة ونقاط ضعفه على المادّة المقدّمة إليه.

- ظهر المعنى الثّاني مع ظهور الهندسة الإسقاطية في القرن السّابع عشر، ظهر المعنى الثّاني وهو معنى رياضي، أضاف للمعنى الأوّل خاصّية التّوافق البنيوي بين الشّكل الهندسي وإسقاطه على مساحة مسطّحة.

- أمّا المعنى الثّالث، فتمّ استخراجه من "البصريات انطلاقا من الاعتبار التّالي: «يكسّر الإسقاط الضّوئي الأشعّة أو الإشعاعات انطلاقا من بؤرة ما». وتُعرف هذه التّطبيقات العلمية جيّدا بمسرح "الظّل" (الذي استوحى من خلاله هيرمان روشاخ Herman Rorschach اختباره النّفسي)، وبالإسقاط الثّابت لصورة أو للتّصوير السّنيمائي، وهي التّعاريف التّي تتناسب مع التّقنيات الإسقاطية حتّى وإن كان المعنى الثّاني هو الذي يسمح بتأسيس علمي لهذه التّقنيات. ففي بداية القرن العشرين، تمّ تبنّي المعنى الثّالث وتوسيعه من قبل العديد من المؤلّفين، وتمّ إدراجه بشكل

سريع في علم النّفس الفيزيولوجي (على سبيل المثال الأحاسيس الشّمية يتمّ تحديدها من طرف الشّخص الذي يشعر بها على مستوى جهاز الاستقبال، ويتمّ إسقاطها من طرفه في أنفه)، وكذلك في علم النّفس (تتكوّن الرّوحانيات، الخرافة، الأسطورة من إدراك العالم الخارجي للحالات العاطفية الدّاخلية التّي يتمّ إسقاطها فيه. وهذا هو المعنى الذي استخدمه سيجموند فرويد Sigmund Freud أيضا لكلمة الإسقاط).

يعتبر الاختبار الإسقاطي إذن بمثابة أشعّة سينية تمرّ عبر باطن الشّخصية، وتُثبت صورة نواتها السّرية (عن طريق تمرير الاختبار)، ثم تسمح بقراءة سهلة عن طريق التّكبير أو الإسقاط المُكبّر على الشّاشة (عن طريق تفسير البروتوكول)، فيظهر للضّوء ما هو مخفي، ويصبح ظاهرا ما هو كامنا، ويُستحضر للسّطح ما هو داخلي، فينكشف ما هو ثابت فينا وما هو معقّد.

يُحّدد المعنى الأوّل والذي يشير إلى التّفريغ النّزوي والعاطفي، المستوى الذي يعمل عنده الاختبار الاسقاطي، وبذلك يُعتبر "سيرورة تحليلية مختصرة"، فاجتياز هذا الاختبار هو بالمعنى الكامل اختبار للشّخص، أي اختبار لحقيقته.

ويُحدّد المعنى الثّاني تطابقا بنيويا للشّخصية التّي يتمّ تصوّرها على أنّها نظام من سلوكيات الفرد ومن إنتاجاته في وضعية محدّدة بواسطة متغيّرين: أوّلهما هو سطح شبه فارغ (مادّة الاختبار) يجب على الشّخص ملؤه بإجاباته، وثانيهما هو قاعدة إسقاط " مائلة" (تعليمات الحرّية الموجّهة للاختبار). وعلى هذا الأساس يأخذ هذا المعنى أساسا علميا صارما للتّقنيات الإسقاطية.

أمّا المعنى الثّالث، فيعمل على نقل التّمثّلات القديمة للصّورة الجسدية، أين يكون الدّاخل متعارضا مع الخارج، والمخفي على السّطح مليئا بالفجوات. هذه التّمثّلات التي يتم إيقاظها من خلال الاختبار الإسقاطي تُحرّك مخاوفا عميقة وقديمة، تمثّل مرحلة مهمّة في التنظيم المبكّر للشّخصية (Anzieu& Chabert, 2015, pp. 16,18).

يقترح سامي علي Sami-Ali قراءة شاملة لمصطلح الإسقاط في عمل سيجموند فرويد Sigmund Freud، تدعونا إلى التّركيز على جانبين رئيسين في تعريف هذا المفهوم، أحدهما يمكننا تناوله من وجهة نظر مَرضية، والآخر على عكسه من وجهة نظر عادية.

تتعلّق وجهة النّظر الأولى بفهم الإسقاط كما عبّر عليه سيجموند فرويد Sigmund Freud في البارانويا عند تحليل حالة الرّئيس شريبر (Cas de Schreber) (1910). وإذ كان قد وصف البارانويا بعودة كراهية يشعر بها الفرد تجاه الآخر، فإنّ الإسقاط هو ميكانيزم دفاعي يحمي الأنا، ويتضمّن عزو مشاعر الفرد إلى الآخر. إنّ هذا المنظور يؤكّد على بعد التحوّل، وكذلك على تشويه الواقع الذي يحمله الإسقاط في حدّ ذاته.

أمّا وجهة النّظر الثّانية فتظهر بشكل خاصّ في الجزء الثّاني من أعمال سيجموند فرويد Sigmund Freud حول الحلم. ويفترض في "Le complément métapsychologique à l'approche du rêve" (1917، أنّ الحلم هو أيضا إسقاط، ليمنحه بذلك وظيفة تنظيم التّوترات لسيرورة الإسقاط في إطار نشاط الحلم.

اقترح لاحقا المؤلّفون الكلاينيون وما بعد الكلاينيون (Les auteurs kleiniens et post-kleiniens) صياغة مشابهة بين التّقمص الإسقاطي العادي (Identification projective normale) والتّقمص الإسقاطي المرضي (Identification projective pathologique). فإذا كان التّقمص الإسقاطي العادي يساهم في بناء الموضوع الدّاخلي على أساس روابط الطّفل مع محيطه، فإنّ التّقمص الإسقاطي المرضي يعكس العراقيل التيّ تعيق بناء التّقمصات الأوّلية، وبالتّالي هشاشة بناء المواضيع الدّاخلية في مواجهة محيط بمعاش مضطهد، مهجور، لا يمكن التّنبؤ به (Roman, 2016, pp. 30-31).

1.2.1. مفهوم الإسقاط عند سيجموند فرويد Sigmund Freud:

تستند فكرة الإسقاط في التّحليل النفسي أساسا على ضرورة التّسليم بوجود صراع بين النّزوات وميكانيزمات الدّفاع، ويترتّب عن ذلك أنّ كلّ فرد يُسقط على مادة الاختبار الإسقاطي صراعاته ونزواته ودفاعاته والحلول التّي يتّخذها للخروج من الموقف (عدوان، 2012، ص ص51-52).

لقد تردّد مصطلح الإسقاط في كامل أعمال سيجموند فرويد Sigmund Freud، وتحدّث عنه من منظورين مختلفين يتطلّب توضيحهما العودة إلى مراحل تطوّر هذا المصطلح عنده.

استعمل سيجموند فرويد Sigmund Freud مصطلح الإسقاط لأوّل مرّة سنة 1894 عندما كتب عن "عصاب القلق" (Névrose d'angoisse)، واقترح هذا المصطلح للدّلالة على ميكانيزم

دفاعي يعزو من خلاله الفرد أفكاره ومشاعره المؤلمة وأحاسيسه الذّاتية إلى العالم الخارجي (عدوان، 2012، ص52). حيث كتب في نصّه "عصاب القلق" ما يلي:« يبعث الإسقاط إلى ميكانيزم يستعمله التّوظيف النّفسي للتّخلّص من فائض الاستثارات غير المحتملة، وذلك عن طريق إبعادها عن حيّزه، فتتصرّف الحياة النّفسية وكأنّها ألقت تلك الاستثارة إلى الخارج » (Sami-Ali, 1970, p. 20).

وفي مقاله حول الميكانيزمات الدّفاعية في حالة عصاب القلق، وضّح سيجموند فرويد Sigmund Freud أنّ هذا الأخير ناشئ عن غياب أو عدم الكفاية الجنسية، فيُصبح الأنا الذي يرفضه اللّيبيدو ولا يستعمله، عاجزا عن السّيطرة على الإثارة الجنسية الدّاخلية، ويقوم بإسقاطها على العالم الخارجي (Cupa& Pirlot, 2010, p. 14).

وفي سنة 1896، وضّح سيجموند فرويد Sigmund Freud أنّ الكبت كميكانيزم نفسي بحث يفسّر الأعراض الهستيرية، وأنّ استخدام المقاومة والتّحويل يسمح بالعلاج. ولقد توسّع في هذا التّفسير الأوّل مركّزا فقط على تشكّل الأعراض لكلّ عصاب نفسي: فكبت الصّراع إلى تحويل في الهستيريا، وإزاحة الشّعور بالذّنب في الوسواس، وإنكار الواقع نتيجة حزن عميق في الهلوسة، وأخيرا إسقاط الكراهية على الآخر عند شخص يشعر بالذّنب.

وفي مقالين له حول "العصابات النّفسية للدّفاع"، وكذلك في رسالته"K" لفليس Fliess (جانفي 1896)، وضّح سيجموند فرويد Sigmund Freud عمله حول ميكانيزمات الدّفاع (التي أعاد تناولها سنة 1920)، ووصف الإسقاط بأنه ميكانيزم دفاعي يتمّ من خلاله عزو النّزوات والرّغبات والعواطف التّي لا يرغبها الفرد ولا يريد الاعتراف بها إلى العالم الخارجي. وظهر الإسقاط (1896) كنمط خاصّ بالبارانويا، حيث أنّه يؤمّن للفرد الدّفاع ضدّ شحنات تمثّلية مزعجة لطردها إلى الخارج. ويقول سيجموند فرويد Sigmund Freud في هذا الشّأن: « في البارانويا، يتمّ كبت "لوم الذّات" بطريقة يمكن وصفها بأنّها إسقاط، وذلك من خلال إثارة عرض دفاعي يتضمّن عدم الثّقة في الآخرين» (Anzieu& Chabert, 2015, p. 19).

وهكذا وبفضل هذه الأعمال الكثيفة التي قام بها سيجموند فرويد Sigmund Freud، شهدت هذه المرحلة الأولى أوّل استخدام "تحليلي" لمصطلح الإسقاط، ليصبح هذا الأخير أكثر توسّعا، وذلك تحديدا سنة 1911 بعدما قام سيجموند فرويد Sigmund Freud بتحليل ونشر إحدى

حالات البارانويا المشهورة للرّئيس شريبر Schreber معرّفا الإسقاط بأنّه: «إدراك داخلي يُقمع في مكانه، ويتأثّر محتواه، ليصل بعد تعرّضه لتشويه معيّن إلى الشّعور وكأنّه إدراك آتٍ من الخارج» (Anzieu& Chabert, 2015, p. 19).

ومن خلال هذه الحالة (شريبر Schreber)، تعمّق سيجموند فرويد Sigmund Freud في هذا الميكانيزم، وبيّن أنّ الإسقاط هو أحد السّياقات الدّفاعية التّي تظهر في حالات البارانويا التي كانت تأخذ صورا جنسية مثلية مكبوتة ومُسقطة. حيث ينشأ هذيان الاضطهاد (Délire de persécution) وفق ثلاث مراحل تتحوّل فيها الحالة الوجدانية من "أنا أحبّه" إلى "هو يكرهني" وذلك تحت تأثير الضّغوط اللاّشعورية على النّحو الآتي:

1. «أنا (رجل)، أحبّه (هو رجل)» . ولكن هذه الرّغبة "الجنسية المثلية" تجعل هذا الحبّ غير مسموح به في الشّعور، لأنّها غير مقبولة اجتماعيا.
2. الشّعور بالحبّ إذن عاد إلى عكسه: تكوين عكسي: « أنا لا أحبّه، أنا أكرهه» . لكن هذا الدّافع مرفوض أيضا.
3. كُبِتَ هذا الدافع، ولكن هذا الكبت ليس حلّ نهائي، فهو لا يحقّق إلا راحة مؤقّتة، ومن أجل الوصول إلى حلّ نهائي يريح الأنا، يتحوّل الدّافع من: «أنا أكره » إلى: «هو يكرهني (أو يضطهدني)، وهذا ما يُبرّر الكراهية التّي أكنّها له».

في هذه الحالة حدث إسقاط: «الكراهية ليست فعلي، ومع ذلك فهي موجودة، إذن هي من فعل أعدائي». وهنا يعيش الفرد شعورا داخليا كما لو أنّه نتيجة لإدراك خارجي: « أنا لا أحبّه، أكرهه، لأنّه يضطهدني». الإسقاط هنا إذن هو طرد (Expulsion) لرغبة غير مُحتملة تمّ رفضها خارج الشّخص، أي هناك إسقاط لما لا نريد أن نكونه (Anzieu& Chabert, 2015, p. 20).

واصل سيجموند فرويد Sigmund Freud أعماله حول الإسقاط، حيث عرف هذا الأخير توسّعا كبيرا بعدما أصبح يتضمّن ما يُعرف بالتّقنيات الإسقاطية. فلم يصبح الإسقاط مجرد "الطّرد"، وإنّما "عدم المعرفة البسيطة" من قبل الفرد للرّغبات والعواطف التّي لا يقبلها في ذاته، فهو غير واع "جزئيا"، ويعزو وجودها إلى حقائق خارجية. هذا المعنى الذي أكّد عليه سيجموند فرويد Sigmund Freud يظهر في الفصل الأخير من مؤلفه "سيكوباتولوجيا الحياة اليومية" (La

(psychopathologie de la vie quotidienne (1901-1904) والمعنون بـــ "Croyances au hasard et superstition"، موضّحا إيّاه كما يلي:

- عندما نطلب من شخص ما أن يذكر اسما أو رقما بشكل عشوائي، سنلاحظ أنه حدّد اختياره بدقّة من خلال اهتمامه الشّخصي. وهذا ما يؤكّد وجود حتمية نفسية.

- من الإسقاط كذلك تأتي الخرافات (الأساطير). وفي هذا السّياق يقول سيجموند فرويد Sigmund Freud:

> « أؤمن بالصّدفة الخارجية (الواقع)، لكنّني لا أؤمن بالصّدفة الدّاخلية (النّفسية)، وهذا عكس ما نجده عند المؤمن بالخرافات..ففي المقام الأوّل، إنّه يُسقط في الخارج دافع أبحث عنه في الدّاخل.وفي المقام الثّاني، إنّه يُفسّر الصّدفة الّتي أضعها في فكرة من خلال حدث. ما يعتبره "مَخُفيًّا"يتعلّق بالنّسبة إلي بما هو لا شعوري... وذلك لأنّ المؤمن بالخرافات لا يعرف شيئا عن الدّافع الذي يكمن وراء أفعاله العرضية (الّتي تحدث صدفة)، ولأنّ هذا الدّافع يفرض نفسه على معرفته، فهو ملزم بإزاحتها إلى الموقف في العالم الخارجي... في الواقع أعتقد وإلى حدّ كبير أن التّصوّر الخرافي للعالم ليس سوى علم نفس مُسقط في العالم الخارجي»

(Anzieu& Chabert, 2015, pp. 20-21) .

نلتمس من خلال هذا النّص الذي قدّمه سيجموند فرويد Sigmund Freud معنيين خاصّين بكلمة الإسقاط، كما يجعل في نفس الوقت جوهر الإسقاط في الإزاحة. حيث أنّ الإسقاط يحافظ على محتوى الإحساس اللاّشعوري بإزاحة موضوع هذا الإحساس.

زيادة إلى أنّ الإسقاط عند سيجموند فرويد Sigmund Freud هو أحد الآليات الدّفاعية الخاصّة بالبارانويا، فهو أيضا سيرورة نفسية "أوّلية"، مثله مثل الأداء الهلوسي للرّغبة في الحلم أو التّحويل التّحليلي. فالسّيرورات النّفسية الأوّلية الّتي تعمل حسب مبدأ اللّذة، تهدف إلى تحديد هوية الإدراكات، وبالتّالي يسعى الجهاز النّفسي للعثور على نفس الموضوع الذي ارتبطت به راحته لأوّل مرّة (مبدأ اللّذة). في حين تميل السّيرورات النّفسية الثّانوية إلى هوية الأفكار والكلمات (مبدأ الهوية والواقع) وتشكّل أساس الفكرة والسّلوك العقلاني.

وفي مؤلّفه "الطّوطم والطّابو" (Totem et tabou) (1912-1913) توسّع سيجموند فرويد Sigmund Freud في أفكاره حول الإسقاط، فالنّزعة الإحيائية" (L'animisme)، التّفكير السّحري (La pensée magique)، وجبروت التّفكير (La toute puissante des idées) الّتي نلاحظها عند البدائي (Le primitif)، الطّفل، والعصابي، تتضمّن إسقاطا للسّيرورات الأوّلية في العالم الخارجي. ومن هنا ينبع حدس سيجموند فرويد Sigmund Freud المتمثّل في الإبداع .(Anzieu& Chabert, 2015, p. 21)

ورغم توسّع سيجموند فرويد Sigmund Freud في استخدام مصطلح الإسقاط، إلا أنّ هذا الأخير بقي في مفهومه حيلة دفاعية ضدّ القلق. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا المفهوم لم يحظ باهتمام كبير من طرف المحلّلين النّفسيين كبقية الميكانيزمات الدّفاعية، لذلك فهو لا يزال غامضا، حيث يشير ر. سيرز R.Sears أنّ مفهوم الإسقاط أقلّ العمليات الدّفاعية تحديدا في نظرية التّحليل النّفسي (عدوان، 2012، ص53).

أخيرا، اختصارا لما سبق وحرصا على الدّقة، يمكننا تحديد مفهوم الإسقاط عند سيجموند فرويد Sigmund Freud في النّقاط الأربعة التّالية:

- الإسقاط هو عملية لاشعورية.
- يتمّ استخدامه كميكانيزم دفاعي ضدّ القلق والدّوافع اللاّشعورية المكبوتة.
- يحدث من خلال عزو الدّوافع والرّغبات اللاّشعورية المؤلمة إلى الخارج.
- يؤدّي إلى خفض للتّوتر والقلق.

3.1. أنواع الإسقاط:

يستدعي عدم الخلط بين التّعبير (Expression) والإسقاط (Projection) قدرا كبيرا من الدّقة والحذر. فالرّسم الحرّ، القصّة الحرّة، اللّعب الدّرامي أو المسرحية "تُعبّر" (Exprime) بشكل واضح عن الشّخصية التّي يأخذها الفرد. وفي هذا الإطار يقترح بيلاك Bellak وسيموندز Symonds (1950) إلى التّمييز بين ما يلي:

- التّقنيات التّعبيرية (Techniques expressives)، أين يكون الفرد حرّا تماما من وجهة نظر التعليمات والمادّة المقدّمة.

- التّقنيات الإسقاطية (Techniques projectives)، أين تكون الإجابات حرّة، لكن تكون المادّة محدّدة ومقنّنة.

- تقنيات التّكيف (Techniques d'adaptation)، وتتكوّن من الاختبارات السّيكومترية حيث تكون إجابة واحدة فقط صحيحة، وأين تتّطلب المادّة دقّة صارمة.

أمّا بالنّسبة لأنواع الإسقاط، فميّز أمبردان Ombredane سنة 1952 بين ثلاثة أشكال من الإسقاط تحدث في الاختبارات الإسقاطية، وهي كالآتي:

- الإسقاط التّأملي (Projection spéculaire): في هذا النّوع من أنواع الإسقاط، يجد الفرد في صورة الآخر الخصائص التي يدّعي بأنّها له (إنّه مثلي). وهنا يُستمدّ الإسقاط من مرحلة الذّاكرة، ومن التّمييز البدائي بين صورة الذّات وصورة الآخر بـــكلمة واحدة لـــ "النّرجسية".

يتمّ الإسقاط التّأملي في أسلوب دالّ (Indicatif)، ومن أمثلة ذلك أن يرسم طفل معاق حركيا خلال اختبار الرّسم الحرّ جسما بشريا ضامرا. أو في أسلوب مرغوب فيه (Optatif) كأن تصف من خلال اختبار إسقاطي طفلة يتيمة قامت بتربيتها عمّتها القاسية مشهدا من الحنان بين الأم وأطفالها.

- الإسقاط التّنفيسي (Projection cathartique): في هذا النّوع، لا يعزو الفرد خصائصه أو ما يرغب فيه إلى فرد آخر، وإنّما الخصائص التي لا يرغبها ولا يقبلها في ذاته (التّنفيس) إلى شخص آخر. وهذا هو معنى الإسقاط الذي تحدّث عنه سيجموند فرويد Sigmund Freud كميكانيزم دفاعي في هذيان البارانويا. كأن يرى مثلا شخص ذو ضمير أخلاقي صلب في صور غامضة لاختبار إسقاطي، مشاهد عنف قاسية.

- الإسقاط الإضافي (Projection complémentaire): في هذا النّوع، يعزو الفرد إلى غيره مشاعر أو مواقف ليبرّر مشاعره أو مواقفه الخاصّة (بسببه). كأن يصف شخص ثائر متمرّد ومنحرف شخصيات قاسية وظالمة، لأنّه بحاجة من أجل تمرّده وانحرافه إلى الشّعور بظلم الآخرين له. يستخدم هذا النّوع من الإسقاط كلّ من الأسلوب المرغوب فيه (التّمني) والأسلوب الدّال (Anzieu& Chabert, 2015, p. 21).

2. الاختبارات الإسقاطية:

1.2. تاريخ الاختبارات الإسقاطية:

تعود أصول جميع الاختبارات الإسقاطية عموما إلى اختبار تداعي الكلمات (Test d'associations de mots) الذي ظهر سنة 1904، وكان ذلك على يد كارل غوستاف يونغ Carl Gustav Jung الذي كان يعمل حينها في زيوريخ (Zurich) بألمانيا بمشاركة بلوير Bleurer. وعلى الرّغم من بساطة أدواته ومبادئه، إلاّ أنّ النّموذج الذي قدّمه يعتبر الأوّل من نوعه، وأصبح بفضله كارل غوستاف يونغ Carl Gustav Jung يعتبر رائدا لجميع الاختبارات الإسقاطية (عدوان، 2012، ص27). خاصّة بعدما أصبح "تداعي الأفكار" في علم النّفس الأكاديمي وعلم

النّفس التّجريبي، يعتبر وظيفة عقلية عامّة يتمّ من خلالها البحث عن قوانين التّوظيف اللّاشخصي (Fonctionnement impersonnel). كما أصبحت التّداعيات التّي يتحصّل عليها المحلّل النّفسي والتّي تُعرف بأنّها "حرّة"، تُحدَّد بشكل صارم من خلال تاريخ الفرد وصراعاته اللاّشعورية. إنّ هذه المنهجية التّحليلية التّي ابتكرها كارل غوستاف يونغ Carl Gustav Jung دون علمه بالنّجاح الكبير الذي ستُحقّقه، تشير إلى أصالة الاختبار النّفسي بكلّ ما يحمله هذا الأخير من معنى أصلي لكلمة " اختبار"، حيث يكشف تفسير تداعيات الفرد عن ميوله العميقة وعن عُقده (Anzieu& Chabert, 2015, pp. 13,15).

إنّ المتتبّع لتاريخ تطوّر الاختبارات الإسقاطبة سيلاحظ أنّ فكرة اختبار التّداعي الحرّ ظهرت من قبل ذلك ، وكانت لأوّل مرّة سنة 1880 مع الباحث الانجليزي فرانسيس غالتون Francis Galton، وذلكبعد ابتكاره لما أسماه بـــ "الطّريقة السّيكومترية"سنة 1879، والتّي عرّفها بأنّها "فنّ إخضاع العمليّات النّفسية لإجراءات القياس ولغة الأرقام" عن طريق استخدام تلك الأدوات التي أطلق عليها الباحث الأمريكي ريموند كاتل Raymond Cattell سنة 1890 تسمية "الاختبارات العقلية". وما لبثت هذه الاختبارات التي استخدمها فرانسيس غالتون Francis Galton في دراسة العمليات الفكرية في المخبر، أن اقتحمت ميدان الممارسة العيادية لأغراض التّشخيص الفارقي من طرف إميل كرابلين Emil Kraeplin سنة 1891، ثم توالت من بعده اختبارات التّداعي لكلّ من دافيد رابابورت David Rappaport وروي شافير Roy Schafer لتشمل بعدها مجالات متنوّعة جديدة كالعائلة والعدوانية والجنس... وشكلّت بذلك أدوات تشخيص بسيطة وهامّة في نفس الوقت (عدوان، 2012، ص27).

واستمرّ الحال على ذلك إلى أن برزت اختبارات إسقاطية أحدث بعد خمس عشرة سنة من نموذج كارل غوستاف يونغ Carl Gustav Jung، وكانت انطلاقتها الأولى والنّوعية مع اختبار أحد تلاميذه وهو هيرمان روشاخ Herman Rorschach الذّي تدرّب في نفس مدرسة الطّب العقلي لبلوير Bleurer في زيورخ (Zurich)، ومارس التّحليل النّفسي. وعلى الرّغم من أن اختباره الذي يعرف باسمه " اختبار الروشاخ" لم يلق في حينه اهتماما كافيا، إلاّ أنّه حقّق نجاحا باهرا بعد وفاته. فرغم أنّ اختبارات بقع الحبر كانت معروفة منذ سنوات، إلاّ أنّها لم تُقدّم أيّ ثمار بين أيدي التّجريبيين الذين انشغلوا بعلم النّفس العبقرية (La psychologie du génie)

آملين من خلاله بدراسة الخيال وقوانينه العامّة. وعلى خلافهم كان لهيرمان روشاخ Herman Rorschach فكرة حاسمة مفادها أنّ تفسير بقع الحبر ليس اختبارا للخيال وإنّما اختبار للشّخصية ككلّ. إنّه في الواقع "التّنظيمة الفردية للشّخصية التّي تبني إدراك مثل هذه البقع (Anzieu& Chabert, 2015, p. 15).

تمثّل تجربة الرّسم مصدرا تاريخيا ثالثا للاختبارات الإسقاطية. فما بين 1920 و1930، قام المحلّلون النّفسيون بتوسيع نطاق علاجهم مع شريحة الأطفال باعتبار أنّ هذه الأخيرة تمتلك تعبيرا لفظيا أقلّ نضجا، وهو ما أدّى إلى استخدام الرّسم الحرّ واللّعب الحرّ كبديل للتّداعيات الحرّة. وفي نفس الفترة امتدّ استخدام القصّة والرّسم الحرّ إلى علم البيداغوجيا الذي أصبح يستخدمهما كطرق نشطة لتنمية شخصية الطّفل. إنّ هذين الأخيرين يكشفان عن معنى رمزي مشابه تماما لمعنى الأحلام والأعراض العصابية.

وفي سنة 1935، تطوّر الاستخدام الإسقاطي للقصّة في الولايات المتّحدة مع موراي Murray بظهور اختبار تفهّم الموضوع (TAT) كأوّل اختبار إسقاطي مستوحى من تقنية سرد القصّة الحرّة. أمّا الاختبارات الإسقاطية التّي تستخدم الرّسم، فقد تأخّر ظهورها إلى غاية سنة 1949 عندما نشر كوك Koch في سويسرا اختبار الشّجرة (Test de l'arbre) وماشوفار (Machover)، واختبار رسم الشّخص (Test du personne) في الولايات المتّحدة (Anzieu& Chabert, 2015, pp. 15-16).

2.2. تعريف الاختبارات الإسقاطية:

قبل التّطرّق إلى ماهية الاختبارات الإسقاطية، يبدو من المهمّ أولّا أن نتساءل عن ما إذا كان مصطلح "الاختبار" (Test) كما هو مأخوذ بالمعنى الصّارم في القياس النّفسي ينطبق بشكل جيّد وملائم على مثل هذه الاختبارات في التّحليل النّفسي، والتي غالبا ما يبقى تقنينها وتكييفها أمرا مرغوبا فيه أمام صعوبة تقدير حساسيتها وثباتها وصدقها.

إنّ المتتبّع لتاريخ علم النفس الإسقاطي سيلاحظ دون شكّ أنّ المسار التّطبيقي لهذا الميدان تميّز بطريقتين متناقضتين تتمثّل في: الطّريقة السّيكومترية والطّريقة السّيكودينامية. وقد ظهرت هاتين الطّريقتين كبديل عن اتجاهين سابقين هما: الاتّجاه التّحليلي الذي مثله ألفرد بينيه

Alfred Binet في بدايات القرن الماضي، والاتّجاه الكلّي الذي كثيرا ما كان يشيد به خبراء تفسير الخطوط في نفس تلك المرحلة.

وعلى الرّغم من اختلاف الطّريقتين في تطبيق الاختبارات الإسقاطية ضمن الممارسة النّفسية، إلاّ أنّهما انبثقتا من بوتقة واحدة هي علم النّفس الفارقي الذي كان أوّل ميدان احتضن تطبيقاته العلمية المتمثّلة في قياس الفروق الفردية منذ أن أرسيت قواعده في نهايات القرن التّاسع عشر (عدوان، 2012، ص ص27- 28).

لقد استعار المختصّون لفظ "الإسقاط" ووظّفوه في وصف عدد من الطّرق أو التّقنيات التّي تسمح بقياس الشّخصية، ومع ذلك فإنّهم لا يقصدون به المعنى الضّيق الذي يدلّ عليه في الأصل، وإنّما يقصدون به كشف الفرد لشخصيته وأفكاره ومعتقداته واتجاهاته... وذلك بالاعتماد على هذه التقنيات التي وصفت وسمّيت بـــ" الإسقاطية" (Projectives) نظرا لما تقدّم للفاحص كلّ ما يبحث عنه من آراء ومشاعر ودوافع ورغبات... خاصّة بمفحوصه، خصوصا وأنّها تشترك جميعها وباختلاف أنواعها في طريقة خاصّة تميّزها عن الاختبارات السّيكومترية، وذلك من خلال ممارستها الفعّالة في معرفة الآخر، و"دقّتها الإكلينيكية" التّي جاءت لتعويض أي دقّة إحصائية أخرى (Anzieu& Chabert, 2015, p. 21).

تعرّف الاختبارات الإسقاطية بأنّها عبارة عن مثيرات غامضة وغير محددّة، يعطيها المفحوص معنى دون أن يكون مقيّدا بالقيود المعرفية في سلوكه. فما يهمّ في الاختبار الإسقاطي هو ليس صواب أو خطأ إجاباته وإنّما طريقته في التّعبير عن نفسه بما يكشف عن شخصيته. هذه الاختبارات هي في نفس الوقت ملموسة وغامضة تسمح بتداعي الكلمات وتخلق جوّ علائقيّ أصيل بين الفرد والمختصّ النّفسي العيادي بفضل الموضوع "الوسيط" الذي يمثّله الاختبار (Chabert, 1998, p. 30).

تسمح المادّة الغامضة (بقع حبر، صور، كلمات، قصص...) التّي تأتي من المثير غير المتشكّل أو النّاقص التّحديد، بحريّة الاستجابة وتنوّعها. هذا الغموض يتعدّى مادّة الاختبار ليشمل التّعليمات المستخدمة فيها، والتّي تشهد هي الأخرى على إطار يوفّر حريّة "تشاركية" أصيلة. هذه الوضعية المتفرّدة تضع المفحوص في وضعية شبيهة بوضعية التّحليل النّفسي، بالمعنى الذي يكون فيه المفحوص مدعوّا -لفترة محدودة- لإطلاق العنان لأفكاره أمام مواجهة

المادّة المقدّمة. إنّ الفكرة التّي تتبادر إلى ذهن المفحوص أثناء مواجهة الاختبار -كما سبقت الإشارة إلى ذلك- ليست صحيحة أو خاطئة، بل هي الفكرة التّي تطرح نفسها وهذا هو المهمّ.

علاوة على ذلك، فإنّ المبدأ الذي تتضمّنه الاختبارات الإسقاطية هو مبدأ عام جدّا، فهي تدعو إلى خطاب حرّ وجدّ مفتوح، أين يكون المفحوص أقلّ شعورا بنفسه، ذلك أنّ الحرّية التّي تسمح بها تعليمة الاختبار غالبا ما تنزع إلى تمهيد الطّريق أمام المفحوص ليكشف عن نفسه. من خلال إعطائه فرصة التّحرر من رقابة الشّعور والانطلاق في الخيال والإبداع، فهو ليس مجبرا لتقديم إجابة واحدة وجيّدة، ولا مضطرّا للإجابة على سؤال يستلزم إجابة محدّدة.

تدعو أصالة الاختبارات الإسقاطية إلى عمل نفسي مزدوج هو الإدراك والإسقاط معا. فالمفحوص هنا مُجبر أن يأخذ بعين الاعتبار المادّة المقدّمة إليه، ولكن أيضا أن يحرّك تخيّلاته واستهاماته الخاصّة. هذا العمل يظهر في تناقض كما يصفه المحلّل النّفسي دونالد وينيكوت Donald Winnicott[6]. ويتعلّق الأمر بإطار يشارك في انتماء مزدوج داخلي/ خارجي، تخيلي/ إدراكي، ليعرّف الاختبار الإسقاطي بهذا المعنى من خلال ما يستدعيه من توظيف مزدوج : "الرّجوع إلى الواقع" و"اللّجوء إلى الخيال"، شأنه شأن الموضوع الانتقالي (Objet transitionnel)، تحدّد المواضيع المصورّة على اللّوحات كأشكال عادية قريبة من الواقع، ولكن في نفس الوقت مستثمرة كركيزة لسيناريو خيالي، فهي تنتمي إلى الواقع الخارجي ولكنّها تأخذ معنى معيّنا لكلّ واحدة منها (Chabert& Verdon, 2018, pp.123-124).

ولقد وضّح فرانك Frank سابقا أنّ الأسلوب الإسقاطي هو طريقة منتظمة لدراسة الشّخصية، أين يتعرّض المفحوص لمثير يستجيب له وفقا للمعنى الذي يدركه وتبعا لمشاعره

---

[6] طوّر وينيكوت Winnicott في مؤلّفه اللّعب والواقع (Jeu et réalité) (1971)، بالإضافة إلى التّعريف الصّارم الذي قدّمه للموضوع الانتقالي (L'objet transitionnel)– موضوع الواقع الدّاخلي المستثمر بدلالات ذاتية من قبل الطّفل الصّغير وهو ما نسمّيه عادة "اللّعبة المحبوبة" (Le doudou)- مفهوم المساحة الانتقالية (L'aire transitionnelle) والفضاء المحتمل (l'espace potentiel). ويتعلّق الأمر "بين-الاثنين" (L'entre-deux) في منتصف المسافة بين الواقع والخيال والتّي يفترض الوصول إليها قبول التّناقض، والانتماء المزدوج داخلي/خارجي، خيالي/إدراكي الذي يسمح بخلق الموضوع الانتقالي. يسمح الاعتراف بهذا الأخير بالتّمييز بين الدّاخل والخارج (Dedans et dehors)، العالم الدّاخلي والعالم الخارجي (Monde interne et monde externe)، الواقع والخيال (Réalité et fantasme). وبالنّسبة لـــ وينيكوت Winnicott يتضمّن الانتقال من العلاقة بالموضوع إلى استخدام الموضوع أن يدمّر الشّخص خياليا (Fantasmatiquement) (الموضوع وأن ينجو (Survive) هذا الأخير من هذا التّدمير الخيالي (Chabert& Verdon, 2018, pp.192-193).

نحوه. يأخذ هذا الأسلوب خاصية مميّزة هي أنّها تثير المفحوص بطرق مختلفة ليعبّر عن ديناميات شخصيته وعن عالمه الخاصّ.

وتذكر أناستازي ويوربينا Anastasi et Uribina في ذات السّياق أنّ الطّريقة الإسقاطية هي إجراء يتضمّن نوعا من المهام غير المتشكّلة نسبيا، وهذه هي الخاصية التّي تجعل عدد الاستجابات الممكنة التي تسمح بها تلك المهام غير محدود (عدوان، 2012، ص ص28-29). فنظرا لاحتوائها على محتويات كامنة (Latente)، تستخرج الاختبارات الإسقاطية بطريقة خاصّة ومميّزة العديد من الإشكاليات النّفسية التّي يكون المفحوص مدعوّا لإثارتها أو تجنّبها وذلك وفقا لقدراته على مواجهتها ومعالجتها. وعلى هذا الأساس تسمح الاختبارات الإسقاطية من خلال السّياقات النّفسية التّي يمكن تحليلها وتفسيرها بطريقة أصيلة بتحديد المصادر والجوانب الهشّة الحالية الخاصّة بالفرد وهو ما يسمح بدراسة "العادي" و"المرضي" (Chabert& Verdon, 2018, pp.124-125).

ويوضّح عدوان (2002، ص32) أنّ التّمييز بين مصطلح "الوسائل الإسقاطية" و"الاختبارات الإسقاطية" يتوقّف أساسا على عملية التّقنين، فعندما تخضع هذه الأساليب أو الوسائل لعملية التّقنين من حيث طريقة التّطبيق والتّصحيح والتّفسير، يُطلق عليها الاختبارات الإسقاطية، وهي تشير إلى الطّرق غير الموضوعية وغير المباشرة في دراسة الشّخصية، وهذا ما يميّزها عن الاختبارات الموضوعية والمباشرة في تقدير الشّخصية.

عموما، يبدو أنّ التّعاريف السّابقة للاختبارات الإسقاطية لا تتعارض فيما بينها وهي تشير في مجملها إلى تلك الأساليب غير مباشرة في دراسة الشّخصية، فهي تقوم على تقديم مدركات غامضة مبهمة غير محدّدة البناء، ثمّ يطلب من المفحوص تفسيرها أو الاستجابة لها كأن يروي قصّة، أو يرسم شيئا، أو يكمل عبارات ناقصة... كعمل نفسي استجابة لذلك المثير أو لذلك الموقف الإسقاطي.

3. مفهوم الإنتاج الإسقاطي:

يُعرّف سي موسي وزقار (2015، ص82) الإنتاج الإسقاطي بأنّه: "عملية تفريغ وإسقاط لما يشعر به الفرد على المادّة المقدّمة له، حيث تعكس بنية استجابات البروتوكول

الخاصّ به بنية شخصيته، لتبقى المميزات الأساسية لهذه الأخيرة محفوظة في البروتوكول، وتصل إلى حقيقته الدّفينة عن طريق جهد فكري وعمل تفسير مرتبط بمهارة وتجربة الفاحص".

يقدّم الإنتاج الإسقاطي إذن صورة عن الواقع الدّاخلي الذي يضفيه الفرد على المادّة المقدّمة له، ويُقصد به مجموع الإجابات والقصص المنسوجة في اختبار الرّوشاخ وتفهّم الموضوع، والتّي يتمّ تقديمها على شكل بروتوكولات من طرف المفحوص استجابة لتعليمة خاصّة بالاختبار، وكذا كلّ العناصر التّي تتضمّنها وضعية تطبيق الاختبارين من ملاحظات، واستجابات حركية، وإيماءات، وطلب استفسارات، وإضافات (سي موسي؛ زقار، 2015، ص81).

يتعلّق الأمر بمواد غامضة، تماما مثل الوضعية التّحليلية تُعتبر تعليمة الاختبار الإسقاطي التّي تُعطي حرّية كبيرة للمفحوص، في نفس الوقت "إجبارا" له، وذلك لأنّه محكوم عليه بأن يكون حرّا "يكشف عن نفسه بنفسه" (Anzieu& Chabert, 2015, p. 23)، وهذا ما تحمله الصّفة "إسقاطية" لأنّها تحرّك الفرد ليُسقط شيئا منه على المادّة المقدّمة إليه. فما هو مُسقط يتجاوز ما يرغب الفرد إظهاره، فهو لا يستطيع التّحكّم فيه: الإجابات، الكلمات المستخدمة، سلوكه أثناء التّمرير... كلّ هذا يقدّم شيئا يسهل فهمه إلى حدّ ما عن توظيفه النّفسي. حيث يسمح تحليل وتفسير البيانات التي تمّ الحصول عليها أثناء التّمرير، وهو ما يُعرف بالإنتاج الإسقاطي، بتقييم أنماط التّوظيف النّفسي للفرد بطريقة موضوعية مع احترام تفرّده (Chabert& Verdon, 2018, p. 124).

من جهة أخرى، يرى فرانك Frank أنّ الإنتاج الإسقاطي هو مجموع الاستجابات لمثيرات غير متشكّلة ومبهمة إلى حدّ ما، يُسقط من خلالها الفرد حاجاته ونزعاته، وتبدو هذه الحاجات والنّزعات في صورة استجابات لهذه المثيرات (عباس، 2001، ص90).

أمّا بالنسّبة لرومان Roman (2016, p.38)، فيمكن اعتبار الانتاج الاسقاطي بمثابة تكوين تسوية (Formation de compromis) تعزوه القوى المنظّمة للجهاز النّفسي، حيث يمكن تحديد دور الأنا في الجهاز الإداري بين مصدر النّزوات (الهو)، وبين القوى المانعة والمحرّمة (الأنا الأعلى)، بنفس طريقة الإنتاج اللّفظي (La production verbale) في إطار العلاج النّفسي

التّحليلي(La cure psychanalytique) . بمعنى آخر يتضمّن الإنتاج الإسقاطي ترجمة "كلمات" انطلاقا من التّعليمة، وكذلك تحريك النّزوات الذي يبدأ عند الالتقاء مع مثير اللّوحة الإسقاطية.

نفهم ممّا تقدّم أنّ الاختبارات الإسقاطية، مثلها مثل العلاج التّحليلي تسمح بظهور"انتاجات اللّاشعور"(Productions de l'nconscient) التّي ستؤسّس لبروز تنظيمات (Organisations) خاصّة للحياة النّفسية. الإنتاج الإسقاطي إذن هو كلّ ما يقدّمه الفرد من استجابات سواء كانت لفظية أو غير لفظية أثناء الوضعية الإسقاطية، حيث يُطلب منه أدراك أشكال محدّدة انطلاقا من مواد غامضة كما هو الحال مع اختبار الرّوشاخ، أو سرد قصّة كما هو الشّأن في اختبار تفهّم الموضوع (TAT). فكلّ ما يُنتجه الفرد من إسقاطات حول مادّة مبهمة تحمل الكثير من الدّلالات التّي تعكس عالمه الدّاخلي العميق.

4. اختبار الروشاخ:

1.4. التّطور التّاريخي لاختبار الروشاخ:

يعتبر اختبار الروشاخ من أكثر الاختبارات الإسقاطية شهرة واستخداما في العالم. فهو الاختبار الذي تمّ اكتشافه في قرن الصّورة الذي عرف عددا كبيرا ومتنوّعا من التّقنيات التّي تعمل على صنع والتقاط الصّورة كالتّصوير الفوتوغرافي، التّصوير بالأشعّة، التّصوير السّينمائي... ولقد ساهمت هذه الأخيرة بطرق مختلفة وبوجهات نظر متنوّعة في بناء معرفة محدّدة تستند إلى "سيرورة تفكيك الشّيء" والتي كانت انطلاقتها في بداية القرن العشرين مع التّقنيات البصرية. ولقد استوحى الطّبيب العقلي هيرمان روشاخ Hermann Rorschach فكرة اختباره من هذه السّيرورة التي يرى بأنّها تؤدّي إلى عملية تفكيك/ إعادة بناء الصّورة بما يتعلّق بالطّبيعة البنائية للمادّة (Roman, 2016. pp. 101-102).

تشهد بقع الحبر التّي اخترعها هيرمان روشاخ Hermann Rorschach على اختبار قويّ يوفّر قدرا كبيرا من المعلومات المتعلّقة بالحياة الدّاخلية العميقة للفرد، وذاك من خلال عمله النّفسي، تظاهراته السّيكوباتولوجية، ومدى قدرته على التّكيف. هذا الاختبار يعدّ أوّل محاولة منظّمة لدراسة الشّخصية ككلّ، حيث انطلق واضعه هيرمان روشاخ Hermann Rorschach من نظرة مغايرة عن أسلافه، فلم يستخدم بقع الحبر لدراسة الخيال كما تمّ سابقا، ولكن كطريقة

منهجية منظّمة تُمكّن من تحديد تشخيص نفسي للشّخصية سواء كانت عادية أو مرضية (Chabert, 1997, p. 01).

ولعلّ استعراض جانبا -ولو مختصرا- من السّيرة الذاتية لمبتكر هذا الاختبار سيلقي بعض الضوء على فكرة اكتشافه التي كانت عبر مراحل متدرّجة.

وُلد هيرمان روشاخ Hermann Rorschach (1884-1922) بزيوريخ (Zurich) بألمانيا من عائلة سويسرية، وهو الابن الأكبر لأب رسّام، وكان يعشق الفن ومبدعا في الرّسم قبل أن يختصّ في الطّب العقلي بجامعة زيوريخ التّي كان يرأسها أوجان بلوير Eugène Bleurer، وناقش أطروحته في الطّب سنة 1912 حول "الهلاوس الانعكاسية والظّواهر المرافقة" (Les hallucinations-réflexes et les phénomènes associés) Anzieu& Chabert, 2015, pp. 46-47). تدرّب هيرمان روشاخ Hermann Rorschach في مدرسة أوجان بلوير Eugène Bleurer، وكان زميلا لكارل غوستاف يونغ Carl Gustav Jung الذي نظّم مفهومي الانطواء والانبساط وتألّق من قبل باختراعه لاختبار تداعي الكلمات، ليتمّ تطبيق المصطلحات التّحليلية على الذّهانات (Psychoses) لأوّل مرّة. كان لهيرمان روشاخ Hermann Rorschach فضول كبير لفهم علم النّفس الجماعي (La psychologie Collective) للطّوائف الدّينية الرّيفية والتّقليدية في منطقة سويسرا أين كانت ممارساتها تركّز بشكل كبير على الانحرافات الجنسية آنذاك. ودون أن يخضع للتّحليل النفسي أصبح هيرمان روشاخ Hermann Rorschach محلّلا نفسيا من خلال ممارسته وقراءته لسيجموند فرويد Sigmund Freud، هذا بالإضافة إلى التّحليل الذّاتي المنهجي عن طريق الملاحظة الذّاتية التّي جعلت منه النّموذج الأوّلي الواعي للتّوظيف النّفسي الانطوائي الذي حددّه تحديدا دقيقا فيما بعد (Chabert, 1997, pp. XI- XII).

مارس هيرمان روشاخ Hermann Rorschach العلاجات التّحليلية على مرضاه مكتسبا بذلك فهما عميقا للمرض العقلي من خلال هذا التوجّه، والتحق بعد ذلك بفريق التّحليل النّفسي لزيوريخ Zurich (Bleurer, Jung, Maeder, Binswanger, Pfister) منذ سنة 1909 إلى غاية سنة 1913. كما نشر عددا كبيرا من المقالات والملاحظات والتّقارير في " Zentralblatt für psychoanalyse"، إلى أن انفصل كارل غوستاف يونغ Carl Gustav Jung عن الحركة الفرويدية للتّحليل النّفسي، ولتُفرّق الحرب هذا الفريق لاحقا.

أصبح هيرمان روشاخ Hermann Rorschach نائبا لرئيس جمعية التّحليل النّفسي السّويسرية التّي تأسّست سنة 1919 مع أوبرهولز Oberholzer، زوليجر Zulliger، بفيستر Pfister، وقدّم عدّة مداخلات تتعلّق باختباره، وكان كما وصف نفسه من النّوع المبدع الانطوائي، إلاّ أنه كان عميق التّفكير، وكرّس حياته بعد مناقشة أطروحته في الطّب لدراسة بقع الحبر إلى أن توفّي فجأة تاركا وراءه عملا مميّزا ومثيرا في نفس الوقت. فيبدو اكتشاف هيرمان روشاخ Hermann Rorschach لاختباره أمرا مذهلا، ذلك انّه لم يتمّ اختراعه في الجامعات أو المخابر أو المكتبات الكبرى، وإنّما في مستشفى صغير للأمراض العقلية، ومن قبل شخص لم يدرس علم النّفس، ولم يحضر المؤتمرات الدّولية، ولم يحصل على ألقاب رسميّة، ومع ذلك يعتبر هذا الاكتشاف فريدا من نوعه. فبينما كانت الفكرة الإسقاطية غائبة آنذاك عند المحلّلين النّفسيين منذ كارل غوستاف يونغ Carl Gustav Jung، استكمل هيرمان روشاخ Hermann Rorschach مواهبه الفنّية والسّريرية بروح إسقاطية أفضت في الأخير إلى اكتشاف أهمّ اختبار إسقاطي وأكثره استخداما.

في الواقع، إن فكرة استخدام بقع الحبر كمادّة مثيرة أساسية لم تكن أصيلة، إذ تعرّض لها آخرون، وكان ليونار ديفينشي Léonard de Vinci أوّل من نبّه إلى أنّ المثيرات غير المتشكّلة تثير انطباعات مختلفة حسب خصائص الأفراد في القرن الخامس، حيث تُنسب إليه الفكرة الأصلية في اكتشاف الإبداع عن طريق مجموعة من البقع، وقد استخدم بقع الحبر في الاختيار المهني بالإضافة إلى استثارة الخيال عند الفرد، موضّحا أنه كلّما زاد تأمّل الفرد في بقعة كلّما زادت قدرته على رؤية أشكال كثيرة، وأصبح محتواها أكثر إبداعا (عدوان، 2012، ص92). ولقد نشر بينيه Binet وهنري Henri اختبارا للخيال سنة 1895 في مؤلّفهما "L'Année psychologique" (Anzieu& Chabert, 2015, p. 49). أمّا استخدام بقع الحبر كتقنية للفحص النّفسي فيرجع الفضل في ذلك إلى بينيه Binet عندما استعملها في دراسة الفروق الفردية مركّزا على العمليات العقلية المعقّدة بدلا من العمليات الأوّلية الحسّية البسيطة، ولقد اختار عمليّة التّخيّل لتحقيق هذا الهدف، فصاغ اختبارا خاصا من بقع الحبر. ورغم الفروق المهمّة التّي لاحظها في الخيال عند الأفراد إلّا أنّه لم يتقدّم في دراسته، ومع ذلك تمثلت أهمّية هذه الدّراسة في إشارته

إلى إمكانية استخدام بقع الحبر في تقصّي الخيال البصري لدراسة سمات الشّخصية (عدوان، 2012، ص ص92-93).

وقام ديربورن Dearbor سنة 1897 في الولايات الأمريكية المتّحدة بوضع أوّل مجوعة من البقع التّجريبية، وأجرى عليها عدّة أبحاث مع الباحثين كريكباتريك Krikpatrick و شارب Sharp منذ سنة 1898 إلى غاية سنة 1900 (Anzieu& Chabert, 2015, p. 49). وحاول ديربورن Dearbornأن يوضّح مدى إمكانية بقع الحبر في الكشف عن الكثير من خصائص شخصية الفرد وبعض جوانب علاقاته الاجتماعية واتّزانه العقلي (عدوان، 2012، ص93).

وفي سنة 1910 قدّم ويبل Whipple عملا مهمّا ساهم في تطوير هذا النّوع من الاختبارات، حيث وضع مجموعة تتكوّن من 20 بقعة قام بتقنينها، ليكون أوّل من تعرّض لذلك وبصورة شاملة لجميع الجهود التّي سبقته في هذا المضمار. إلّا أنّه لم يحدّد وقت تقديم البقع، وسلّط الضّوء على الفروق الفردية الواضحة (Anzieu& Chabert, 2015, p. 49)، واتّخذ من منهج شارب Sharp طريقة في تحليل الاستجابات ليتقدّم نوعا ما إلى الأمام، مركّزا من خلال عمليّة التّخيل على سرعة التّداعي، عدد الاستجابات، درجة تعقّد الاستجابات، والاستجابات غير المألوفة (عدوان، 2012، ص93).

وفي ذات السّنة، نشر المختصّ النّفسي الرّوسي ريباكوف Rybakoff أطلسا يتكوّن من 08 بقع لتقييم قوّة وثراء وحدّة الخيال. وتجدر الإشارة في هذا الشأن إلى أنّ المعلومة التّي تقول بأنّ هيرمان روشاخ Hermann Rorschach كان سيعمل مع ريباكوف Rybakoff في موسكو سنة 1913 ليُبادر في مثل هذا النّوع من الاختبار ليست مؤكّدة، لأنّ هيرمان روشاخ Hermann Rorschach بقي في روسيا فترة أقصر بكثير ممّا كان يُعتقد. وكان بارتلت Bartlett أوّل من أدخل الألوان على تقنية البقع سنة 1916 في انجلترا (Anzieu& Chabert, 2015, p. 51). أمّا سيسلي Cecely فقد اعتمدت على بقع حبر ويبل Whipple المقنّنة لدراسة الخيال، إلّا أنّها وجدت نسبة عالية من الاستجابات البشرية والحيوانية، مع فروق ناتجة عن اختلاف الجنس. ولقد أشار الباحثان في تحليلهما لمحتوى الاستجابات إلى الطّريق المؤدّي إلى ما وضّحه هيرمان روشاخ Hermann Rorschach فيما بعد (عدوان، 2012، ص94).

بكلّ روح علمية كان هيرمان روشاخ Hermann Rorschach يقدّم بقع الحبر لمرضاه، ثمّ يقارن إجابتهم بإجابات الأفراد العاديين، وإجابات الأطفال بإجابات البالغين. وفي سنة 1911 عمل بالتّعاون مع زميله السّابق في الدّراسة كونرا جهرينغ Konrad Gehring، بعدما أصبح أستاذا في مدينة مجاورة، وطبّقه على تلاميذه للتّمييز بين التلاميذ المتفوّقين والضّعفاء من خلال خيالهم، إلاّ أنّ هذا البحث كان محاولة فاشلة ولم يعرف أيّ نجاح. علاوة على ذلك استخدم هيرمان روشاخ Hermann Rorschach رسومات غريبة استعملها كمثيرات مثل قطّة خضراء، ضفدع أحمر، حطّاب... وقام بمقارنة النّتائج بصفة عامّة مع نتائج اختبار كارل غوستاف يونغ Carl Gustav Jung، لكن للأسف ضاعت منه اللّوحات الأولى. في الحقيقة يعود الفضل الأوّل في إثارة اهتمام هيرمان روشاخ Rorschach Hermann لدراسة بقع الحبر إلى الطّالب البولندي هانز سيمون Hens Szymon، الذّي أنهى هو الآخر دراسته في الطّب بجامعة زيوريخ (Zurich) عند بلوير Bleurer، وكانت أطروحته محفّزا كبيرا لهيرمان روشاخ Hermann Rorschach، مُختبِرا من خلالها خيال ألف طفل، وألف بالغ عادي، وألف ذهاني، وحلّل فقط محتوى الإجابات، لكنّه لم يتوصّل إلى وجود فروق بين الأفراد العاديّن والأفراد الذّهانيين بعدما أنهى دراسته بطرح بعض الأسئلة الحاسمة أهمّها: "بعض الأفراد يفسّرون البقعة كاملة، وآخرون يفسّرون التّفاصيل فقط، فهل هذا له دلالة؟ كلّ هذه البقع هي بيضاء وسوداء، ماذا ستعطي البقع الملوّنة؟ ربّما ستُمكّن هذه الطريقة من تشخيص الذّهان؟ (Anzieu& Chabert, 2015, pp. 51-52). تكمن أصالة اختبار بقع الحبر في تحويله من اختبار يدرس الخيال إلى اختبار يدرس الشّخصية، وجاء هذا الاكتشاف تدريجيا مع وضع مفتاح جديد للّتفسير، فأصبحت الاستجابات الحركية تُعبّر عن انطواء الفرد، بينما الاستجابات اللّونية فتُعبّر عن انبساطه.والحقيقة أنّ هيرمان روشاخ Hermann Rorschach كان يعلم بتصنيف كارل غوستاف يونغ Carl Gustav Jung حول الانطوائية والانبساطية، لكن مفاهيمه كان لها معنى مختلف، وكانت انطلاقته مع الحلم كما حدث مع سيجموند فرويد Sigmund Freud. فحوالي سنة 1904، حضر هيرمان روشاخ Hermann Rorschach لأوّل مرّة وهو لا يزال طالبا في الطّب في عمليّة تشريح جثّة (Autopsie)، وفي المساء حلم وبأحاسيس جدّ دقيقة بأنّ دماغه مجزّأ إلى عدّة شرائح عرضية، كلّ شريحة منه تتساقط على التّوالي إلى الأمام. وكان هذا الحلم هو نقطة الانطلاق لأطروحته في الطّب عام

1912. وبخصوص محتوى الحلم ومعناه، لم يتطرّق هيرمان روشاخ Hermann Rorschach إلى الأسئلة التّي سبق وأن تناولها سيجموند فرويد Sigmund Freud لأنّه كان يعلم بالتّفسيرات التّحليلية وكان يعتبرها أمرا مفروغا منه، كما كان يعلم بأنّ سيجموند فرويد Sigmund Freud قد قرّر نشر مؤلّفه "Die Traumdeutung" بعدما حلم بتشريح جثة حوضه (Anzieu& Chabert, 2015, pp. 52-53).

يشير حلم هيرمان روشاخ Hermann Rorschach إلى توجّهه العصبي –السّيكاتري وعن مجهوداته المتواصلة حول تقسيم الشّخصية إلى عناصرها الأساسية. وفي هذا الشّأن يتساءل عن أمر آخر وهو كيف يمكن للفرد أثناء حلمه أن يختبر الإحساس بالحركة بينما لا تكون هناك حركة في الواقع الحالي؟ ثم كيف يمكن لنوع ما من الإدراكات أن يتحوّل إلى إدراك لمجال حسي آخر: بصري إلى حركي، سمعي إلى حركي، بصري إلى سمعي، وسمعي إلى بصري؟ وكان الجواب هو أنّ الفرد يملك سجّلا من الصّور أوسع من ذلك الذي يستخدمه في حياته اليومية. فبالإضافة إلى ارتباط إدراك بإدراك آخر، يوجد نمط آخر جدّ مباشر هو النّظام الحركي. كما يتمّ الاحتفاظ بالإدراكات البصرية أسفل عتبة الشّعور في شكل صور حركية، ويمكن إعادة تجربة هذه الإدراكات إمّا شعوريا كإدراكات حركية، وإمّا إعادة ترجمتها لا شعوريا إلى صور بصرية. وهنا يعتبر هيرمان روشاخ Hermann Rorschach بقع الحبر بمثابة مرآة، حيث تقوم المنبّهات البصرية بتنشيط الصّور الحركية التي يعرضها الفرد على البقع، والتي ستُدرك بدورها كانعكاسات مُرسلة من طرف هذه المرآة. وفي هذا المجال، تمكّن هيرمان روشاخ Hermann Rorschach من اتّخاذ خطوة مهمّة بفضل مؤلّف مورلي فولد Mourly Vold حول الأحلام (1910 -1912)، والذي كرّس حياته للدّراسة التّجريبية حول "تأثير الأحاسيس اللّمسية والعضلية على الأحلام"، فطلب من 19 من طلابه النّوم مع ربط الرّجل اليسرى، فتضمّنت كلّ أحلامهم المتتالية حركات مفعمة بالحيوية (صيادون يطاردون أرانب تقفز، شقيقان يركضان وراء قطيع من الأبقار يهرب إلى التّل، التحليق فوق الشّوارع، الصّعود إلى قمّة لا يمكن الوصول إليها...). وانطلاقا من هذه الدّراسة تبنّى هيرمان روشاخ Hermann Rorschach العديد من الاستنتاجات التي توصّل إليها، أهمّها أنّ الإدراكات الحركية تبني جزءً مهمّا من الشّخصية، تُقمع هذه الإدراكات من طرف الوعي أثناء حالة اليقظة، وتُغذّي أحلامنا أثناء النّوم،

وتتعارض مع الحركات الحقيقية: إذ يُمكن للحالم أن يحتفظ بحلمه في ذهنه إذا بقي ساكنا عند الاستيقاظ. في الحركة الأولى يختفي الحلم، وكلّما تمّ تثبيط النّشاط العضلي، كلّما زاد تنشيط الصّور الحركية، ذلك أنّ الحالم يُسقط صوره الحركية أثناء حلمه بحركات خيالية سواء له أو لأشخاص آخرين أو حتى حيوانات. وما المواقف السّاكنة في الأحلام إلّا حركات مقموعة.

حسب هيرمان روشاخ Hermann Rorschach يظهر الرّمز عند تقاطع المادّة الحركية التي وصفها مورلي فولد Mourly Vold والعوامل الدّينامية التي وضّحها سيجموند فرويد Sigmund Freud. تُسقط المادّة الحركية في كلّ من رموز الحلم، الهلوسة الانعكاسية للذّهان، استجابات الحركة لبقع الحبر، وأخيرا في النّشاطات الإبداعية. ويواصل هيرمان روشاخ Hermann Rorschach بحثه، بحيث يميّز الانطواء الإبداعي (Introversion créatrice) بوصف الفرد "المتحرّك" أو "الانطوائي" بأنّه: منغلق، أخرق، خجول، يكبح حركاته الحقيقية، له ذكاء متفرّد، قادر على التّخيل والإبداع، حياته الدّاخلية مكثّفة، ردود أفعاله العاطفية مستقرة، علاقاته مع الآخرين أعمق، وأكثر وعيا بنفسه. وهذا كلّه يعني أنّ الحركة تعكس الحياة العاطفيّة الدّاخلية للفرد.

ومن جهة أخرى، يفترض هيرمان روشاخ Hermann Rorschach أنّ الاستجابات اللّونية تعبّر بطريقة مكمّلة عن المظهر الخارجي للحياة العاطفية. فربط اللّون الأحمر بالاندفاع واللّون الأزرق بالتحكّم في النّفس. هذا وقد وصف الفرد المنبسط (L'extratensif) بأنّه: حساس للألوان، له ذكاء مولّد، أكثر تكيّفا، أكثر مهارة وفعالية، إبداعاته العاطفية وفيرة، وعلاقاته بالآخرين سطحية (Anzieu& Chabert, 2015, pp. 53-54).

وفي سنة 1919، نشر فنكوسر Fankhauser زميل هيرمان روشاخ Hermann Rorschach، كتابا مستوحى من هذه الفرضيات حول "دلالة العاطفة والتّوازي مع الأضواء والألوان" (La signification de l'affectivité, parallélisme avec les lumières et les couleurs)،وأسّس تمثيلا بيانيا للعواطف وفقا لمخطّط ثلاثي الأبعاد، يتكوّن كلّ واحد من عاطفتين متضادّتين حسب نموذج مجال الألوان لفوندت Wundt.

ولعلّه من المفيد أن نشير في هذا الإطار إلى أنّ الانطوائية الإبداعية (L'introversivité créatrice) والانبساطية الإنتاجية (L'extratensivité reproductrice) عند هيرمان روشاخ

Hermann Rorschach لا تُميّزان بين نوعين من التّشكيلات كما هو الحال عند كارل غوستاف يونغ Carl Gustav Jung. فهما وظيفتان نفسيّتان تتعايشان بدرجات متفاوتة من التمدّد (Dilatation) أو التّركيز (Concentration)، حيث يحدَّد نمط الصّدى الحميم (Le type de résonnance intime) الذي أشار إليه اختبار الروشاخ إلى النّسبة الخاصة بالفرد الذي تمّ اختباره من خلال هاتين الوظيفتين. وفي هذا الصّدد يقول عند هيرمان روشاخ Hermann Rorschach بأنّ الانطوائية تُشكّل أساس الثّقافة، في حين تُشكّل الانبساطية أساس الحضارة، ويقترب بذلك من الخصائص التي قدّمها هيمانز Heymans و ويرسما Wiersma، حيث يرى بأنّ الانطوائي يستجيب فورا مع المثيرات العاطفية وله أثر "أوّلي"، على عكس المُنبسط الذي له أثر "ثانوي".

وفي سنة 1918، صمّم هيرمان روشاخ Hermann Rorschach لوحات اختباره التّي جرّبها على مرضاه في مستشفى "Herisau"، حيث بلغ عدد الأفراد الذين تمّ اختبارهم 288 فردا مصابا بالذّهان و117 فردا عاديا (ممرضات، طلبة، أطفال). وقام بانتقاء 15 لوحة تنوّعت بين سوداء، سوداء وحمراء، وملوّنة.ومع ذلك كان هذا الاختبار سابقا لعصره، حتّى أن أغلب النّاشرين رفضوا طباعته، باستثناء أحدهم الذي قام بطبع الصّور، وأصرّ على تخفيض عدد البطاقات من 15 لوحة إلى 10 لوحات. واستمرّ هيرمان روشاخ Hermann Rorschach في تطبيق اختباره سنة 1919، ليصبح مؤلّفه "التّشخيص النّفسي" (Psychodiagnostik) جاهزا في شهر أكتوبر من سنة 1920، إلاّ أنه لم يعرف نجاحا كبيرا بعد ظهوره مع نهاية شهر جوان من سنة 1921. وقد حُرم خلال كلّ هذه الفترة من لوحاته التي صمّمها، وتوجّه إلى مساعدة تلميذه Behn-Eschenburg في بناء سلسلة مماثلة "Behn-Rorschach" أو ما تُعرف اختصارا بـــ "Bero" وتمّ نشرها بعد وفاته سنة 1941.

تجذر الإشارة في الأخير إلى أنّ طباعة بقع الحبر تحوّلت الأصلية إلى "كارثة"، حيث تمّ تصغير شكله وتغيير ألوانها، فأصبح اللّون الأسود باهتا، إلّا أنّ عبقرية هيرمان روشاخ Hermann Rorschach استمدّت نجاحا آخرا من هذه الكارثة، فأضاف إلى اكتشافه الاستجابات الظّلية (Réponses estompages)، وتحدّث عنها أثناء مداخلته في جمعية التّحليل النفسي السويسرية بتاريخ 18 فبراير 1922. وواصل تطبيق اختباره على الأفراد العاديّين والمتفوّقين

إلى أن توفّي فجأة سنة 1922 دون أن يرى النجاح الكبير الذي شهده اختباره (Anzieu& Chabert, 2015, pp. 54-55).

2.4. انتشار اختبار الروشاخ:

لا يزال اختبار الروشاخ وبعد قرن من الزّمن، اختبار الشّخصية الأكثر استخداما في العالم. وبما أنّ الأفراد لا يستجيبون بنفس الطّريقة أمام لوحة ما من لوحاته، يصبح من الممكن إذن رؤية أشياء مختلفة في أشكال السّحب، واقتناعا منه بأنّ هذا الأمر لا علاقة له بشخصية كلّ فرد، قرّر هيرمان روشاخ Hermann Rorschach تطوير سلسلة من بقع الحبر ومقارنة "نتائج" المرضى مع تلك الخاصّة بالأفراد العاديين الذين يلتقي بهم خارج المستشفى. وبعد سنوات من البحث حاول فهم لماذا يقوم بعض الأفراد بتقديم إجابات متعلقّة بالتّفاصيل بدلا من البقعة بأكملها؟ ولماذا يستخدم بعضهم اللّون بدلا من الشّكل؟ ثمّ لماذا يرى البعض أشياءً متحرّكة بينما لا تتحرّك البقع؟

وبعد عشر سنوات من ظهور هذا الاختبار، قرّر علماء النّفس استخدامه، فظهرت مجلّة دولية كرّست أبحاثها في علم النّفس الإسقاطي، وكذلك الجمعيات العلمية على غرار "جمعية الرّوشاخ". فمنذ تقديمه سنة 1930 من قبل البيداغوجيين وعلماء النّفس السّويسريين، لم يتوقّف الاهتمام الكبير بالطّرق الإسقاطية في فرنسا في مجالات الممارسة والبحث في علم النّفس الإكلينيكي وعلم النّفس المرضي، ليمتدّ هذا الاهتمام إلى تدريسه في مختلف الجامعات. وفي سنة 1948، تمّ تأسيس الجمعية الدّولية للروشاخ والتّي أصبحت فيما بعد الجمعية الدّولية للروشاخ والأساليب الإسقاطية (La société internationnal du Rrorschach et des méthodes projectives)، وتمّ نشرها في المجلة الأنجلوفونية "Rorschachinia ". وفي سنة 1950، أنشأ دانيال لاغاش Daniel Lagache الفريق الفرنسي برعاية شخصيات مرموقة في علم النّفس والطّب والفلسفة على غرار ديلي Deley، فريس Fraisse، مارلو- بونتي Merleau-Ponty، بيرون Perron وفالون Wallon. وبعد وقت قصير، وبفضل نينا روش دو تروبنبارغ Nina Rauch de Traubenberg، سمحت التّبادلات بين الزّملاء الأمريكيين والأوربيين بإثراء متبادل للمعارف المبنية على مقاربات سيكومترية أو تحليلية نفسية. ورأت الأبحاث التّي تم إجراؤها باستخدام النّظام الشّامل (Le comprehensive Systèm) الذي وضعه عالم النّفس الأمريكي جون

اكسنر John Exner ليرى النّور بعدها في فرنسا، وهو ما أدّى إلى ميلاد حركة فكرية تسمّى "مدرسة باريس" أو "المدرسة الفرنسية"، حيث تمّ تنظيم الأبحاث التّي أجريت على الروشاخ و تفهّم الموضوع (TAT) من طرف نينا روش دو تروبنبارغ Nina Rauch de Traubenberg وفيكا شنتوب Vica Shentoub. كما أنشأ ديدي أنزيو Didier Anzieu شهادة التّكوين (Certificat de formation) في التّقنيات الإسقاطية في جامعة الصوربون في السّتينات، وسلّم إدارتها لنينا روش دو تروبنبارغ Nina Rauch de Traubenberg التّي نقلتها هي الأخرى إلى كاترين شابير Catherine Chabert التّي تبنّت بقوّة هذا التّراث المنهجي الذي لا يمكن تعويضه أو الاستغناء عنه سواء في البحث أو في الممارسة العيادية. وتمّ تسمية الفريق الفرنسي للروشاخ الذي أصبح في سنة 1961 "الجمعية الفرنسية للروشاخ والأساليب الإسقاطية"، بـــ "جمعية الروشاخ والأساليب الإسقاطية للغة الفرنسية" عام 1987 نظرا لوجود أعضاء في الفريق من جنسيات أخرى غير الجنسية الفرنسية (الجزائر، بلجيكا، كندا، اسبانيا، اليونان، ايطاليا، اليابان، لبنان، المكسيك، سويسرا، تونس، تركيا). وفي سنة 1995، أصبحت نشرة الجمعية التي تحوّلت إلى مجلة علم النّفس الإكلينيكي والإسقاطي، مرجعا رئيسا في علم النفس الإكلينيكي والإسقاطي في الوسط الفرانكفوني الذي وجد صدى حيويا كبيرا وشاع استخدامه في باقي البحر الأبيض المتوسّط (Chabert& Verdon, 2018, pp. 125, 127).

إلّا أنّه ورغم هذا الاستخدام الواسع الذي جاء متأخّرا، تجدر الإشارة إلى تاريخ انتشار اختبار الروشاخ قبل هذا النّجاح، حيث لقي هذا الأخير معارضة شديدة من طرف الكثيرين، خاصّة في الولايات المتّحدة الأمريكية، وهذا بعدما شكّك علماء النّفس الأكاديميون وعلماء القياس النّفسي في قيمته نتيجة افتقاره للضّبط العلمي، ووُجّهت له انتقادات مختلفة بلغت حدّ الازدراء حينما وُصف تطبيقه بـــ " عبادة الروشاخ" (Rorschach cult). ولقد انتقد ستيرن Stern رئيس الجمعية الألمانية لعلم النّفس الاختبار بقوله: «إنّ هذا الاختبار هو محاولة فاشلة لاستشفاف خصائص الشّخصية، فهذه الخصائص غير ممكنة الفهم عن طريق هذا الاختبار» (عدوان، 2012، ص95). وهكذا لم يلق الاختبار أي اهتمام أو تشجيع حتى تُوفّي واضعه بعد أقلّ من سنة من نشره، ولئن كان هيرمان روشاخ Hermann Rorschach قد نجح في تجاوز بعض وجهات النّظر التّي أثارها معارضوه في حياته، فإنّه لم ير نجاح اختباره وأوّل بوادر

قبوله من طرف المختصّين الكبار. واستمرّ الحال على ما هو عليه وظلّ الاختبار لسنوات مقصورا على فئة قليلة من أطبّاء الأمراض العقلية والمختصّين النّفسيين السويسريين الذين آمنوا بهذا العمل وقاموا بتطبيق لاختبار وتدريب بعض تلاميذهم على تطبيقه (عدوان، 2012، ص96).

وبعد عشر سنوات من وفاة هيرمان روشاخ Hermann Rorschach بدأ اختباره في الانتشار تدريجيا إلى باقي أرجاء العالم، ففي سنة 1932 أضاف المختصّ السّويسري Binder الاستجابات الواضحة- الغامضة (Clob) إلى التّسميات التّي كانت موجودة سابقا. أمّا صامويل بيك Samuel Beck فقد قدّم هذا الاختبار إلى الولايات الأمريكية المتّحدة، حيث بدأ تبادل "بحوث الروشاخ' (Rorschach research exchange) (أصبحت فيما بعد Journal of Projective" Techniques and Personality Assesment") سنة 1936. وأسّس بعده كلوبفر Klopfer معهد الروشاخ في نيويورك سنة 1939، وترأّس المدرسة الأمريكية التّي قامت بقلب وإعادة تفسير الاختبار. وبفضل مارغريتلوسلي –أستري Marguerite Loosli-Usteri وتلميذتها نيلا كافيني Nella Canivet، وكذلك أندري أمبردان André Ombredane المترجم الفرنسي لـــ "Psychodiagnostik"، وسيسيل بيزمان Cécile Beizmann شهد الاختبار نموّا هائلا في الدّول الفرنكوفونية بعد الحرب العالمية الثّانية (Anzieu& Chabert, 2015, p. 56). ولم يشهد العالم الاعتراف الكبير بنبوغ وعبقرية هيرمان روشاخ Hermann Rorschach إلاّ بعدما خصّصت الجمعية السّويسرية لعلم النّفس مؤتمرها المنعقد سنة 1943 لدراسة أعماله، وكان من أهمّ التّوصيات التي خرج بها المؤتمر هو تحويل المختبر الذي عمل فيه هيرمان روشاخ Hermann Rorschach إلى معهد عالي متخصّص لتدريس اختباره وطرق تطبيقه (عدوان، 2012، ص96).

2.4. 1. انتشار اختبار الروشاخ في الجزائر:

تعتبر الأستاذة بنونيش سامية أوّل من رسّخ تدريس وتطبيق اختبار الرّوشاخ في الجزائر بعد البدايات الأولى المتخبّطة قبل إصلاح التّعليم العالي في عهد وزير التعليم العالي آنذاك محمد الصديق بن يحيى. هذه الأستاذة -التّي يشهد لها مدير مركز أبحاث الطّبعة والتّطبيق النّفسي(CREAPSY) الأستاذ آيت سيدهم خالد على صرامتها وحسّها الإكلينيكي وكفاءاتها

البيداغوجية- كانت تلميذة نينا روش دو تروبنبارغ Nina Rauch de Traubenberg، وقامت بمشاركة شغفها لهذا الاختبار مع جميع أجيال الإكلينيكيين الذين خلفوا بعضهم البعض في جامعة الجزائر العاصمة منذ سنة 1967 إلى غاية ظهور التّعريب الكامل للتخصّص.

ومع ذلك، عرفت هذه الحركة عائقا موضوعيا في تطبيق هذا الاختبار، ففي الوقت الذي تقدّمت فيه الأعمال الغربية كثيرا في ذلك، عرفت المحاولات الأولى في الجزائر بعض العقبات (الموضوعية)، ذلك أنّه خلال الفترة التّي سبقت سنة 1998، كان من المستحيل الحصول على لوحات الاختبار في الجزائر. ولم يحصل عليها إلاّ عدد قليل من المختصّين النّفسيّين الذين أتيحت لهم فرصة السّفر إلى الخارج. ويعتبر الحماس الشّديد لهذا الاختبار الإسقاطي حديث ويرجع الفضل في ذلك إلى ظهور حدثين اثنين شجّعا على انتشاره الواسع في الجزائر.

يكمن الحدث الأوّل في إنشاء شهادة التّكوين في الاختبارات الإسقاطية سنة 1990 على مستوى الجمعية الجزائرية للبحث في علم النّفس (S.A.R.P). ومن خلال النّتائج المباشرة لتطوير أنشطة فريق البحث للأستاذ آيت سيدهم خالد في جامعة الجزائر العاصمة. حيث قرّر هذا الأخير رفقة أعضاء فريقه البحثي إعادة إنتاج (Reproduire) شهادة التّكوين الخاصّة بالاختبارات الإسقاطية لمدرسة باريس 5 (Paris V) مع بعض التّعديلات. فتابع أكثر من 250 مختصّ نفسي هذا التّكوين منذ سنة 1990 إلى غاية سنة 2000، ومن بينهم نجد حاليا عددا كبيرا من المدرّسين الذين يضمنون تغطية واسعة لتدريس هذا الاختبار في جميع أنحاء التّراب الوطني (Rausch de Traubenberg, 2015, pp. 06-07)، ليتواصل النّشاط المكثّف لهذه الجمعية خلال السّنوات الأولى خاصّة عندما قام بعض أعضائها بتوسيع فضاءات الأعمال وإثرائها بإنشاء جمعية علم النّفس للجزائر العاصمة (APA) منذ سنة 1993، برئاسة سي موسي عبد الرحمان، والتّي عرفت تقدّما واضحا في نشاطاتها البحثية حول اختبار الروشاخ (بالإضافة إلى اختبار تفهّم الموضوع (TAT)) في المجتمع الجزائري إلى جانب بحوث جامعية لتحضير شهادة الماجستير والدكتوراه (سي موسي وبن خليفة، 2010، ص17).

أمّا الحدث الثّاني فيكمن في إنشاء مركز أبحاث الطّبعة والتّطبيق النّفسي (CREAPSY) سنة 1998، وبفضله أصبح توافر مادّة الاختبار ممكنا في الجزائر، حيث تمّ انتشار أكثر من

3000 نسخة من لوحاته في الجزائر منذ إنشاء هذا المركز (Rausch de Traubenberg, 2015, p. 07).

وبالموازاة مع نشاطات كلّ من جمعيتي (S.A.R.P) و(APA) في مجال الإسقاطيات، واصل مكتب المساعدة النّفسية للطّلبة (BAPE) بجامعة الجزائر نشاطاته متّخذا الأدوات الإسقاطية (اختبار الروشاخ وTAT) كوسائل لتشخيص التّوظيف النّفسي للأفراد الذين يتقدّمون إلى الاستشارة النّفسية أو المتابعة العلاجية. ليصبح هذا المكتب بعد سنوات يدعى بـــ "مركز المساعدة النّفسية الجامعية" (CAPU) تحت رئاسة السّيدة سامعي حدادي دليلة منذ 1998، التّي واصلت مع فرقتها اهتمامها بتطبيق الاختبارين خاصّة في الحقل السّيكوسوماتي (سي موسي وبن خليفة، 2010، ص ص17-18).

وهكذا وبفضل هذه الأعمال الجادّة والمتواصلة، أصبحت ممارسة اختبار الرّوشاخ اليوم حقيقة مشتركة على نطاق واسع في الممارسة والبحث في علم النّفس العيادي في الجزائر، حتّى أصبح الفحص النّفسي يُختزل في الثّلاثية "مقابلة عيادية- اختبار الرّوشاخ- اختبار TAT" أمرا مسلّما به (Rausch de Traubenberg, 2015, p. 07).

3.4. وصف اختبار الروشاخ:

يعتبر اختبار الروشاخ أوّل محاولة منظّمة لاستخدام مثل هذه الطّريقة بهدف الكشف عن الحياة النّفسية العميقة للفرد. ولعلّ الفكر العميق الذي تميّز به هيرمان روشاخ Hermann Rorschach واهتمامه بالفنون التّشكيلية والجمالية بنفس اهتمامه بالطّب العقلي والبقع، ساعده على وضع اختبار قويّ يوفّر قدرا كبيرا من المعلومات حول العمل النّفسي ومدى قدرة الفرد على التّكيف أو حول مختلف التّكوينات السّيكوباتولوجية (Chabert, 1997, p. XII).

يقوم الاختبار على أساس وجود علاقة بين الإدراك(La perception) والإسقاط (La projection) في آن واحد كقطبين في التّوظيف النّفسي للشّخصية. فإدراك الفرد لبقع الحبر، يعكس طبيعة وظائفه السّيكولوجية. هذه الأداة تضع المفحوص في وضعية شبيهة بوضعية التّحليل النّفسي، ويجيب المفحوص من خلالها بواسطة الاختبار الإسقاطي مشكّلا علاقة ثلاثية (فاحص/اختبار/مفحوص) بدلا من العلاقة الثّنائية (Anzieu& Chabert, 2015, p. 23).

يتكوّن اختبار الرّوشاخ من عشر لوحات[7] وُضعت وفقا لممارسة يمكن وصفها بأنّها عالمية (Universelle) نظرا لانتشارها الواسع في ثقافات مختلفة. وتتمثّل هذه اللّوحات في إسقاط الحبر على ورقة مطوية ومفتوحة تُتيح ظهور صورة بدون شكل محدّد (Roman, 2016, p. 104).

لقد تجاوزت نينا غوش دو تروبنبارغ Nina Rauch de Traubenberg الوصف العام والشّكلي للوحات الاختبار العشرة، فاقترحت وصفا دقيقا ومفصّلا لبقعها من ثلاث جوانب تمثّلت في: خصائصها الإدراكية، الانطباع الانفعالي الذي تثيره لدى المفحوص، والمعاني الرّمزية الخفيّة المفضّلة (بن خليفة، 2007، ص107).

تتعلّق الخصائص الإدراكية بالبنية الموضوعية الشّكلية التّي تتألّف منها البقعة من حيث التحامها (Compacte) وانغلاقها (اللّوحة IV،V، VI) مع وجود فتحات بها (اللّوحة I،IX) أو انفتاحها وانقسامها (اللّوحة X، VIII، VII، III، II)،من حيث تناظرها الواضح بعيدا عن المحور غير المميّز (اللّوحة II، III، VII، VIII)، أو تراكمها وتوحّدها حول محور وسطي واضح (اللّوحة I، IV، V، VI، IX). وبمراعاة هذه الخصائص الشّكلية يُفتح المجال للوصف المدقّق لكلّ لوحة ممّا يعطي لكلّ واحدة منها تميّزها. تتدخّل بعد ذلك الألوان لتزيد في تميّز تلك البقع وتثير الانطباع الانفعالي والعاطفي لدى الفرد وفقا لطبيعة اللّون الخاصّ بكلّ بقعة، سواء من حيث أنّها غير ملوّنة (لوحات رمادية وسوداء: I،IV، V،VI،VII) أو متنوّعة الألوان (لوحتان بالأسود والأحمر: II،III، وثلاث لوحات ذات ألوان متنوّعة:VIII،IX،X) (بن خليفة، 2007، ص ص107، 110).

أمّا فيما يخصّ التّناول الرّمزي للّوحات فيتعلّق الأمر بنوع من الالتقاء بين إجابات المفحوص والمعنى الخفيّ للّوحة، حيث يمكّننا من استخلاص "التّوافق المتناغم بين المحتوى الظّاهري للمنبّه والمحتوى الكامن للإجابة". وفي هذا الصّدد تستثير كلّ لوحة معنى خاصّا بها من حيث الوظيفة التي تؤدّيها لدى الفرد والتّي تُناسب مستوى توظيفه النّفسي سواء على المستوى النّكوصي الأوّلي أو على مستوى أعلى ثانوي تكيّفي. وقد أبدعت نينا غوش دو

[7] مصطلح "اللّوحة" (Planche) هو المصطلح الأكثر تداولا واستخداما عند الباحثين والممارسين العياديين، ومع ذلك يقترح رومان (Roman 2016, p. 104) مصطلح "البطاقة" (Carte) أثناء الممارسة مع الأطفال، حيثه يرى بأنّه المصطلح الأنسب مع هذه الفئة، لأنّه أقلّ تعدّدا للمعاني وأكثر وضوحا من مصطلح "اللّوحة".

تروبنبارغ Nina Rauch de Traubenberg في تفصيل الوظائف الرّمزية التي تذكّر بها كلّ لوحة وفقا لنمط التّناول الفردي لدى كلّ شخص (بن خليفة، 2007، ص110).

كلّ هذه اللّوحات تحمل محتوى ظاهري (Contenu manifeste) وهو ما يظهر موضوعيا في اللّوحات، ومحتوى كامن (Contenu latent) هو ما يكوّن مضمون الاسقاط (Andronikof, 2008, p. 04). ولقد قدّمت نينا غوش دو تروبنبارغ Nina Rauch de Traubenberg (1970-1990) تحليلا وصفيّا للمادّة في تحديث (La mise à jour) القيم الإدراكية لكلّ لوحة. وانطلاقا من هذه الخصائص الإدراكية يدعو مفهوم المحتوى الظّاهري إلى تداعيات أخرى، لاسيما المتعلّقة بالواقع الإدراكي، الاجتماعي، الدّاخلي، والتّكيّفي. كما يدعّم كلّ من التّنظيم الإدراكي (Organisation perceptive)، ووجود عناصر لا لونية كروماتيكية (Chromatiques) بعدين أساسيين للمنبّه، ليشمل المحتوى الظّاهري بذلك بعدين أساسيين هما: البعد البنيوي (Dimension structurale) الذي يتعلّق بالبناء الشّكلي للبقعة (داكنة، مغلقة، ثنائية، مفتوحة)، والبعد الحسّي (Dimension sensorielle) المرتبط باللّون (لوحات سوداء، رمادية، سوداء/ حمراء، باستل (Pastel)) (Chabert, 1998, pp. 48-49).

يستثير البعد البنيوي الجانب الإدراكي المعرفي أي الجانب العقلي. حيث تأخذ اللّوحة (I، IV، V، VI، IX) ألوانا داكنة تعزّز إسقاط الصّور وتساهم في جانب إدراكي شامل وموحّد، يعيد إلى تمثيل الذّات الذي يرتبط مباشرة بمفهوم الهويّة، موحّدة كانت أو مشوّشة. ميزة هذه اللّوحات أنّها تمثّل شكلا من أشكال اختبار الحدود بين الدّاخل والخارج، وبين الذّات والآخر، مبرزة قدرة الفرد على تمثيل نفسه كوحدة كلّية من خلال صورة جسم مميّزة ومحددّة في انتمائها الذّاتي. ومن خلال هذه الاستعارات الجسمية، يمنح الشّخص لنفسه مساحة نفسية خاصّة، وعالم داخلي مُختبر كواقع شخصي خاص.

أمّا اللّوحة (II، III، VII) فتتشكّل في ترتيب متناظر، وتثير تمثّلات العلاقة بطرق أكثر تنوّعا، إمّا مدعومة أساسا بتعبير نرجسي، أو بشكل متصارع بسبب حركات موضوعية ليبيدية و/ أو عدوانية.

أمّا اللّوحة (VIII) فهي لوحة خاصّة، لأنّها من جهة داكنة، ومن جهة أخرى تحتوي على ألوان باهتة (Pastel)، كما ترتبط بالمرجعية إلى تمثيل الذّات وتمثيل العلاقة.

تعتبر اللّوحة (X) أيضا لوحة خاصّة، لأنّها جدّ مبعثرة (Eparpillée)، وتأخذ البقع المختلفة كلّ مساحة اللّوحة مع خاصّية مزدوجة تشير في نفس الوقت إلى تقسيم واتّصال بين الأجزاء المختلفة. تكتسي هذه اللّوحة عدّة ألوان، كما أنّها آخر لوحة في الاختبار (Chabert, 1998, pp. 49-50).

أمّا فيما يخصّ البعد الحسّي، فيفسح هذا الأخير المجال للتّعبير الحسّي العاطفي نظرا لتعلّقه بالطّابع اللّوني. تسمّى اللّوحة (I،IV،V،VI) باللّوحات السّوداء. ويعتبر ارتباط اللون الرّمادي/ الأسود والخلفية البيضاء التّي تبرز عليها أمرا جدّ حاسما عند بعض الأشخاص الحسّاسين للجانب المظلم الذي يشير بشكل مباشر إلى مشاعر القلق أو الاكتئاب.

تجمع اللّوحة (II، III) المسمّاة بـــ " الحمراء"، بين التّنظيم الثّنائي وظهور اللّون الأحمر، وهذا ما يحفّز ظهور حركات نزوية مُدمجة أو غير مُدمجة في سيناريوهات علائقية جنسية و/ أو عدوانية. حيث يدعو اللّون الأحمر إلى مشاعر قويّة وأحيانا عنيفة.

وتشغل اللّوحة (VIII، IX، X) حركات نكوصية مرتبطة بمحتوى الألوان السّابقة وبالتّحولات التّدريجية المرتبطة بالتّمرير. أمّا اللّوحة (VII) فهي فريدة من نوعها لأنّها ذات لون رمادي فاتح ومفتوحة على مساحة بيضاء كبيرة. وقد يكون هذا الشّكل المجوّف هو أصل تداعيات كامنة مميّزة لأنوثة أمومية (Chabert, 1998, p. 50).

كان هذا فيما يخصّ المحتوى الظّاهري للوحات الاختبار ببعديها البنيوي والحسّي. أمّا المحتوى الكامن للّوحات، فهو محتوى يخصّ الجانب التّصوّري الذي يشير إلى المجهود التّخيّلي للفرد من خلال "الكلمات- الصّور" (Les mots-images) التّي يعبّر بها الفرد عن مواضيع مختلفة تتعلّق بانشغالاته وصراعاته ومعاناته ورغباته. تكرار هذه المواضيع من شأنه أن يساعد على استخلاص الالتماسات الهوامية والرّمزية التي تثيرها البقع، حيث يتكوّن محتوى البروتوكولات المقدّمة لاختبار الرّوشاخ من مادّة لفظية تهيمن فيها العبارات وهي: سلسلة من الصّور، صور ثابتة، أو سيناريوهات متحرّكة تثيرها اللّغة في نظام من الكلمات الدّالة، وهو ما يسمح بالانتقال من بقعة حبر إلى تمثّل ليس فقط حسّي ولكن محدّد بموضوع (Chabert, 1998, pp. 50-51).

لقد برز مجموعة من العلماء في تحليل لوحات الرّوشاخ وتفسيرها تفسيرات رمزيّا بداية من هيرمان روشاخ Hermann Rorschach نفسه، فرونسواز ميكوفسكا Françoise Minkowska، ميريام أور Myriam Orr، روي شافير Roy Schafer، ميراي مونود Mireille Monode، ديدي أنزيو Didir Anzieu، روبيرت. س Robert. S، ماك كيلي Mac Cully، وصولا إلى نينا غوش دو تروبنبارغ Nina Rauch de Traubenberg. ومع ذلك لم يتم استخدام هذه التّفسيرات المختلفة التّي طوّرها هؤلاء الباحثون بطريقة جامدة، ممّا أدى إلى تجنّب أساس الإنتاجات في الرّوشاخ، أي البعد التّرابطي (Dimension associative). وفي هذا الشّأن تقول نينا غوش دو تروبنبارغ Nina Rauch de Traubenberg أنّ ما يهمّ هو ليس فقط "محتوى ما يُقال"، ولكن أيضا "كيف يقال". ذلك أنّ تحليل مكوّنات الإجابة وعلاقتها مع ما يسبقها وما يليها في استمرارية خطاب المفحوص هي عوامل أساسية لتفسير المحتوى. مثل الحلم الذي لا يمكن تفسيره من المحتوى الظّاهري للقصّة ومن مجموعة منظّمة من التّكافؤات الرّمزية، لا يمكن أن تنبثق التّداعيات الكامنة للرّوشاخ من شبكة تطابقات متّفق عليها (Chabert, 1998, p. 51).

استخلصت كاترين شابير Catherine Chabert انطلاقا من التّناولات الرّمزية السّابقة، الطّابع الإنقطاعي للمعاني الكامنة للاختبار، وهذا ما يبرّر احترام التّذبذبات التّي تقدّمها البقع لاختبار البناء النّفسي للفرد من حيث مجموعة من المؤشّرات هي: التّكرار والإبداع، الحركة والثّبات، وأخيرا التّقدم والرّجوع إلى الوراء. ولقد حاولت كاترين شابير Catherine Chabert انطلاقا من هذا الرّجوع إلى المستويين "المتطوّر" (Evolué) و"القديم" (Archaïque) لكلّ لوحة، استخراج نوع الإشكاليات ومستويات الصّراع عند كلّ فرد، مركّزة على اتّجاهين مزدوجين لتصوّره لتحليل المحتوى الباطني للوحات الاختبار، ويتمثّلان في:

- تصوّر الذّات الذي يشير إلى القدرة على التّمييز بين الفرد والموضوع (موظّفة في لوحات تُذكّر بإشكالية الهويّة مثل اللّوحة: I، V، VI)، والقدرة على التّمايز الجنسي (في لوحات تثير أكثر إشكالية التّقمّص مثل اللّوحة، II، III،IV، VI، VII، IX).

- تصوّر العلاقات، ويتعلّق بسجّل الصّراع ومستويات النّمو اللّيبيدي التّي تُذكر يه اللّوحات الخاصّة بذلك (II، III،VII، IX، X)، بالإضافة إلى الإعدادات الدّفاعية التّي تُحفّزها للتّعامل مع الوضعيات الصّراعية (بن خليفة، 2007، ص111).

4.4. طريقة تطبيق اختبار الروشاخ:

يتطلّب تطبيق اختبار الرّوشاخ مجموعة من الشّروط والظّروف تتعلّق التّي بكلّ من المادّة والتّعليمة والفاحص. فمن الضّروري أن يُظهر الفاحص اهتمامه الشّخصي واستعداده لإجراء الاختبار في جوّ يسوده الهدوء والثّقة التّي تكون نابعة من طبيعة طلب الفحص الذي لا يجب أن يكون مقتصرا فقط على تطبيق الاختبار، فحتّى ولو تعلّق الطّلب فقط بهذا الاختبار، يجب أن يكون تطبيقه مسبوقا بالمقابلات العيادية أو الرّسومات أو اختبارات أخرى من أجل تكوين اتّصال قويّ وفعّال. ويختلف استثمار الوضعية الإسقاطية حسب أهداف ودوافع الاستشارة النّفسية (Rausch de Traubenberg, 2015, p.15).

كما تّعتبر تهيئة المفحوص لإجراء الاختبار من الأمور المهمّة التي يجب على الفاحص مراعاتها لتحقيق تعاونه دون تخوّف وارتياب، وتحقيقا لذلك يحرص الفاحص أن يكون المفحوص في حالة طبيعية مشابهة لحالته الاعتيادية اليومية (عدوان، 2012، ص107). تختلف التّفسيرات التّي يقدّمها الفاحص لمفحوصه حسب سنّه، سيكوباتولوجيته، مستواه التّعليمي، كما يجب أن يوافق المفحوص على اجتياز الاختبار (Anzieu& Chabert, 2015, p. 57). وعلى الفاحص كذلك أن يهيّئ جميع مستلزمات إجراء الاختبار من لوحات، ساعة صامتة (كرونوماتر)، ورق، قلم... فيضعها فوق المكتب قبل دخول المفحوص حرصا منه على تجنّب توتّره وارتكابه ممّا يخلق جوّا غير مشجّع قد يؤدّي إلى استجابات غير طبيعية (عدوان، 2012، ص107).

يُفضَّل جلوس المفحوص على يسار الفاحص وأمامه قليلا، وهي الوضعية الأكثر شيوعا أثناء الممارسة، لأنّها تّسهّل ملاحظة جميع سلوكيات المفحوص وردود أفعاله. تُوضع اللّوحات العشرة مقلوبة فوق مكتب الفاحص، وتُقدّم للمفحوص الواحدة تلوى الأخرى وفق ترتيب محدّد، وبعد إلقاء تعليمة الاختبار يُطلب منه أن يتحدّث عن كلّ ما يراه، مع تشغيل "الكرونوماتر" لتسجيل زمن كل استجابة، ويستحسن أن يكون هذا الأخير بعيدا عن مجال رؤية المفحوص (Rausch de Traubenberg, 2015, p. 16).

- تعليمة الاختبار (La consigne du test):

عن طريق إلقاء تعليمة الاختبار، يطلب الفاحص من المفحوص أن يُدلي بما يراه من خلال مادة الاختبار (بقع الحبر). ولقد تفاوتت التّعليمة من حيث طولها وقصرها من باحث إلى آخر، وهي تتأرجح بين خمس كلمات وعشرة أسطر كاملة. فإذا كانت تعليمة الروشاخ الأصلية (الأولى) والأكثر شيوعا هي بسيطة ومختصرة: "ماذا يمكن أن يكون هذا؟" (Qu'est-ce que cela pourrait être ?) فإنّنا نجد تعليمة ألكوك Alcock أكثر طولا (Rausch de Traubenberg, 2015, p.16). ولقد ذكرت نينا غوش دو تروبنبارغ Nina Rauch de Traubenberg بعض مواصفات التّعليمة كأن تكون غير موجّهة مباشرة للمفحوص (Impersonnelle) أي مبنية للمجهول، ومقدّمة بصيغة شرطية (Conditionnel): "ما يُطلب منك قوله، هو كلّ ما يُمكن ملاحظته في هذه البقع" (Ce qu'on vous demande de dire, c'est tout ce qu'on pourrait voir dans ces taches)، ومع أقلّ توضيحات ممكنة وذلك لضمان الموضوعية والحياد (Anzieu& Chabert, 2015, p. 57) وفي حال ما إذ بدا أنّ هذا الحياد يثبط المفحوص، يصبح من الممكن الدّخول مباشرة في الوضعية، والقول بأنّ الوقت هو متاح، وأنّه لا توجد إجابات خاطئة مع العمل على تشجيعه بشكل فعّال.

وفي المقابل تُضفي كاترين شابير Catherine Chabert بعض النّسبية على مفهوم الحياد، حيث لا يمكن لهذا الأخير أن يكون مطلقا خصوصا في الوضعية الإسقاطية، وفي إطار ما أسمته "الحياد الرّفيق"[8] (Neutralité bienveillante) اقترحت كاترين شابير Catherine Chabert التّعليمة التّالية: "سأريك عشر لوحات، قل لي ما الذي تجعلك تفكّر فيه؟ وما تستطيع أن تتخيّله

[8] تدافع شابير Chabert (1997, p. 24) عن هذا المفهوم، وتؤكّد على ضرورة استخدامه بنوع من الجدّية بالرّجوع إلى مصادره الأولى، حيث تقول: «يبدومن المفيد لنا أن نعود إلى هذا المفهوم الأساسي الذّي قدّمه سيجموند فرويد Sigmund Freud، بقدر ما يكون هذا المفهوم المعروف جدّا، مشوّها بالنّسبة لمعناه الأصلي، وهذا ما يؤدّي عند البعض إلى مواقف كاريكاتورية (Caricaturales) أو مخاوف غير مبرّرة فيما يتعلّق بالإجراءات المطلوبة أمام الفرد أثناء تمرير الإختبار ». وتذكّر كاترين شابير Catherine Chabert بتعريفه الكلاسيكي كما جاء في لابلانش وبونتاليس La planche et Pontalis (1967, p. 266):« الحياد= إحدى الصّفات التّي تحدّد موقف التّحليل في العلاج (نحن من نؤكّد). يجب أن يكون التّحليل حياديا فيما يتعلّق بالقيم الدّينية والأخلاقية والإجتماعية، أي عدم توجيه العلاج وفقا لأي مثال (Un idéal) والامتناع عن تقديم أي نصيحة، حيادي أن ننظر إلى مظاهر التّحويل (Transfert)، وهو ما نعبّر عنه عموما بالصّيغة: " عدم الدّخول في لعب المريض" (Ne pas pénétrer dans le jeu du patient)، أخيرا، حيادي، فيما يتعلّق بخطاب المحلَّل (L'analysé)، أي عدم تقديم أحكام مسبقة نظرية، كجزء أو كنوع من المعنى».

انطلاقا من هذه اللوحات؟" (Je vais vous montrer dix planches et vous me dites tout ce qui vous viendra par la tête, et à quoi vous font-elles penser ?) (بن خليفة، 2007، ص113).

يبدو واضحا أنّ هذه التّعليمة تشمل ثلاثة عناصر أثناء الموقف الإسقاطي وهي: الفاحص من خلال "سأريك"، المادّة محدّدة في "عشر لوحات"، والمفحوص من خلال "الإدراك/الإسقاط" وهو ما يشير إلى جهده الفكري التّخيّلي.

عموما، إنّ الهدف من التّعليمة حسب نينا غوش دو تروبنبارغ Nina Rauch de Traubenberg هو تحفيز المفحوص على القيام بالاختبار، من خلال إعطائه الحرّية في التّعبير انطلاقا من مادّة الاختبار. هذه التّعليمة التي تترك للفرد أكبر قدر من الحرّية، هي في نفس الوقت إجبارا له (Liberté et contrainte) لأنّها تجعله محكوما بأن يكون حرّا أي أن "يكشف عن نفسه بنفسه"

(La consigne qui laisse au sujet la plus grande liberté, est en même temps pour lui une contrainte. Il est condamné à etre libre, c'est-à dire à se révéler lui-même) (Chabert, 1998, p. 34).

في أيّ حال، ومهما اختلفت صياغات التّعليمة، ينبغي على الفاحص أن يراعي التّعليمة التّي يستخدمها، وذلك حسب ردود الأفعال الخاصّة بكلّ مفحوص.

- التّعامل مع المادّة: يبدأ تعامل المفحوص مع مادّة الاختبار بتسليمه اللّوحة الأولى وإذنه بانطلاق المرحلة الأولى وهي تمرير اللّوحات للحصول على الإجابات التّلقائية.

- التّمرير التّلقائي (La passation spontanée):

تقتضي مرحلة التّمرير التّلقائي تسجيل أزمنة الاختبار (زمن الكمون، زمن الاستجابة، والزّمن الكلّي) في كلّ لوحة وفي الاختبار ككلّ. هذا بالإضافة إلى تردّدات واستفسارات المفحوص حول طريقة الاجتياز، وكذلك سلوكياته وإيماءاته إن وُجدت (Anzieu& Chabert, 2015, p. 60).

- التّحقيق (L'enquête):

بعد الانتهاء من تمرير اللّوحات، تأتي مرحلة مهمّة جدّا وهي مرحلة التّحقيق، وذلك بالرّجوع إلى كلّ إجابة قدّمها المفحوص، من حيث موقعها (كلّ البقعة، أو جزء منها، أو جزء

من جزئها)، محدّداتها (اللّونية، الشّكلية، الحركية، الظّلية...)، محتواها (انسانية، حيوانية، نباتية، تشريحية، جغرافية، جنسية، مجرّدة...).

يمكن الاستغناء عن هذه المرحلة (التّحقيق) في حال وجود إجابات واضحة، إلاّ أنّ هذا ناذرا ما يكون. ومهما يكن فإنّ الفائدة من التّحقيق هي تسهيل عملية تنقيط الإجابات، وهو مرحلة ضرورية، من خلالها يحصل الفاحص من المفحوص على جهد استبطان (Introspection) وتحليل لما حدث في داخله لحظة الإجابة دون إبداء أيّ اقتراحات (Rausch de Traubenberg, 2015, p. 20-21).

يمكن بعد ذلك، وفي بعض الحالات النّاذرة استكمال هذا التّحقيق غير الموجّه (Non directif) بتحقيق آخر موجّه يسمّى بـــ "تحقيق الحدود" (Enquête des limites)، وقد اقترحه كلوبفر Klopfer (1942) لاستخراج ردود الأفعال التّي يتجنّبها المفحوص، أو في حالة غياب الإجابات الشّائعة التي يُفترض ظهورها عند عامّة الأفراد مثل "الخفّاش" في اللّوحة V، أو" الأشخاص" في اللّوحة III، أو في حالات أخرى لا يعطي فيها المفحوص استجابات موقعية أو محدّدات لونية أو حركية مهمّة. ويمكن صياغة الأسئلة على نحو ثلاثة أشكال: استدعاء غير مباشر للبيانات غير المستخدمة، أو إعطاء بقعة دقيقة لتحديدها، أو أخيرا اقتراح مصطلح دقيق ثمّ طلب توضيح حوله (Rausch de Traubenberg, 2015, p.23).

- اختبار الاختيارات (Choix préférentiel):

ينتهي الاختبار بهذه المرحلة الأخيرة التّي تكون على شكل اختيار تفضيلي للّوحات، حيث يطلب الفاحص من المفحوص أن يختار لوحتين يفضّلهما أو تعجبانه أكثر من بين اللّوحات العشرة، ثم لوحتين لم يفضّلهما أو لم تعجبانه. هذه العملية تعتبر فرصة للمفحوص لكي يعبّر بصفة شفّافة ومكثّفة عن إشكالياته المفضّلة وسيره النّفسي، بالإضافة إلى اهتماماته وعواطفه الإيجابية والسّلبية، مستدركا مواضيعه من خلال بناء اختياراته بكلّ حرّية (سي موسي وبن خليفة، 2010، ص ص163-164)، كما تُعتبر هذه الاختيارات مؤشّرا يُضاف إليه المواقف القمعية (répressives) أو الحساسية العاطفية للأفراد، تكون الاختيارات على أساس المواقف العاطفية – الخوف أو الفرح- أو على أساس تداعيات محدّدة – الأب، الأمّ- خاصّة بالنّسبة للأطفال (Rausch de Traubenberg, 2015, p.23-24).

5.4. شبكة تحليل اختبار الروشاخ:

تُعتبر "إجابة الرّوشاخ" كلّ "وحدة" ((Unité) من خطاب المفحوص) محدّدة بشكل كاف في دينامية التّعبير اللّفظي (Roman, 2016. p. 10). وتُصبح هذه الإجابة قابلة للّتنقيط فقط إذا كانت قابلة للتقييم من حيث أربع مستويات:

- نمط الإدراك (Mode d'appréhension): ويشير إلى طريقة تناول البقعة من حيث موقعها (Localisation): إجابة كلّية أو جزئية.
- المحدّدات (Les déterminants): هي محرّكات الإجابة من حيث الشّكل، الحركة، واللّون.
- المحتويات (Contenus): تأتي في صور تدلّ على خيال المفحوص من حيث ثرائه أو فقره، وتكون إنسانية، حيوانية، نباتية...الخ.
- طبيعة الإجابة (الشّيوع أو الابتكار) (Rausch de Traubenberg, 2015, p.31).

يبعث كلّ معيار من هذه المعايير الثّلاثة الأولى إلى تفسيرات متنوّعة تعبّر عن مختلف نماذج التّوظيف النّفسي.

يتمّ جمع البيانات النّاتجة عن عملية التّنقيط في جدول يسمّى المخطّط النّفسي (Psychogramme). يسمح هذا الأخير بقراءة أوّلية لديناميكية بروتوكول الرّوشاخ، وتؤخذ بعين الاعتبار هذه الدّيناميكية في المنظور الخارجي والدّاخلي للّوحات (Intra et interplanches) (سلسلة متّصلة من الإجابات التّي يتم انتاجها على لوحة معيّنة، والتّعبير الخطابي من لوحة إلى لوحة)، ومن منظور تقييم "الاستمرارية الاسقاطية" الذي يعكس نوعية واستمرارية سيرورة التّمثّلات، وهو ما يساعد على تحديد الإنتاج الإسقاطي، ووضع فرضية تشخيصية أوّلية حول التّوظيف النّفسي للمفحوص في مواجهته للّوحات (Roman, 2016. p. 10). يتضمّن المخطّط النّفسي للرّوشاخ جميع العوامل التّي تتدخّل في تنقيط الإجابات وعوامل أخرى خارج الإجابات تكون عادة على شكل تعليقات إضافية، وهي مستخلصة من البروتوكول الذي ينتجه المفحوص. وبذلك يعتبر المخطّط النّفسي نوعا من التّعبير لإجابات المفحوص من حيث اقترابها أو بعددها عن المتوسّط الذي يميّز أغلبية الأفراد (سي موسي وبن خليفة ،2010، ص 181).

عموما، يتمّ معالجة المعطيات الإسقاطية من ناحيتين:

- التّحليل الكمّي:

يتّم من خلال قراءة كمّية لجميع معطيات الرّوشاخ وذلك من حيث الإنتاجية، الزّمن المستغرق في الإجابة وكيفية توزيعه على اللّوحات، حالات الرّفض لبعض اللّوحات، والإجابات الإضافية إن وجدت. هذه المعطيات تساعد على استخراج الملمح النّفسي العام (Le profile psychique général) وأخذ تصوّر عن الوضعية الإسقاطية وكيفية استثمارها من طرف المفحوص (سي موسي وبن خليفة ،2010، ص 184).

- التّحليل الكيفي: تشمل أول مرحلة منه تحليل السّياقات المعرفية[9] انطلاقا من التّفسير والتّحليل الدّقيقين لمختلف المعايير المذكورة سابقا، مع دراسة ارتباطاتها الدّينامكية وتوزيعها أو تتابعها في البروتوكول، بالإضافة إلى نوعية ارتباطها بالمحدّدات، إلى جانب أنماط الإدراك، ونسبة الإجابات الحيوانية (A٪) والشّائعة (Ban) التّي تساعد على استخراج نوعية السّياقات الدّفاعية المعرفية في تناول الواقع والمواضيع.

وتشمل المرحلة الثّانية من التّحليل الكيفي دراسة الدّينامية الصّراعية التّي يُعبّر عنها بـــ:

- مركّبات نمط الصّدى الحميم (Type de résonance intime): تتمثّل في الحركات الإنسانية وتكافئها مع مجموع الإجابات اللّونية.

- مركّبات الصّيغة المكمّلة[10] (Formule complémentaire)أو الثّانوية (Formule secondaire) وتتمثّل في دراسة العلاقة بين الحركات الصّغرى وإجابات الظّل، بالإضافة إلى نسبة الاستجابات اللّونية المعبر عنها (٪ RC) والتّي تدعّم تحليل نوعية الإجابات اللّونية (سي موسي وبن خليفة، 2010، ص ص 186-187).

---

[9] تفضل شابير Chabert (1997, p. 85) استبدال مصطلح "المعرفية" (Cognitive) بمصطلح عقلية (Intellectuelle)، لأنّه يبدو في نظرها أنّ هيرمان روشاخ Hermann Rorschach قد قدّم معلومات وفيرة حول أساليب المقاربة والاتصال بهدف معرفة العالم المحيط، لا سيما من خلال أنماط الإدراك (Les modes d'appréhension) التّي تعتبر ركيزة أساسية، وليس على الجوانب الأكثر عمومية وتعقيدا والمتأصّلة في الذّكاء (Intelligence). وانطلاقا من هذا الاعتبار سنتبنّى مصطلح "السياقات المعرفية" أثناء مرحلة التّحليل الكيفي فيما يتعلّق بأنماط الإدرك، لأنّ ذلك لا يقتصر على تحليل القدرات العقلية للمفحوص فحسب، وإنّما أيضا علاقته الضّرورية بأبعاد نفسية أخرى في سيرورة مهمّة للطّريقة التّي كما يقول، ديدي أنزيو Didier Azieu يتمّ من خلالها تأسيس إدراكه، التّواصل معة، وعلاقته بالعالم (Chabert, 1997, p. 85).

[10] تفضّل نينا غوش دو تروبنبارغ Nina Rauch de Traubenberg (2015, p. 166) المصطلح الأوّل، أي الصّيغة المكمّلة (Formule Complémentaire) عن المصطلح الثّاني الصّيغة الثّانوية (Formule secondaire) وهو المصطلح الذي سنعتمده أيضا في تحليل البرتوكول.

خلاصة الفصل:

يعتبر سيجموند فرويد Sigmund Freud من الأوائل الذين اهتمّوا بدراسة الجهاز النّفسي من وجهات نظر متعدّدة، وكان ذلك بهدف تبسيط التّعقيد الذّي يحمله مفهوم التّوظيف النّفسي ضمن نظريته السّيكودينامية التّي تشتمل على مفاهيم صارمة سمحت بإعادة النّظر في التّوجّهات السّابقة. فإلى جانب السّيرورات الشّعورية أعاد التّحليل النّفسي الاعتبار للسّيرورات اللاّشعورية وأكّد على دورها الكبير في تشكّل العرض، لتصبح السّيكوباتولوجية التّحليلية بذلك إحدى التّوجّهات المثمرة في المجال العيادي سواء السّيكاتري أو النّفسي. ولقد تطرّقنا في هذا الفصل إلى أهمّ العناصر التّي يرتكز عليها مفهوم التّوظيف النّفسي، وتجدر الإشارة في هذا الصّدد إلى أنّ كلّ ما تمّ التّطرق إليه في هذا الفصل لا يعتبر كافيا لبلوغ فهم شامل وعميق، ذلك أنّ الميتاسيكولوجيا الفرويدية مجال واسع وممتدّ يتضمّن العديد من الصّياغات التّحليلية، لا نستطيع حصرها كلّها كطبيعة القلق، والصّراع النّفسي، بالإضافة إلى العلاقة بالموضوع، دون أن ننس إسهامات العديد من المحلّلين النّفسيين في تناولهم لذلك انطلاقا من آراء سيجموند فرويد Sigmund Freud، كميلاني كلاين Melanie Klein، وأنا فرويد Anna Freud برؤيتهما الميتاسيكولوجية لفهم العلاقة بالموضوع، ودونالد وينيكوت Donald Winnicott باصطلاحه الشّهير حول الموضوع الانتقالي (Objet transitionnel) لشرح التّنظيمات الحدّية... وغيرهم من روّاد التّحليل النّفسي.

حيث يعتبر سيجموند فرويد Sigmund Freud من المرجعيات الأساسية لفهم الحياة اللّاشعورية التّي تكشف عن نفسها أثناء الوضعية الإسقاطية لاسيما من خلال اختبار الروشاخ، وهو المعنى الذي يبعث إليه مفهوم الإسقاط من منظور التّحليل النّفسي كميكانيزم دفاعي يستعمله الأنا للتّخلّص من فائض الاستثارات التّي تهدّده وتسيء إليه.

أخيرا نذكّر أنّه يبقى من المفيد الاطّلاع على الاتّجاهات التّحليلية العديدة لفهم مثل هذه المواضع العميقة التّي تجرفنا إليها تيارات التّحليل النّفسي.

الفصل الثالث

اضطراب الوسواس القهري

تمهيد

1. التّطـور التّاريخـي لاضطراب الوسـواس القهــري
2. مفهوم اضطراب الوسواس القهري
3. معطيات وبائية حول اضطراب الوسـواس القهـري
4. الأعراض الإكلينيكية لاضطراب الوسواس القهري
5. الأشكا،ل الإكلينيكية لاضطراب الوسواس القهـري
6. النّمـاذج التّفسيـرية لاضطراب الوسـواس القهـري
7. التّشخيـص الفارقي لاضطراب الوسـواس القهـري
8. تشخيـــص اضطــراب الوســـواس القهـــــري
9. عـــــلاج اضطـــراب الوســـواس القهـــــــري
10. مآل اضطراب الوسواس القهري

خلاصة الفصل

الفصـــل الثـــــالث

اضطراب الوسواس القهري

تمهيد:

أن يخاف الفرد من نشوب حريق أو انفجار في المنزل، وأن تُلحّ وتسيطر هذه الفكرة باستمرار على عقله لساعات طويلة، يسمّى "وساوس". ثمّ أن يهدر الفرد وقتا طويلا "ذهابا وإيابا" في التّحقّق من غلق حنفية الغاز لتحييد (Neutraliser) القلق النّاجم عن هذه الوساوس، يسمّى "قهرا".

في الواقع، لا يوجد شخص منّا لا تراوده وساوس وأفكار مزعجة وهو أمر طبيعي نختبره جميعا من حين لآخر. لكن هذه الأفكار عند المصاب باضطراب الوسواس القهري لها تفسير خاصّ. وذلك لأنّ الوساوس كما يرى بيار جانيه Pierre Janet لا تتميّز عن التّفكير العادي من خلال محتواها ولكن بشكل خاصّ من خلال طابعها المفرط، المتكرّر، المقلق، وغير المتحكّم فيه، ممّا يعرقل الحياة اليومية للفرد، فتبدأ حلقة مفرغة رهيبة بين الفكرة المتسلّطة والفعل القهري (منقوشي وكروم، 2021، ص273).

سيتناول هذا الفصل متغيّر الوسواس القهري، بداية بالوقوف على أهمّ المحطّات التّاريخية التّي مرّ بها المصطلح، ثمّ مفهومه، معطيات وبائية حوله، أعراضه وأشكاله الإكلينيكية، أهمّ النّماذج المفسّرة له، تشخيصه الفارقي ثمّ كيفية تشخيصه، طرق علاجه، مآله، وأخيرا خلاصة للفصل.

1. التّطور التّاريخي لاضطراب الوسواس القهري:

للوسواس القهري تاريخ قديم، حيث شهد تاريخ البشرية منذ القدم حالات وسواس قهري واضحة، وقد صف الطّبيب الرّوماني الشّهير جالينوس (Galen) تقريبا الوساوس، كما قدّم عددا من علماء العصور الإسلامية أوصافا مختلفة لهذا الاضطراب، ونجد من أبرزهم أبو زيد البلقي، وابن قدامة المقدسي الذي كتب رسالة تحت عنوان " ذم الموسوسين" (بوقفة، 2020، ص 104).

لقد وُصفت الوساوس والأفعال القهرية قبل فترة طويلة من تطوّر الطّب العقلي من طرف السّحرة والمشعوذين والعرّافين ورجال الدّين. ويذكر Malleus Maleficarum في " Traité

"de psychopathologie et d'étude de la sorcellerie (1486)، أنّه مع نهاية القرون الوسطى، تمّ إعدام رجل دين كان يتلفّظ بشتائم دينية ويقوم بحركات غير متوقّعة أثناء قيامه بالصّلاة (Tazi, 2018, p. 06).

وتعود بعض التّسجيلات المبكّرة لمظاهر الوسواس القهري إلى أحد أكثر السّلوكيات الوسواسية في الأدب الإنجليزي تحديدا في القرن السابع عشر، حيث وصف شيكسبير الوساوس من خلال شخصية "السّيدة ماكبت"، هذا بالإضافة إلى طقوس غسل اليدين المستمرّ نتيجة شعورها بالذّنب بعد قتل زوجها الملك "دنكان" (بوقفة، 2020، ص 104).

وقدّمت "دراسة الشّكوك" (Traité des scrupules) (1717)، التّي قام بها الكاهن Jacques-Joseph Duguet في بداية القرن الثّامن عشر، أوّل وصف منهجي باللّغة الفرنسية للوساوس من خلال تجربته كعرّاف لما نسمّيه اليوم بـــ "اضطراب الوسواس القهري"، واقترح طرق نفسية لتهدئة النّفوس المعذَّبة (Tazi, 2018, p. 06).

أمّا الوصف الدّقيق لهذا الاضطراب، فلم يأت إلاّ منذ قرابة المائة وسبعين سنة، حيث سمحت الدّراسات التّاريخية لظهور التّصنيف النّوزولوجي (Nosologique) لعصاب الوسواس (Névrose obsessionnelle) بالاعتراف به تحت مصطلح " جنون المنطق" (La folie raisonnante) عند بينال Pinel. وصنّفه اسكيرول Esquirol فيما بعد ضمن مجموعة الهوس الأحادي (Monomanie) التّي سُميت أيضا بـــ " الهذيانات الجزئية" (Les délires partiels)، وأطلق عليها تلاميذه فيما بعد بما فيهم: جورجيت Georget، مارك Marc، وبيلارجار Baillarger مصطلح "جنون الضّمير" (La folie avec conscience)، و"الجنون الواعي" (La folie lucide) عند تريلا Trélat.

وفي القرن التاسع عشر، صنّف Esquirol من خلال بحثه عن "الأمراض العقلية" (Les maladies mentales) ما نُسمّيه حاليا " وساوس" (Obsessions) في إطار "الهوس الأحادي العاطفي أو المنطقي" (Monomanies affectives ou raisonnantes).

وفي سنة 1875، قام Legrand du Saulle –أحد الأطبّاء السّيكاتريين- بوصف دقيق لبعض الأشكال الوسواسية، وجمعها تحت مصطلح " جنون الشّك مع هذيان اللّمس" (Folie du doute avec délire du toucher). ويُعتبر مورال Morel - أب المفهوم النّزوغرافي

(nosographique) للوسواس- أوّل من استخدم هذا المصطلح، وقام من خلال معارضته للهوس الأحادي رفقة فالري Falret بتحرير الوساوس واعتبارها متلازمة فردية بشكل واضح (Un syndrome clairement individualisé).

أمّا في ألمانيا، قام كلّ من كرافت إيبينج Kraft-Ebing (1867)، جريسنجر Griesinger (1868)، وفستفال westphal (1872) بالاعتراف من خلال أعمالهم بمفهوم "Zwangswortstelungen" الذي يعني "التّمثّلات التّي تفرض نفسها" (Les représentations qui s'imposent) (Brunot, 2005,pp. 11-12).

فمن جهته، اقترح كرافت إيبينج Kraft-Ebing سنة 1867 مصطلح "Zwangvorstellung " التّي تعني "التّمثّل القسري" (Représentation de contrainte)، ليشير به إلى " كُتل من التّمثّلات الرّاكدة" (Des masses représentatives stagnées) خلال الاكتئاب. وحدّد سنة 1870 العلاقة الموجودة بين الميلانخوليا (Mélancolie) والعاطفة القسرية (Affection de contrainte).

أمّا فستفال Westphal، فوصف سنة 1878 الوساوس بالأفكار الطّفيلية (Idées parasites) التّي تظهر في العقل السّليم من خلال اقتحام (Intrusion) السّيرورة العادية للتّفكير رغم إرادة الشّخص. واقترح تسمية هذه الظّاهرة (Phénomène) بـــ "Zwangneurose"[11] (Tazi, 2018, p. 06). وتناول إميل كرابلين Emil Kraeplin هذا المصطلح مؤكّدا على وجود "الشّك" (Le doute) والاجترار (Rumination) في الميلانخوليا الانتكاسية (Cupa& Pirlot, 2010, p. 54).

وفي نفس الفترة أدمج بيرد Beard وهارتنبيرج Hartenberg ودي فلوري De Fleury الظّواهر الوسواسية في إطار النّوراستينيا (Neurasthénie). وتواصلت الأعمال في هذا الاتّجاه، حيث ساعدت دراسات بيترس Pitres، ريجي Régis وسيغلاس Seglas حول الوسواس والفوبيا على إثراء أعمال بيار جانيه Pierre Janet حول أصل الوساوس التّي ربطها بالطّبع البسيكاستيني

[11] Zwangneurose باللّغة الألمانية، وإذا توقّفنا عند التّرجمة الأدبية لهذا المصطلح سنجد مصطلح "Névrose de contrainte" يقابله في اللّغة الفرنسية والذي يعني "العصاب القسري" في اللّغة العربية. وهو المصطلح (Zwangneurose) الذي استخدمه سيجموند فرويد Sigmund Freud لاحقا. ولقد استعمل كلمة "zwang" ليحدّد "نمط التّوظيف وتظاهرات السّيرورات الأوّلية" (Le mode de fonctionnement et de manifestations processus primaires) التّي تثير مسألة حتمية السّيرورات اللّاشعورية تحت غطاء السّببية النّفسية (La causalité psychique) (Brunot, 2005, pp. 19-20).

(Le caractére psychasthénique)، وكانت لأطروحته التي ناقشها في "السّوربون" Sorbonne سنة 1889 حول "الآلية النّفسية" (L'automatisme psychologique) صدى واسع، فأعطت له شهرة كبيرة سمحت له بالدّخول إلى مستشفى "السّالبيتريار" (Salpêtrière) في مصلحة شاركو (Service de Charcot). وتعتبر هذه الأطروحة إحدى المحاولات الأولى والجادّة لدراسة "اللاّشعور كموضوع علمي" (L'inconscient comme un objet de science) قبل بضع سنوات من الاكتشافات الأولى لسيجموند فرويد Sigmund Freud (Brunot, 2005, pp. 12-13). حيث لم تكن الانطلاقة الأولى لتقديم أوّل وصف واضح ومتناسق للوساوس- القهر، إلّا سنة 1903 عندما اقترح بيار جانيه Pierre Janet في مؤلفه " الوساوس والبسّيكاستينيا"[12] (Les obsessions et la psychasthénie) علاجا نفسيّا أصيلا، وقدّم نموذجا نفسيّا يفسّر من خلاله نشأة الفكرة الوسواسية، وحدّد مراحل تطوّر الوساوس- القهر وفق ثلاث مراحل هي: البسيكاستينيا (psychasthénie)، الإثارة القسرية (L'excitation de contrainte)، الوساوس- القهر (Obsession- Compulsion)، مسندا الدّور الكبير والرّئيس للبسيكاستينيا (Tazi, 2018, pp. 06-07).

وفي اتجاه آخر، قام سيجموند فرويد Sigmund Freud بعزل عصاب الوسواس (Névrose obsessionnelle)، عصاب الفوبيا (Névrosé phobique)، وعصاب الهستيريا (Névrosé hystérique) عن العصابات الرّاهنة (Les névroses actuelles)، وأدرجها ضمن العصابات النّفسية (Les psychonévroses). وأكّد في مقال له نُشر باللّغة الفرنسية في المجلة العصبية (La revue neurologique) (1885) بأنّه لا يمكن ربط الوساوس بالنّوراستينيا (La neurasthénie)، وبأنّها ليست ناجمة عن انحطاط عقلي (Dégénérescence mentale)، فالوساوس في نظره ترتبط من جهة بفكرة متسلّطة، ومن جهة بحالة انفعالية. وأطلق على هذا الاضطراب "عصاب الوسواس" (Névrose obsessionnelle) (Tazi, 2018, p. 07).

وبعد مرحلة طويلة من الرّكود الذي ظهر بعد هيمنة وانتشار مصطلحات سيجموند فرويد Sigmund Freud في مجال الطّب العقلي، تجدّد الاهتمام باضطراب الوسواس القهري،

[12] تردّدنا في ترجمة هذا المصطلح بين "الوهن النّفسي"، "التّعب النّفسي"، و"النّهك النّفسي" وهي المصطلحات التي نجدها متداولة في الكتب والدّراسات العربية، وفضّلنا أخيرا استخدام مصطلح "البسيكاستينيا" لأنّه المصطلح القريب من المصطلح الأصلي المعقّد (psychasthénie) .

وفي سنة 1852، صدر "الدّليل التّشخيصي الإحصائي الأوّل للاضطرابات العقلية (DSM-I) عن الرّابطة الأمريكية للطّب العقلي (APA)، وضمّ هذا الدّليل سبعة تصنيفات فرعية للعصاب النّفسي، منها "استجابة الوسواس القهري". ثمّ ظهرت الطّبعة الثّانية من هذا الدّليل سنة 1964، واعتمدت تصنيف إميل كرابلين Emil Kraeplin بعد خضوعه لعدّة تعديلات، وكان "عصاب الوسواس القهري" من بين تسع فئات فرعية للعصاب وضعها هذا الدّليل. وأدّى ظهور العلاجات المعرفية السّلوكية، وكذا تطوّر التّصنيفات والدّراسات الوبائية إلى إضفاء طابع فردي على اضطراب الوسواس القهري في الطّبعات الموالية لـــ DSM، حيث عرفت الطّبعة الثّالثة الصّادرة سنة 1980 تعديلات جذرية، فاختفى مصطلح "عصاب الوسواس" وعُوِّض بـــ "اضطراب الوسواس القهري" وأصبح أحد التّصنيفات الفرعية المندرجة ضمن اضطرابات القلق (Troubles anxieux)، واستمرّ الأمر ذاته في طبعته الثّالثة المعدلّة سنة 1987، والرّابعة سنة 1994 مع إضافة "الشّخصية الوسواسية القهرية" (Personnalité obsessionnelle compulsive) إلى جانب اضطراب الوسواس القهري. أمّا الطّبعة الخامسة والأخيرة، فقامت بسحب اضطراب الوسواس القهري من فئة "اضطرابات القلق"، ووضعته في فئة جديدة تسمّى"اضطرابات الوسواس القهري والاضطرابات ذات الصّلة" (Troubles obsessionnels compulsifs et apparentés) (Tazi, 2018, p. 07) سنأتي على شرحها لاحقا.

2. مفهوم اضطراب الوسواس القهري:

1.2. الوسواس القهري لغة:

يتكوّن الوسواس القهري من شقّين: الوساوس والقهر

الوسوسة كما وردت في مجمع اللّغة العربية (1985، ص ص1032- 1033) هي الشّيطان. والفعل وسوس، يُقال وسوس الشّيطان إليه وله، وفي صدره وسوسة ووسواسا: وهي حديث بما لا نفع فيه ولا خير. ويقال وسوسة النّفس، وتكلّم بكلام خفي مختلط لم يبنيه.

ويقابل كلمة وسواس في اللّغة الانجليزية كلمة "Obsession" التّي تعني في معجم أكسفورد Oxford فكرة أو شعور يحتلّ العقل بشكل يسبّب الضّيق (بوقفة، 2020، ص 99).

أمّا القهر، فيقال قهره قهرا، أي غلبه. فهو قاهر وقهّار. والإتيان بالفعل بغير رضا، فيقال أخدهم قهرا يعني من غير رضاهم (مجمع اللّغة العربية، 1985، ص764).

2.2. الوسواس القهري اصطلاحا:

اضطراب الوسواس القهري (Trouble obsessionnel compulsif)، أو ما يُعرف عادة بـــ"TOC"، هو اضطراب نفسي شائع، يتميز بوجود وساوس و/ أوالقهر، فيؤثر على نوعية الحياة ويؤدي إلى هدر كبير لوقت وجهد المصاب.

والوساوس هي أفكار متكرّرة تقتحم السّلوك السّويّ فجأة فتعطّله وتُسيء إلى صاحبه وتؤديه. وتشير إلى أفكار، أو اندفاعات (Impulsions)، أو تمثّلات (Représentations)، أو شكوك تستمرّ وتتكرّر بإصرار، وتُداوم بطريقة عنيدة وغير مرغوب فيها، تسيطر على تفكيره وتستحوذ عليه، فتسبّب له الضّيق والقلق، ويبذل جهدا كبيرا لتجاهلها أو قمعها أو تحييدها بواسطة أفكار أو أفعال ترتبط بالأفعال القهرية (Charpeaud et al, 2015, pp. 92-93).

ولقد تكرّر في تعريف الوساوس مفهوم الأفكار التّطفلية أو المقتحمة (Intrusive)، أي التّي تقتحم عقل المريض عنوة، ويعرّف الاقتحام (Intrusion) بأنّه تداع (Association) أو تفكير لا يرتبط بالسّياق، من مثل التّفكير الوسواسي، الذي يدفع بنفسه، أو يقحمها في الشّعور، أو الوعي بطريقة متكرّرة ومداومة، والأكثر من ذلك ظهور فكرة أو أكثر غير ذات معنى بشكل عشوائي، وتتدخّل في التّفكير الجاري المنطقي والمنظّم (عبد الخالق، 2002، ص37).

تأخذ الوساوس مواضيعا متعدّدة، فقد تكون إمّا دينية، أو ميتافيزيقية، أو جنسية، أو متعلّقة بالنّظافة، أو بالتّرتيب، أو بالدّقة، أو بالموت، أو بالعدوى... (Gasman, 2004, p.312). ويتمّ التّمييز عادة بين ثلاثة أنواع كبرى من الوساوس هي كالآتي:

- الوساوس الفوبية (Les obsessions phobiques): كالخوف من شيء ما، عدوى، مرض، كارثة... إلخ.

- الوساوس المثالية (Les obsessions idéatives): كالشكّ (Scrupules)، اجترار الأفكار (Rumination des pensées)...إلخ.

- الوساوس الاندفاعية أو الفوبيا الاندفاعية (Les obsessions impulsives ou phobie d'impulsion): كالخوف من المرور إلى الفعل(Peur de passer à l'acte) بطريقة عدوانية، الخوف من فقدان السّيطرة على الذّات، الخوف من ارتكاب أخطاء... إلخ (Charpeaud et al, 2015, p. 93).

ما يميّز هذه الوساوس هو أنّها تافهة، وسخيفة، فبالرّغم من يقين المصاب من تفاهتها ولا معقوليتها، إلاّ أنّه يعاني منها، ويبدل جهودا مكثّفة للتخلّص منها، كما يوجّه لها "انتقادات" (Des critiques) وهو ما يعرف بـــ "درجة الأنصايت"[13] (Degré d'insight) (Tazi, 2018, p. 05).

أمّا القهر فهو مرتبط بالفعل الذي يأخذ صفة الجبر والإلزام. والأفعال القهرية التّي تسمّى أيضا بالطّقوس (Rituels) هي عبارة عن سلوكيّات قد تكون ملاحظة كغسل اليدين، التّرتيب... أو غير ملاحظة تتمثّل في أفعال عقلية (actes mentaux) كالاجترار والحساب الذّهني... هذه السّلوكيات هي مستمرّة ومتكرّرة، يشعر الفرد بأنه مضطرّ للقيام بها استجابة لوساوسه، ويهدف من خلالها إلى تحييد (Neutraliser) أو تخفيف حالة الضّيق أو القلق النّاجم عن أفكاره (Martinroche, 2020, p.16).

ترى كلير وتريبو Clair et Trybou (2018, pp. 01-02) أنّ القهر هو المظهر الأكثر ملاحظة في اضطراب الوسواس القهري. ويأخذ مظاهرا مختلفة كغسل اليدين لدقائق أو ساعات

[13] مصطلح إنجليزي تُرجم إلى اللغّة العربية بكلمات مختلفة قريبة من المصطلح الأصلي (insight): كالشّعور بالاضطراب، الاستبصار، التّبصّر، البصيرة... وتشير إلى السّيرورات اللّاشعورية ذات الدّلالة السّيكودينامية. وتختلف ترجمة "الأنصايت" في العلاج الجشطالتي (Gestalthérapie) من خلال "الاكتشاف المفاجئ لحلّ مشكلة ما" عن ترجمتها في علم النّفس المعرفي من خلال "القدرة المعرفية" و/أو من خلال نظرية العقل(Théorie de l'esprit) . يجب استخدام مصطلح "الشّعور" من زاوية دلائلية (Sémantique) بدلا من استخدامه بطريقة تلقائية أو عشوائية.

الأنصايت هو فهم المريض لحالته، وثغراته، وقدرته على فهم بأنّه مريض، وتقديم تفسير صحيح لحالته من خلال فحص طريقة تفكيره وردود أفعاله. يغطّي غياب الأنصايت مفهوما أوسع من خلال دمج عدّة أبعاد في "عمى" (Aveuglement) لأعراضه، ونجد من بينها: غياب الإعتراف بالاضطراب العقلي، محو بعض الأعراض الواضحة مقارنة بغيرها، عدم القدرة على إيجاد سبب للمرض، عدم الإلتزام بالعلاج، عدم القدرة على التّعرّف على درجة تأثير المرض على من حوله... يمكن بلوغ جميع هذه الأبعاد، ولكن يتمّ تغير واحد منها فقط في كثير من الأحيان ممّا يجعل المريض يتّصف بالغرابة (Malade bizarre) . والأنصايت في اضطراب الوسواس القهري هو مسألة جدّ مهمّة لأنّه يسمح بتحديد نوع العلاج. ففي الواقع، يمكن أن يكون ضعف الأنصايت مسؤولا عن عدم اعتراف المصاب بالطّابع السّخيف لوساوسه، وهذا قد يؤدي إلى تشخيصه بانّه "ذهاني" ويتمّ تقديم علاج غير مناسب. ظهرت فكرة "الأنصايت" في تاريخ الوسواس القهري مع ظهور فكرة الوسواس القهري الإيجوديستوني "TOC Egodystonique" (وساوس منتقدة) مقابل الوسواس القهري الإيجوسانتونيك "TOC Egosyntonique" (وساوس غير منتقدة) (Djedid, 2016, pp, 35,38).

للتّوسّع في هذا المفهوم ارجع إلى مقال Djedid Rabia"Insight et trouble obsessionnel compulsif : à propos d'un cas" في مجلة Revue des sciences de l'hommeet de la société، العدد 20، سبتمبر 2016، ص ص27-52.

طويلة، أو التحقّق لعشرات المرّات من تنشيط المنبّه، أو ترتيب دقيق ومتماثل للأشياء، أو تكرار الصّلوات، أو اللّمس القهري لبعض الأشياء، أو ترتيب الملابس في الخزانة بإتّباع ألوان معيّنة أو طريقة متماثلة (Symétrique)، أو أفعال عقلية كالعمليات الحسابية أو ما يعرف "هوس الحساب" (Arithmomanie)...

تأخذ الأفعال القهرية عدّة ساعات في اليوم، وتحدث في أيّ مكان تواجد فيه المصاب (العمل، البيت، الشّارع...) مع اعتراف المصاب بطابعها المفرط التّافه، وغير المنطقي (Charpeaud et al, 2015, p. 93).

غالبا ما تأتي الأفعال القهرية بعد الوساوس، فتعمل في بدايتها على تخفيف القلق، وتصبح فيما بعد أكثر انتشارا وتكتسب خصائصا مرضية ومُقلقة. ويكون الوسواس والقهر عادة مرتبطين، فالثّاني يمثّل محاولة لنقص الأوّل، فمن يغسل يديه بشكل متكرّر، يحاول القضاء على وساوسه التّي تلّح عليه بانتقال العدوى أو بأنّ يديه متّسختان (الفزارية وآخرون، 2016، ص298).

لاضطراب الوسواس القهري إذن خصوصية معقّدة على المستوى السّيميولوجي العرضي (Sémiologique symptomatique). ولقد تمّ تعريفه في الدّليل التّشخيصي الإحصائي الأوّل (DSM-I) والثّاني (DSM-II) بأنّه زملة أعراض قصيرة وغير محدّدة. أمّا الدّليل الثّالث (DSM-III)، والثّالث المعدّل (DSM-III-R)، والرّابع (DSM-IV) فقد حدّد معايير تشخيصية لاضطراب الوسواس القهري، وتمّ تعريف الوساوس والأفعال القهرية كلّ على حدة (بوقفة، 2020، ص100). أمّا الدّليل الخامس (DSM5) فيُصنّف اضطراب الوسواس القهري ضمن اضطرابات الوسواس القهري والاضطرابات ذات الصّلة (Troubles obsessionnels compulsifs et troubles apparentés) (Charpeaud et al, 2015, pp. 92).

ويعرّفه التّصنيف الإحصائي الدّولي للأمراض (CIM-10) بأنّه: "اضطراب يتميّز أساسا بأفكار وسواسية أو سلوكيات قهرية متكرّرة. الأفكار الوساوسية هي أفكار، تمثّلات، أو اندفاعات تقتحم شعور الفرد بطريقة متكرّرة ونمطية. بصفة عامّة هي تزعج الفرد بشدّة، فيحاول دائما مقاومتها دون جدوى. ومع ذلك يدرك الفرد بأنّها أفكاره الخاصّة، رغم كونها لا إرادية ومكروهة. السّلوكيات والطّقوس القهرية هي أفعال نمطية تكرارية، لا يتحمل في ذاتها متعة ولا

يترتّب عنها إنجاز مهاما مفيدة. يهدف السّلوك القهري إلى الوقاية من حدث ما، لا يّحتمل وقوعه موضوعيا، وغالبا ما يتضمّن أذى موجّها من الفرد أو إليه، أو أنّه مسؤول عنه. وغالبا ما يعترف الفرد بسخافة وعدم فائدة سلوكه ويبذل جهودا متكرّرة لقمعه. يترافق الاضطراب "تقريبا دائما" بالقلق. يشتدّ هذا القلق عندما يحاول الفرد مقاومة سلوكه القهري" (Martinroche, 2020, p.18).

ويعرّف هانوس ولويس Hanus& louis (2010, p. 159) اضطراب الوسواس القهري وفق أربع خصائص رئيسة هي كالآتي:

- الأوتوماتيزم: حيث تدور الحياة النّفسية بشكل عفوي ومستقلّ عن وعي وإرادة المصاب.
- عدم التحكّم: أين تفرض أوتوماتيكية الفكرة طابعا إلزاميا لا يستطيع المصاب تجاوزه.
- مقاومة داخلية: يحاول المصاب من خلالها عرقلة الأوتوماتيزم القهري لحياته النّفسية من خلال تمثّلات أو عمليات نفسية أخرى. هذه المقاومة هي مستمرّة، مفروضة، مُرهقة، غير فعّالة وتمتص كل طاقة المصاب.
- الوعي بالاضطراب: يعيد المصاب تماما هذه التّظاهرات المرضية، ويحاول بأقصى ما يستطيع إخفاءها عن الآخرين. كما يوجّه انتقادا سلبيا لذاته لأنه يدرك عدم قدرته على التخلّص من هذه المعاناة.

تتفقّ التّعاريف السّابقة لاضطراب الوسواس القهري على خاصية الاقتحام والتّكرار والقلق، وذلك في وجود استبصار (أنصايت) المصاب بتفاهة ولا معقولية أفكاره. هذه الخصائص جعلت من الوسواس القهري اضطراب معقّد من أشدّ الاضطرابات النّفسية وأكثرها تمرّدا (Rebelle)، فهو الاضطراب الذي ينظر إليه دائما ومباشرة من منظور سيكوباتولوجي أو مرضي. حيث يعاني المصاب من معتقدات مختلّة وظيفيا، تتضمّن شعورا مبالغا فيه بالمسؤولية الذّاتية وفي تقدير التّهديدات مع التّركيز المفرط على الأفكار والحاجة المستمرّة إلى مراقبتها.

3. معطيات وبائية حول اضطراب الوسواس القهري:

1.3. معدّل الانتشار:

يحتلّ اضطراب الوسواس القهري المرتبة الرّابعة من بين الاضطرابات النّفسية الأكثر انتشارا بعد الفوبيا، الإدمان، والاكتئاب. وتُظهر الدّراسات الوبائية انتشاره بنسبة تتراوح من

1% إلى 3% من مجموع السّكان (Martinroche,2020, p. 19). كما تُقدّر نسبة انتشاره في مدّة ستة أشهر ما بين 0,7% و 2,2% من مجموع السّكان، وما بين 1,9% و3,2%مدى الحياة (Tazi, 2018, p. 07).

وفي الجزائر، لم تكن هناك دراسات وبائية عن اضطراب الوسواس القهري– في حدود اطّلاع الباحثة- لكن التّكرار الملاحظ في بلدان أخرى يشير إلى إصابة ما يقرب من المليون بالغ (Djedid, 2016, 28).

2.3. سنّ البدء:

يختلف سنّ بدء (L'âge de début) اضطراب الوسواس القهري اختلافا كبيرا من مصاب إلى آخر. إلاّ أنّه غالبا ما يبدأ هذا الاضطراب في وقت مبكّر من حياة الفرد لا سيما في مرحلة المراهقة، حيث تظهر الأعراض الأولى قبل سنّ 25 عند 60% من المصابين، وعند 30% ما بين 5 إلى 15 سنة (Tazi, 2018, p. 08). كما أنّ متوسّط سنّ ظهور الاضطراب هو حوالي 19 سنة ونصف مع ظهور مبكّر عند الذّكور (قبل 10 سنوات)، ومتأخّر عند الإناث (حوالي سنّ المراهقة)، مع احتمالية ظهور الاضطراب عند الرّجال والنّساء بعد سنّ الثّلاثين، خاصة بعد مرض عصبي كمرض باركينسون Parkinson أو مرض Huntington (Martinroche, 2020, p. 19).

عادة ما يكون بدء الاضطراب تدريجيا، مع ميل المصاب إلى إخفاء معاناته، ولا يتمّ تشخيص الاضطراب غالبا إلاّ بعد فترة طويلة من تطوّره، أي بعد الوصول إلى عتبة عالية من مضاعفات خطيرة (Tazi, 2018, p. 08)، وبإجماع العديد من المختصّين تتمّ الاستشارة الأولى غالبا بعد 08 سنوات من بدء الاضطراب، حوالي سنّ الثّلاثين في المتوسّط (Cupa& Pirlot, 2010, p. 55).

إنّ ظهور التّظاهرات الأولى للاضطراب في مرحلة البلوغ بالرّغم من ربط العديد من المصابين أعراضهم الأولى بمرحلة قبل المراهقة، يُعرف باضطراب الوسواس القهري "المبكّر" (TOC précoce). هذا الأخير هو أكثر ظهورا عند الرّجال، وأشدّ من الوسواس القهري المتأخّر (Tardif) الذي يظهر بشكل فجائي في غالب الأحيان (Clair& Trybou, 2018, p. 10).

3.3. عوامل الخطر:

يمكن تلخيص عوامل خطر الإصابة باضطراب الوسواس القهري كما وردت في DSM5 (APA, 2015, p. 281) فيما يلي:

- عوامل مزاجية: تعتبر العوامل المزاجية (Facteurs tempéramentaux) بما فيها الميل الكبير للاستيعاب الدّاخلي لأعراض الوسواس القهري (Internaliser les symptômes)، العاطفة السّلبية الكبيرة (L'émotivité négative)، والتّثبيط السّلوكي (L'inhibition comportementale) أثناء مرحلة الطّفولة، كعوامل خطر محتملة للإصابة باضطراب الوسواس القهري.

- عوامل جينية وفيزيزلوجية: إنّ معدّل اضطراب الوسواس القهري في الصّلة البيولوجية من الدّرجة الأولى (Les apparentés biologiques de premier degré) عند البالغين المصابين به، هو ضعف معدّل القرابة البيولوجية من الدّرجة الأولى عند غير المصابين. كما أنّ هذا المعدّل هو مضاعف بعشرة أضعاف في القرابة البيولوجية من الدّرجة الأولى عند المصابين به في مرحلة الطّفولة والمراهقة.

- عوامل بيئية: ترتبط الاعتداءات الجسدية أو الجنسية وغيرها من العوامل الضّاغطة أو المؤلمة في مرحلة الطّفولة بزيادة خطر الإصابة باضطراب الوسواس القهري.

4, الأعراض الإكلينيكية لاضطراب الوسواس القهري:

يتكوّن اضطراب الوسواس القهري كما ذُكر سابقا، من عرضين أساسيين كلّ واحد منهما يشكّل حلقة مفرغة للآخر، هما الوساوس والأفعال القهرية. ولكن إلى جانب هذين العرضين لا يجب إهمال عرضين آخرين هما التجنّب والقلق.

يمكن تلخيص الأعراض الإكلينيكية لاضطراب الوسواس القهري كما ورد في (Martinroche,2020, pp. 46-47) فيما يلي:

- الوساوس: لا تختلف الأفكار الوسواسية عن الأفكار الطّبيعية من حيث محتواها، ولكن وبشكل خاصّ من حيث تكرارها، مدّتها، والمعاناة التّي تسبّبها لصحابها. تسيطر الوساوس على عقل المصاب، وتعمل به كما تفعل الأفكار الأوتوماتيكية التّي تظهر تلقائيا كقولنا مثلا:« هذا المكان يذكرّني بمشهد رأيته في فيلم»، أو مثلا: « أشعر بإحساس رائع هذا الصّباح». ولكن ما يجب الإشارة إليه هو أن كلّ الوساوس هي أفكار أوتوماتيكية ولكن العكس ليس صحيح.

- الأفعال القهرية: تكرار الأفعال القهرية هو ثابت وناذرا ما يتغيّر مع مرور الوقت، غير أنّ مدّة طقوس الغسيل تميل إلى الزّيادة مع مرور الوقت إذا لم يخضع المصاب إلى العلاج.

-التجنّب: يهدف المصاب من خلال سلوكيات التّجنب إلى منع التعرّض للمواقف التي يتخوّف منها، والتّالي منع القلق الذي تُسبّبه هذه المواقف. كأن يتجنّب المصاب باضطراب الوسواس القهري المتعلّق بالنّظافة لمس مقابض الأبواب، أو يتجنّب إدخال شخص ما إلى منزله. كما يمكنه أيضا تجنّب التّفكير في الموقف الذي يقلقه، ونتكلّم هنا عن التّجنب العقلي (L'évitement mental).

يتشابه التّجنّب مع الطّقوس في دوره الذي يهدف إلى تخفيف القلق النّاجم عن التعرّض، ويختلف معها من حيث أنّه يسمح بالتّحكّم في القلق قبل التّعرّض.

- القلق: يُعتبر القلق عاملا مهمّا يجب مراعاته في اضطراب الوسواس القهري، ويمكنه أن يستمرّ من عدّة دقائق إلى عدّة ساعات، أو حتّى نصف يوم كامل، فيزعج المصاب ويؤثّر على مزاجه. لتخفيف القلق يلجأ المصاب إلى الطّقوس، أو إلى التّجنب للتحكّم فيه.

5. الأشكال الإكلينيكية لاضطراب الوسواس القهري:

يشير التّباين السّريري لاضطراب الوسواس القهري إلى وجود أشكال متنوّعة له. علاوة على ذلك، فإنّنا قد نجد مواضيعا متعدّدة ومختلفة عند نفس المصاب في آن واحد، وقد تتغيّر هذه المواضيع مع تطوّر الاضطراب، كما قد نجد موضوعا واحدا يشكّل بمفرده نواة الاضطراب.

يأخذ اضطراب الوسواس القهري أشكالا عيادية يتّم تصنيفها حسب ما يلي:

- **حسب التّوازن الوساوس/ القهر (La balance obsessions/compulsions):**

تأخذ الوساوس والأفعال القهرية جزءً متساويا نسبيّا في أعراض الوسواس القهري. إلاّ أنّ وجود الوساوس بشكل أساسي مع الغياب الشّبه التّام للأفعال القهرية، أو العكس، هو ممكن في بعض الحالات. ويسمح ما يُسمّى بـــ "التّوازن الوساوس/القهر"بالتّمييز بين ثلاثة أشكال عيادية هي كالآتي:

- اضطراب وسواس قهري بأفعال قهرية مهيمنة (TOC à dominance compulsive): عادة ما تكون الوساوس في هذه الحالة غائبة أو قليلة. ويشمل هذا الشّكل أعراض التحقّق، العدّ، التّرتيب المتماثل... ويكون أكثر ارتباطا باللّزمات الحركية (Tics moteurs). كما يتمّ القيام

بالطّقوس أو الأفعال القهرية استجابة للقلق وليس الخوف من شيء محدّد. وتُعتبر طقوس التّرتيب المتناظر أو الدّقة، مثالا واضحا عن هذه الحالة عندما لا تكون مدعومة بأفكار سحرية (Pensées magiques).

- اضطراب وسواس قهري بوساوس مهيمنة (TOC à dominance obsessionnelle): يتكوّن أساسا من وساوس عدوانية، الخوف من ارتكاب خطأ أو فضيحة، والوساوس ذات المواضيع الجنسية أو الدّينية.

يُطلق على هؤلاء المرضى " الوسواسيين" (Obsessionnels) نتيجة غياب الطّقوس الحركية أو قلّتها، حيث يشعرون بطقوس يصعب تحديدها، ويلا يمكن وصفها إلاّ بأنها طقوس عقلية (Compulsions mentales) عادة ما يغفل عنها المختصّون العياديّون، ويصنّفونهم بالخطأ كمصابين ذوي "وساوس بحتة" (Obsessionnels purs).

بشكل عامّ، تهدف الطّقوس العقلية إلى تخفيض القلق النّاتج عن الوساوس كالاجترار المستمرّ، إعادة مشاهد في الذّهن، محاولات التّطمين كأن يسأل المصاب المحيطين به باستمرار عن ما يشغله من أفكار، أو تصفّح الأنترنت...

- الشّكل المختلط لاضطراب الوسواس القهري المختلط (La forme mixte du TOC): هو الشّكل الكلاسيكي الأكثر شيوعا، والأسهل تشخيصا، حيث يصف المصاب بشكل واضح وساوسه اليومية، وكيف يحاول توجيهها من خلال سلوكيات قهرية تستغرق منه وقتا طويلا.

تأخذ الوساوس في الشّكل المختلط شدّة متساوية نسبيا مع الأفعال القهرية، وبذلك تعزى إعاقة الأداء الوظيفي التي يسبّبها الاضطراب إلى الوساوس والأفعال القهرية بشكل متساو نسبيا. يتكوّن هذا الشّكل أساسا من وساوس التلوّث مع طقوس الغسيل (Clair, et al, 2016, pp. 09-10).

- **حسب موضوع الأعراض (La thématique de symptômes):**

بالرّغم من عدم التّجانس السّريري لاضطراب الوسواس القهري، إلاّ أنّه يمكننا تحديد أعراضه وفق تصنيف رباعي العوامل، وهو التّصنيف الذي وضعه لكمان Leckman سنة 1997، والأكثر استخداما في الأوساط العيادية حاليا.

يشمل العامل الأوّل الوساوس ذات المواضيع العدوانية (Thèmes agressifs) والأفعال القهرية من نوع التحقّق، مع بدء تدريجي للأعراض. يُطلق على المصابين بهذا الشّكل"

المحقّقين" (Les vérificateurs)، ذلك أنّهم يسعون من خلال طقوس التّحقق إلى منع حدوث كوارث أو مصائب يمكن أن تحدث بخطأ منهم (وساوس الخطأ)، فتُسبّب لهم أو لمن حولهم خطرا في المستقبل، كالتحقق من غلق الباب، الغاز، الكهرباء... (Tazi, 2018, pp. 17-18).

تأخذ سلوكيّات التحقّق نسبة متساوية بين النّساء والرّجال، وتشمل الوساوس العدوانية التي يتمّ تخفيفها عن طريق طقوس التّحقق وليس عن طريق الطّقوس العقلية،كأن يخاف المصاب مثلا من دعس شخص ما بالسّيارة، ثم يتفقّد خطواته ليُطمئن نفسه (Martinroche, 2020, p. 49).

لقد تمّ إضافة البعد الجسدي، الجنسي، الدّيني، وكذلك الطّقوس العقلية إلى العامل الأوّل من طرف ماتاكس- كول Mataix-Cols (1999- 2006) (Tazi, 2018, p. 18). ويسمىّ المصابون بهذه الطّقوس بـــ "المجترّين" (Ruminateurs)، حيث يقدّمون أفكارا أو صورا كأفكار فاحشة لا معنى لها، صور عنف جنسي... مع طقوس حركية قليلة أو غائبة.

ويمكن إدراج النّزوات الاندفاعية (Pulsions d'impulsions) إلى هذا العامل، كالخوف من الانتحار أو قتل أحد أفراد الأسرة (بنسبة مرور إلى الفعل 0%). يخفّف المصاب من قلقه عن طريق الطّقوس العقلية (عبارات سحرية يردّدها المصاب، سلسة أرقام) وليس عن طريق الطّقوس الحركية. وفي هذه الحالة لابدّ من التّمييز بين الأفكار الوسواسية التي تزيد من القلق والطّقوس العقلية التي تخفّف من القلق. كما أنّ الطّقوس العقلية إرادية بينما الأفكار الوسواسية فهي مقتحمة.

ويتعلّق العامل الثّاني بوساوس التّناظر، النّظام، الدّقة، وبالتّفكير السّحري، وأيضا بالسّلوكيات القهرية الخاصّة بالتّرتيب والعدّ. فبالنّسبة للمصاب، لا بدّ أن يكون كلّ شيء نظيفا ومنظّما، ولكن بطريقة تتجاوز المعايير الاجتماعية الجدّ صارمة. حيث يصرّ المصاب على التّرتيب المثالي لأغراضه، ويأخذ وقتا طويلا في ذلك، وقد يصعب عليه ترك بيته بسب إعادة ترتيبها. ويمكن إدماجه أحيانا في فئة البطء الوسواسي (Lenteur obsessionnelle) (Martinroche,2020, pp. 48-49).

ويصيب العامل الثّالث 80% من النّساء مع بدء سريع للأعراض، ويشمل وساوس التلوّث والأوساخ التّي تنجم عن مثيرات بيئية، وكذلك الأفعال القهرية المتعلّقة بالتّنظيف والاغتسال. ويُسمّى المصابين بهذا الشّكل بـــ " المغتسلين" (Les laveurs).

يخاف المصاب من التلوّث عن طريق الدّم، اللّعاب، الجراثيم، النجاسة...فيضطر إلى القيام بطقوس متعلّقة بالنّظافة، يزيد عددها ومدّتها مع تطوّر الاضطراب كالاستحمام لفترات طويلة، غسل متكرّر لليدين، تغيير الملابس، تنظيف مقابض الأبواب والمراحيض... ويسعى إلى تجنّب المواقف المقلقة أو إلغائها بواسطة هذه الطّقوس.

ويتكوّن العامل الرّابع والأخير من الوساوس والأفعال القهرية المتعلّقة بالاكتناز أو جمع أشياء بطريقة مرضية، إذ لا يستطيع المصاب التّخلّص منها خوفا من نسيان معلومات مفيدة أو فقدان أغراض مهمّة كأوراق، ملفات، ملابس،...إلى درجة اكتظاظ الغرفة بالأشياء فتصبح غير صالحة للاستعمال اليومي (Martinroche,2020, pp. 48-49). يُطلق على المصابين بهذا الشّكل "المكتنزين" (Accumulateurs)، لأنّهم يطوّرون عاطفة واسعة (Envahissante) من التّملّك المادّي.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ تصنيف الدّليل الخامس (DSM5) قد قام بعزل العامل الرّابع في اضطراب منفصل يسمّى "الاكتناز المرضي" (La thésaurisation pathologique)، وتمّ إدراجه في فئة "الاضطرابات ذات الصّلة بالوسواس القهري" (Troubles apparentés au TOC).

تتفاوت نسب انتشار الوساوس والأفعال القهرية حسب أنواعها، حيث تُعتبر وساوس التّلوّث هي الأكثر شيوعا بنسبة 45%، تليها الوساوس الجسدية (36%)، ثمّ وساوس التّرتيب والتّناظر(31%)، وأخيرا الوساوس ذات المواضيع العدوانية بنسبة (28%) والجنسية (26%). أمّا بالنّسبة للأفعال القهرية، فتُعتبر سلوكيات التحقّق هي الأكثر انتشارا (63%)، وتأتي بعدها طقوس الاغتسال (59%)، ثمّ العدّ (36%)، ثم التّرتيب (28%)، وأخيرا الاكتناز (18%) (Tazi, 2018, pp. 17-18).

- **حسب شدّة الاضطراب (La sévérité du TOC):**

يمكن قياس شدّة اضطراب الوسواس القهري بواسطة مقاييس مختلفة، ممّا يسمح بالتّمييز بين ثلاث درجات من اضطراب الوسواس القهري وهي كما يلي:

- اضطراب وسواس قهري خفيف.
- اضطراب وسواس قهري متوسّط.
- اضطراب وسواس قهري شديد (Tazi, 2018, p. 20).

6. النّماذج التّفسيرية لاضطراب الوسواس القهري:

تعرّض اضطراب الوسواس القهري إلى العديد من التّفسيرات، تنوّعت واختلفت باختلاف نظرتها للاضطراب وكيفية تطوّره. في هذه الجزئية سنركّز على أهمّ النّماذج التّفسيرية له وأكثرها شيوعا واستخداما في الأوساط العيادية.

1.6. نموذج التّحليل النّفسي:

يعتبر التّحليل النّفسي من أوّل النّماذج النّفسية السّببية (Les modèles psychologiques étiologiques) التّي حاولت تفسير الوسواس القهري. وأمام تنوّع اتجاهاته لا نستطيع الإلمام بجميع الآراء التي طُرحت حول تلك التّفسيرات التي لا نجد فهما لها سوى بالعودة إلى أوّل النّماذج التّحليلية التي شكّلت منحى أساسيا انطلق في بداية القرن العشرين مع نموذج البسيكاستينيا لبيار جانيه Pierre Janet، يليه نموذج عصاب الوسواس لسيجموند فرويد Sigmund Freud.

1.1.6. نموذج البسكاستينيا:

يُعتبر بيار جانيه Pierre Janet من الأوائل الذين اقترحوا نموذجا تفسيريا لاضطراب الوسواس القهري. ويوضّح في مؤلفه "الوساوس والبسيكاستينيا" (Les obsessions et la psychasthénie) (1903) أنّ الوساوس تنشأ من خلال "عجز وظيفي عام" (Un déficit fonctionnel global)، يؤدّي بالظّواهر العقلية (Les phénomènes mentaux) الموجودة بشكل هرمي(Hiérarchiquement) في أدنى المستويات إلى ممارسة العمليّات العقلية بطريقة بديلة أو منحرفة (Substitutive ou dérivative). ويقول في هذا الشّأن:« البسيكاستينيا هي شكل من أشكال الاكتئاب العقلي، تتميز بانخفاض الضّغط النّفسي ونقص الوظائف التّي تسمح بالتّعامل مع الحقيقة واستقبال الواقع، عن طريق **استبدال** العمليات الدّنيا والمُبالغ فيها على شكل شكوك، انفعالات، قلق، وأفكار وسواسية، تعبّر عن الاضطرابات السّابقة...(Brunot, 2005,p. 12) » .

ويذهب بيار جانيه Pierre Janet إلى أنّ المصاب بالبسيكاستينيا يميل إلى الاكتئاب عن طريق الانفعالات النّفس-حركية كاللّزمات (Les tics)، والأفعال النّمطية (Les actes stéréotypés) أو المطَمئنة. أو عن طريق تظاهرات الأعراض (Les manifestations symptomatiques) ذات الطّابع الفكري العقائدي كالاجترار العقلي (La rumination mentales)،

الصّلوات المتكرّرة والكلمات القاذفة (Les mots jaculatoires) التّي تفسّر صعوبة التّكيف مع واقع الوظائف العليا بما فيها الذّكاء والإرادة.

وانطلاقا من وجهة النّظر هذه، توسّع بيار جانيه Pierre Janet في خصائص البسيكاستينيا، وحدّدها في ميل المصاب إلى التّردد، الشّك، الأبوليا (L'aboulie) (نقص أو فقدان الإرادة)، بالإضافة إلى الخجل وتثبيط العلاقات الاجتماعية، وهذا ما يؤدي إلى الاستبطان (Introspection) والتّحليل الذّاتي (l'auto-analyse) للحياة الدّاخلية. كما اعتبر بيار جانيه Pierre Janet الاضطرابات الجنسية بما فيها فقدان الإرادة (L'apragmatisme) والضّعف أو البرود الجنسي، وكذلك الوصمات النّفس- حركية (Les stigmates psychomoteurs) كالتّأتأة واللّزمات، الرّعونة الحركية، خصائصا مكمّلة للطّابع المنظّم،الدّقيق، الصّارم والمسيطر على الجدول النّفس- مرضي للبسيكاستينا. وجعل من عدم القدرة على التّكيف، غياب القدرة على اتّخاذ القرارات وحلّ المشكلات، والإحساس بعدم الاكتمال، أعراضا خاصة بها.

ومن خلال أطروحته التّي ناقشها في "السّوربون" Sorbonne سنة 1889 حول"الأتوماتيزم النّفسي" (L'automatisme psychologique) قدّم بيار جانيه Pierre Janet "مفهوم الضّعف النّفسي" (La faiblesse psychologique)، ودافع عن فكرة أساسية مفادها أنّ هذا الأخير له تأثير في تضييق مجال الشّعور(La conscience)، وبالتّالي إعاقة النّشاط الأعلى للعمليات العقلية لتحرير الأفكار الثّابتة اللاّشعورية وتوليد أعراض العجز (Symptômes déficitaires) (Brunot, 2005,pp. 12-13).

ومن خلال تحويل اهتمامه بالهستيريا إلى ما أسماه بـــ "مرض الشّك" (La maladie de scrupule) والبسيكاستينيا المستقبلية (Future psychasthénie)، وضّح بيار جانيه Pierre Janet كيف يمكن للأفكار الثّابتة أن تكشف عن نفسها بينما تبقى مقاومة لأيّ شكل من أشكال التّفكير العلاجي(Le raisonnement curatif). فهذه الاضطرابات الوسواسية (Les troubles obsessionnelles) بالنّسبة إليهما هي إلاّ نتيجة لتفكّك نفسي (Une désagrégation psychique) ناجم عن نشاط خارج مجال الشّعور الطّبيعي (La conscience normale) لنظام كامل من الصّور والأفكار والاعتقادات، ولفكرة مسيطرة تنشأ من انشطار نفسي (Clivage psychique) يدلّ على وجود نشاط نفسي لاشعوري.

وفي هذا الإطار، ميّز بيار جانيه Pierre Janet بين معياريين يعيقان المصاب بالبسيكاستينيا. يسمّي الأوّل بـــ "القوّة النّفسية" (La force psychologique) التّي تمثّل مصدر الفعل أو المحرّك (Le moteur)، ويسمّي الثّاني بـــ "التّوتر النّفسي" (La tension psychique) الذّي يمثّل درجة التّفكير المحقّق من خلال الكمال في الفعل (La perfection de l'acte).

تُترجم الوساوس في شكل رمزي الشّعور بنقص الإرادة (L'aboulie)، والإدراك المُقلق الذي يرتبط بالإحساس بعدم الاكتمال، وهذا ما يشير إلى فكرة"الاكتئاب التّوتري" (La dépression tensionnelle) التّي يركّز عليها نموذج بيار جانيه Pierre Janet. ففي مؤلفه "العصابات" (Les Névroses) (1909)، وصف ما يُشبه "شغف الاستثمار الفكري" (La passion de l'investissement de pensée) الذي يسمّيه "Les manies de l'au-delà" قائلا: «العقل غير المستقر دائما يريد أن يتجاوز الموضوع المحدّد، يضيف له شيئا آخرا، ليذهب إلى مدى أبعد ». لهذا الميل الوسواسي تأثير في توليد نشاط فكري متواصل ومستمر يُدعّم برغبة ملحّة للإجابة عن الأسئلة الميتافيزيقية (Métaphysiques). وفي هذا الصّدد يقدّم بيار جانيه Pierre Janet مثالا حيّا عن هذا الشّغف والتّضارب الفكري (Spéculation) من خلال تحليل إحدى مريضاته:« كيف يمكن للنّقاط السّوداء على الورق أن تتضمّن فكرة؟ »، « كيف تأتي الكلمات إلى الفم في نفس الوقت الذي أفكر فيه؟ »،« كيف يمكن للكلام الذي هو ضجيج أن ينقل الفكرة؟ »، « كيف يمكنني أن أحبّ ابنتي وهي خارج نفسي؟» (Janet, 1909, p. 53).

إنّ هذه التّساؤلات التّي تكشف دون شكّ عن الكثير من الأفكار ذات النّوع الذّهاني تشكّل حسب بيار جانيه Pierre Janet صورة من المعاناة التي تنجم عن عدم امتلاك قدرات معرفية، لأنّها تعذّب المصاب بالوسواس، فيقدّمها كـــ "ثمرة عمل فردي" (Le fruit d'un travail singulier) من الأفكار التي تُراكم التّساؤلات، الإستفهامات، تجمّعات الأفكار، والأبحاث التي لا تُحص، لتشكّل متاهة مستعصية...ولكن سواء كان المصاب يدير أفكاره في شكل دائري أو في شكل متفرّع، فإنه لن يصل أبدا إلى نهاية، ولا يمكنه أبدا أن يسحب العارضة، فيُستنفد داخل عمل عديم الفائدة وغير منته.

الشّعور بالنّقص وعدم الاكتمال (Sentiment d'incomplétude) إذن عنصران مسؤولان أساسا عن وجود "وساوس التّضارب الفكري ". ويؤكّد بيار جانيه Pierre Janet في هذا الشّأن أنّ

الأمر لا يتعلّق بعمل فكري بل بتفكير مبالغ فيه. فهو لا يؤسّس لأي دقّة، ولا لأيّ فارق، ولا لأيّ تطوّر، لكنّه يتميّز بـــ "روح التّعميم" التّي تحمل "الكلّ أو اللاّشيء" (Un tout ou rien). ونعطي مثالا عن ذلك بإحدى مريضاته التّي كانت تعاني من دوار تثيره تمثّلات الموت، فكانت تعيش هذا الدّوار بأنّه اليقين الوحيد للموت.

وعند قول مريضة أخرى له:« لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن يكون هناك عالما؟ لماذا توجد أشجار وحيوانات؟ ماذا سيصبح كلّ هذا عندما ينتهي كلّ شيء؟ »، فإنّنا سنفكّر في شكل من أشكال "الانحطاط الاكتئابي" (La chute dépressive) أو البسيكاستينيا اللّذان يعطيان للحياة طابعا مقلقا ومريضا لتوقّع لا ينته أبدا. هذا التّوقع الذّي يثيره تساؤل متكرّر حول "لماذا؟ " يربطه بيار جانيه Pierre Janet بالشّك في الدّين (Doute religieux) كأساس لإثارة الوساوس (Brunot, 2005,pp. 14-15).

«عندما بدأت أشعر بالمرض فقدت إيمان طفولتي، ولم أكن أعرف لماذا لم أعد أصدّق أي شيء. إنّه خلل في الثّقة، شيء يفنى في داخلي، مثل النّور الذّي يتلاشى». إنّ هذه الكلمات هي أيضا لإحدى مريضات بيار جانيهPierre Janet وهي تثير فكرة "فقدان أسس الهوية،" ويبدو أنّه موجّه لشخص آخر لم تعد خصوصيته من النّوع البشري (Janet,1909, p. 55).

2.1.6. نموذج عصاب الوسواس:

يعتبر سيجموند فرويد Sigmund Freud المنادي الأوّل بالقطيعة الابستيمولوجية العميقة اتجاه تصوّرات أسلافه. فمن جهة نجده يعارض تصوّر بيرد Beard وكرافت إبينغ Krafft-Ebing حول ارتباط عصاب الوسواس بالنّوراستينيا (Neurasthénie)، ومن جهة أخرى بيار جانيه Pierre Janet حول مفهوم البسيكاستيننيا الذي دافع عنه في نموذجه التّحليلي (Brunot, 2005, p. 19).

لقد وردت عبارة "عصاب الوسواس" (Névrose des obsessions) لأول مرّة على لسان سيجموند فرويد Sigmund Freud عندما تحدّث عن البسيكاستينيا التّي تناولها بيار جانيه Pierre Janet، وكذلك عن "وراثة وأسباب العصابات" (1896a) وذلك من أجل عزلها عن التّناذرات التّي تشكّل الاضمحلال العقلي. وقد تناول قبل ذلك (1895a) مسألة الوساوس وعلاقتها مع

الفوبيا وميّز فيها مظهرين هما: فكرة تسيطر على المريض، وترتبط بها حالة انفعالية (سي موسي وبن خليفة، 2010، ص66).

يمثّل عصاب الوسواس "فئة نوزولوجية" (Une catégorie nosologique) خضعت لعدّة تغيّرات في الفكر الفرويدي. فمن خلال المقارنة المستمرّة مع فئات نوزولوجية أخرى كالهستيريا (Hystérie)، الفوبيا (Phobie)، القلق العصابي (Névrose d'angoisse)، اضطرابات الطّبع (Troubles de caractères)، الانحرافات (Perversions)، الاكتئاب (Dépression)، البارانويا (Paranoïa)، الفصام (Schizophrénie)، لم يتوّقف سيجموند فرويد Sigmund Freud عن طرح عصاب الوسواس كبنية فريدة وأصلية (Structure singulière et originale)، مصرّحا في كتابه " الكفّ، العرض والقلق" (Inhibition, symptôme et angoisse) (1926) أنّ: « عصاب الوسواس هو دون شك من أهمّ المواضيع وأجدرها بالتّحقيق والبحث التحليلي» (Brunot, 2005, p. 19).

لقد شهدت الخصوصية السّيكوباتولوجية التي قدّمها سيجموند فرويد Sigmund Freud لعصاب الوسواس مرحلتين أساسيتين، نعرضهما بشيء من التّفصيل على النّحو الآتي:

- المرحلة الأولى: عصاب الوسواس كلغة للهستيريا (névrose obsessionnelle comme dialecte de l'hystérie)

تظهر هذه الصّيغة التي يصف بها سيجموند فرويد Sigmund Freud عصاب الوسواس "كلغة للهستيريا" في الصّفحات الأولى من تحليليه لحالة "رجل الجرذان"[14] (L'homme aux rats) (1909) بعدما تناولها من قبل في مؤلّفيه "العصابات النّفسية الدّفاعية" (Les psychonévroses de défense) (1894)، و"الكف، العرض والقلق" (Inhibition, symptôme et angoisse)

[14] حالة تعاني من أفكار وسواسية عدوانية ومن حدوث الأسوأ: الخوف من قطع حلقه (Peur de se trancher la gorge) أو من حدوث أمر سيّء أو خطير للآخرين. لديه أيضا وساوس حول عدم فهم ما يقال له، لذلك يجعل محاوريه يكرّرون كلامهم بشكل قهري. بالإضافة إلى طقوس عقلية تتمثّل في هوس الحساب (Arithomanie). تعود تسمية هذه الحالة بـــ "رجل الجرذان" في الحقيقة إلى ما صرّحت به لسيجموند فرويد sigmund Freud عن وصف نوع من التّعذيب مورِس في الشرق واستخدم فيه الجرذان. وقد تمّ إخباره بهذا التّعذيب من قبل ضابط أثناء تأدية خدمته العسكرية. كانت هذه الحالة تحتوي على قراءة عالمية (Planétaire) مع التّحليل النّفسي، لكن المعطيات المقدّمة من طرف سيجموند فرويد sigmund Freud كانت موضوع تحفظّات مهمّة على المستوى العيادي والعلاجي (Sauteraud, 2005, p. 13).

(1926) (Brunot, 2005, p. 21). ولعلّ السّؤال الذي يثير تفكيرنا أمام هذا التصوّر، هو لماذا وضّف سيجموند فرويد Sigmund Freud مصطلح "اللّغة" لوصف عصاب الوسواس؟

تُرجعنا الأدبيات التّحليلية، إلى محاولات سيجموند فرويد Sigmund Freud (1894 - 1896) في البحث عن أسباب الصّدمة الخاصّة بالعصابات. حيث كان يرى أنّ كلّا من المصابين بالهستيريا والوساوس يعانون من الذّكريات العميقة (Les réminiscences)، ويكبتون الأحداث الصّادمة ذات الأصل الجنسي. لكنّنا نجده من جهة أخرى يميّز بين العصابين من حيث تاريخ الصّدمة، فهي مبكّرة في عصاب الوسواس، بينما يعيشه الفرد بطريقة نشطة وممتعة في عصاب الهستيريا. ولقد كشف سيجموند فرويد Sigmund Freud عن وجود أساس للأعراض الهستيرية في جميع حالات عصاب الوسواس، وهذا ما يسمح بتجربة أولى من الإغراء السّلبي (Séduction passive). أمّا في الهستيريا، فتُستخدم لغة الأعضاء (Le langage d'organes) بواسطة مجموع الإثارة المرتبطة بالمكبوت، وهو ما يُعرف بالتّحويل (La conversion). ويضيف سيجموند فرويد Sigmund Freud إلى هذا الطّرح، بأنّ عصاب الوسواس يفصل عاطفة التّمثيل (L'affect de la représentation) ويزيحها نحو تمثيل تافه، ومن خلال هذا العمل النّفسي تتولّد الأفكار الوسواسية من الإبدال (Substitution) والإزاحة (Déplacement) بشكل متتال وفق مراحل زمنية متعدّدة (Brunot, 2005, pp. 21-22).

ويضيف سيجموند فرويدSigmund Freud أنّ عصاب الوسواس يختلف عن الهستيريا من حيث نوع الصّدمة، فهو ذو طبيعة عدوانية ومنحرفة تترافق مع "تلذّذ" (Jouissance). ويوضّح هذا التّلذذ في تعريفه للوساوس (1896b) بأنّها: "ملاوم (Des reproches) يوجّهها الشّخص لنفسه بسبّب تلذّذ جنسي مسبق، إلّا أنّ هذه الملاوم هي مشوّهة بعمل نفسي لا شعوري يقوم على التّحول والتبديل". ويعني بذلك أنّ الوساوس هي معوّض أو بديل للتّصوّرات الجنسية المتعارضة. وتمثّل هذه الملاوم حالة انفعالية ثابتة ومخلّدة (éternisé) ارتبطت في الأصل بتصوّر جنسي معارض غير مطاق فتحوّلت إلى فكرة متسلّطة. ويقصد سيجموند فرويد Sigmund Freud بقوله "تلذّذ جنسي مسبق" أنّ هناك إمّا اعتداء جنسي تحييه الرّغبة لدى الولد أو مشاركة بتلذّذ (أي فاعلة) في العلاقة الجنسية لدى البنت. وهذا عكس ما هو موجود في الهستيريا حيث تكون الاستكانة (سي موسي وبن خليفة، 2010، ص66).

ومن خلال ملاحظاته الجديدة حول العصابات النّفسية للدّفاع (1896)، حدّد سيجموند فرويد Sigmund Freud طابعا خاصّا لعصاب الوسواس، فعلى على خلاف الهستيريا، يؤكّد أنّ القدرة على التّحويل ليس لها مكانا هنا، وذلك لأنّ السّمة الغالبة تكمن في التّمييز بين الفكرة والحالة العاطفية، حيث تخضع الفكرة لطفرات (Mutations)، بينما تبقى العاطفة دون تغيير. علاوة على ذلك، فإنّ المراحل المتعدّدة الأطوار الخاصّة بعصاب الوسواس تجعله أكثر تمثيلا للعصابات الدّفاعية (Brunot, 2005, p. 22).

تبدأ المرحلة الأولى بظهور الصّدمة، وسيتمّ إعادة تنشيط آثار الذّاكرة الدّفينة، فقط في مرحلة ثانية تقع عموما في سنّ البلوغ (La puberté) بواسطة حدث فجائي، لتظهر بعد ذلك وفي مرحلة ثانية سلسة من الدّفاعات الأولى يسمّيها سيجموند فرويد Sigmund Freud بـــ "الأعراض الأوّلية للدّفاع" (Les symptômes primaires de défense) يتمّ التّعبير عنها من خلال الميل إلى الشّك والنّدم.

وفي المرحلة الثّالثة، ستخلق عودة المكبوت الوسواس الحقيقي، فتحدث الإزاحة المزدوجة، وفي هذا الشّأن كتب سيجموند فرويد Sigmund Freud في رسائله إلى فليس Fliess التّي تظهر في "ميلاد التّحليل النّفسي (Naissance de la psychanalyse): «الوساوس ناتجة عن حلّ وسط دقيق من وجهة نظر العاطفة والفئة، لكنّها مشوّهة بسبب إزاحتها الكرونولوجية والاختيار التّحليلي للبديل(Freud, 1967, p. 213) ».

أمّا المرحلة الرّابعة فتشهد ظهور دفاعات ثانوية كآليات لحماية الذّات على شكل أفعال قهرية، وتحقّق، وطقوس تخضع بدورها إلى وساوس.

وفي مؤلّفه "الوساوس والفوبيا" (Obsessions et phobies) (1895)، طرح سيجموند فرويد Sigmund Freud الفوبيا كحالة وسيطة(Intermédiaire) بين الهستيريا وعصاب الوسواس. فالفوبيا التّي يعتبرها المظهر النّفسي لعصاب القلق، تُولّد ما يسمّيه في رسالته إلى فليس Fliess بـــ "التّمثّل الحدودي" (La représentation limite). هذا الأخير معرّض للإزاحة نحو تمثّل ذي علاقة، كما يمكنه تغيير طبيعته ليصبح وسواسيا. وفي سنة 1913 استعرض سيجموند فرويد Sigmund Freud حالة لمريضة أظهرت في بداية مرضها هستيريا القلق (Hystérie d'angoisse)، لتتحوّل فيما بعد إلى عصاب الوسواس.

وهكذا ومن خلال هذه التّسمية "هستيريا القلق"، طرح سيجموند فرويد Sigmund Freud "تناظرا بنيويا" (Analogie structurale) للفوبيا مع هستيريا التّحويل (Hystérie de conversion)، وكانت هذه الحالة نموذجا أوّليا لترجمة نفس المحتوى اللّاشعوري إلى لغتين مختلفتين هما على التّوالي: "هستيريا القلق" و"عصاب الوسواس" (Brunot, 2005,p. 23).

- المرحلة الثّانية: عصاب الوسواس كتجسيد لدين خاص (Névrose obsessionnelle comme l'incarnation d'une religion privée)

تطرح الفرضية الفرويدية في هذه المرحلة، الكبت الأصلي (Refoulement originaire) كمثيل للكبت العضوي (Refoulement organique). حيث ترتكز نظرية الإغراء على أصل حقيقي ومحتمل للصّدمة، وتكشف عن حتمية ناجمة عن مّا يسمّيه سيجموند فرويد Sigmund Freud بـــ " الواقع" (La réalité) أو " الحقيقة المادّية" (La vérité matérielle) التّي يتمّ إزاحتها جزئيا بواسطة مقاربة تهدف إلى تدعيم الدّور الرئيس للتّخيل (Fantasme) الصّادر عن الحياة النّفسية.

ولقد جعل سيجموند فرويد Sigmund Freud من مخطّط الإغراء هذا مخطّطا ثنائيَ القطب بواسطة الجدلية: "نمط سلبي/ نمط نشط" (Mode passif/ mode actif) أو "نمط هستيري"/"نمط وسواسي" (Mode hystérique/ mode obsessionnel)، وأكّد عليه مجدّدا سنة 1924 في ملاحظة أضافها إلى نصّه "ملاحظات جديدة حول العصابات النّفسية الدّفاعية" (Nouvelles remarques sur les psychonévroses de défense) (1896) أين كتب ما يلي: « في ذلك الوقت، لم أستطع بعد أن أفهم الفرق بين الذّكريات الحقيقية وتخيّلات المُحلَّلين (Les analysées) حول سنوات طفولتهم. بعد ذلك أنسبت للعوامل المسبّبة للإغراء طابعا دالّا وصلاحية عامّة لا تخصّه (...) ومع ذلك لا يجوز رفض كلّ ما ورد في النّص أعلاه، لا يزال الإغراء يحتفظ بدلالة معيّنة للمسبّبات ولازلت أتمسّك حتى اليوم بعدد مناسب من التّطوّرات النّفسية» (Freud, 1909, p.213).

وفي رسالته الشّهيرة إلى فليس Fliess (14 نوفمبر1897) كتب سيجموند فرويدSigmund Freud:« تُصدِر الذّكرى (Le souvenir) نفس الرّائحة الكريهة التي يُصدرها شيء حقيقي، تماما كما نبتعد باشمئزاز بعضونا الحسّي (الرّأس والأنف) أمام الأشياء الكريهة،

يبتعد ما قبل الشّعور وفهمنا الشّعوري عن الذّكرى، وهذا ما نسمّيه بالكبت» (Freud, 1909, p.213).

يبدو من خلال هذا القول أنّ الهدف الذي يقصده سيجموند فرويد Sigmund Freud هو تقديم أساس "عضوي" و"فيلوجيني" (Phylogénique) للكبت، وذلك بواسطة التّعبير عنه بالتّكوين العكسي الذي يعتبر نواة عصاب الوسواس. حيث يسمح الأساس الفيلوجيني الذّي قدّمه سيجموند فرويد Sigmund Freud للكبت بربط الكبت العضوي والكبت الأصلي بميكانيزم مشترك للاستثمار المضادّ. ويحدّد في دراسته عن اللّاشعور أنّ الاستثمار المضادّ هو الميكانيزم الوحيد للكبت الأصلي، ممّا يشير إلى فكرة التّعقيد الأصلي للجنس، وكذلك إلى إمكانية خلق مصادر جديدة له (Brunot, 2005, p. 24).

ويلحّ سيجموند فرويد Sigmund Freud على فكرة أساسية مفادها أنّ "جبروت التّفكير" (La toute-puissance des idées) الذي يولّد "جريمة التّفكير"[15] (Crime de la pensée) هو من جهة مصدر جنسنة (La sexualisation) السّيرورات العقلية، ومن جهة أخرى، انفجار الأفعال الوسواسية أو القهرية التّي بظهورها تتحوّل ميكانيزمات الدّفاع ضدّ الفعل الممنوع إلى تكرار يتحوّل هو الآخر من هذا الفعل نفسه. يثير التّناقض العاطفي (L'ambivalence affective) (أي الحبّ والكره) والضّمير الأخلاقي أو الضّمير المقلق (Conscience morale ou conscience angoissante) إشكالية لا ترتبط فقط بالموت والحداد، ولكن أيضا وربّما خاصّة بالحالة البراغماتية للغياب التي تؤدّي بواسطة تشكيل لغة تفكير مجرّدة إلى تشوّه سيرورات الإدراك بواسطة الأنظمة الإسقاطية. ويكتب أيضا سيجموند فرويد Sigmund Freudفي هذا الشّأن:

« سيكون من الصّعب فهم الشّعور بالتنب الذي يغمر العصابي (Le névrosé) إذا أردنا تفسيره بأخطاء حقيقية. قد يغمر المصاب بعصاب الوسواس شعور بالتّنب يمكن تبريره عند مجرم ارتكب عدّة جرائم قتل.في حين أنّه يتصرّف وكان يتصرّف دائما مع من حوله بطريقة أكثر احتراما ودقّة. ومع ذلك، فإنّ شعوره قائم على أسس، فهو يستمدّ دوافعه من رغبات الموت الشّديدة

[15] مصطلح صاغه ج. لابلانش J. Laplanche، ظهر في تصوّره حول القلق الأخلاقي (L'angoisse morale)، وأخذ الفصل الأوّل من "إشكاليات" (Problématiques) - الذي ناقش من خلاله تحليل "رجل الجرذان"- عنوان " Crime de la pensée" و يعرّفه كـــ "فكرة حيادية (Neutre) لا تتأثّر بأيّ طريقة ". فالطّريقة الوحيدة في هذه الحالة هي تعبيرات مختلفة تشير إلى تملّك هذه الفكرة عن طريق الرّغبة: يرغب، يشكّ، يتقبّل. ولقد حلّل ج. لابلانش J. Laplanche جريمة التّفكير وفق ثلاثة مستويات: في المستوى الأوّل الأكثر سطحية يتعلّق الأمر بفكرة الجريمة (pensée du crime) وتمثّلها. وفي المستوى الثّاني تظهر جريمة التّفكير (crime de pensée) كجريمة في الفكر (crime dans la pensée). ويدمج في المستوى الثّالث والأخير أنّ "التّفكير سيصبح جريمة، وسيصبح بذلك انتهاكا" (Brunot, 2005, p. 30).

والمتكرّرة التّي تتّجه في لاشعوره ضدّ أمثاله. لم يتأسّس من حقائق واقعية، بقدر ما تأسس من نوايا لاشعورية.هذه هي الطّريقة التّي يظهر بها جبروت التّفكير، وهيمنة السّيرورات النّفسية على حقائق الحياة الواقعية، بفاعلية غير محدودة في الحياة العاطفية للعصابيين وفي جميع العواقب التّي تنتج عنهما»

(Brunot, 2005, p. 31).

وبناء على فكرة الشّعور بالذّنب، يفترض عصاب الوسواس عند سيجموند فرويد Sigmund Freud نكوص (Régression) الفرد إلى المرحلة الشّرجية (Le stade anal) التّي ترتبط بمفهوم "التّحكّم" (Contrôle). حيث يتميّز هذا العصاب بكبت لتمثّل لاشعوري لا يستطيع الأنا الأعلى تحمّله، ممّا يولّد صراعا نفسيا داخليا يعود إلى الشّعور بالذّنب (Tazi, 2018, p. 20). ولقد اقترح سيجموند فرويد Sigmund Freudفي تحليله لحالة "رجل الجرذان" (L'homme aux rats) عبارة "التّفكير القهري" (La pensée compulsionnelle) ليوسّع معنى تشكيلات التّسوية القهرية (Formations de compromis compulsionnelles) كي تشمل الحركات النّفسية الأكثر تنوّعا: الاندفاعات، الأماني، الإغراءات، الشّكوك، النّظام والممنوعات. وقد رأى من خلال عمله هذا أنّ التّشكيلات القهرية (Formations compulsionnelles) تعود في الأصل إلى التّناقض الوجداني تجاه الموضوع. وهذا ما يوضّح جيّدا آلية التّكوين العكسي التّي يتميّز بها العصاب الوسواسي (سي موسي وبن خليفة، 2010، ص68).

2.6. النّموذج المعرفي السّلوكي:

1.2.6. النّموذج السّلوكي:

يفترض النّموذج السّلوكي في تفسيره لاضطراب الوسواس القهري وجود استثارة عاطفية عالية وغير طبيعية عند المصاب. عندما تصل هذه الاستثارة إلى عتبة حرجة يربط المصاب حالته الدّاخلية من الاستثارة بمثير بيئي وفقا لظاهرة تسمّى بـــ "الإشراط الوهمي" (Pseudo conditionnement).

يفسّر هذا النّموذج اضطراب الوسواس القهري بمفهوم الإشراط الكلاسيكي لبافلوف Pavlov مع ارتباط مثير حيادي (Neutre) (كالأوساخ مثلا) بمشاعر سلبية ومولدّة للقلق. فيصبح هذا المثير مشروطا وقادرا على توليد القلق والمشاعر المزعجة. إضافة إلى ذلك يفسّر النّموذج السّلوكي الوساوس المتكرّرة باضطراب التعوّد (Trouble de l'habituation) حيث تصبح الفكرة المقتحمة مثيرا داخليا غير مَرَضي (Non pathologique) لا ينجح في تحقيق استجابة التعوّد

العاطفي (L'habituation émotionnelle) بسبب القلق المفرط. يحدث استمرار الوساوس (الارتباط بين المثير الحيادي والعاطفة المنفرة) من خلال انخفاض القلق الذي ينجم عن الطّقوس التي يقوم بها المصاب (التعزيز الإيجابي للطّقوس) والتّجنب (تعزيز الإشراط). يعني ذلك أنه كلّما قام المصاب بالطّقوس وكلّما قام بتعزيز الفكرة الوسواسية سيتجنب مواجهتها (Tazi, 2018, p. 10).

يميّز سكينر Skinner فيما بعد بين الإشراط الكلاسيكي الذي قدّمه بافلوف Pavlov وبين الإشراط الإجرائي (Opérationnelle) الذّي يتضمّن مفهوم العقاب والمكافأة. يعني ذلك أنّه من خلال المكافأة أو العقاب سيصبح السّلوك مشروطا، وسيؤدي الإشراط الإجرائي إمّا إلى تحقيق أو إلى إطفاء السّلوك (سأكرّر ما أكافأ عليه وسأكفّ عن ما أعاقب عليه).

كما يفسّر النّموذج السّلوكي استمرار الاضطراب بناءً على عمليّة التّعلّم والإشراط، للأفعال القهرية إذن وظيفة "تخفيف" القلق قصيرة المدى لكنّها تعزّز الاضطراب على المدى الطّويل (Clair& Trybou, 2018, pp. 43-44).

2.2.6. النّموذج المعرفي:

يفترض النّموذج المعرفي أن التشوّه في مخطّطات التّفكير يؤدي إلى نشأة الأفكار المقتحمة لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري. ترابط هذه المخطّطات مع الأفكار المقتحمة ومع حالة القلق الاكتئابي الذي ينجم عنها سيؤدي إلى الأفكار الأوتوماتيكية. لتوضيح هذه الفكرة يمكننا الإستعانة بالمثال التّالي: "مشيت فوق بقعة حمراء، إذن ربما هي دماء، إذن ربما سأصاب بالإيدز". تنشيط المخططات المعرفية المشوّهة سيولد ميكانيزمات تُدعى بـــ"ميكانيزمات الانتباه". هذه الأخيرة ستعمل على تركيز مفرط للانتباه فتقود المصاب نحو يقظة شديدة اتجاه بعض المثيرات، وهذا ما يؤدي إلى استمرار الاضطراب وبقائه. إن الضّيق والشعور بالذّنب و/ أو المسؤولية في حدوث خطر ينتج عن الأفكار الأوتوماتيكية التّي تقلق وتزعج المصاب فتؤدّي به إلى البحث عن ردود فعل عقلية أو سلوكية لتحييد هذا القلق والمشاعر المزعجة (Clair& Trybou, 2018, p. 35).

ولقد كان كار Carr أوّل من قدّم النّموذج المعرفي لاضطراب الوسواس القهري سنة 1974، ووصف مبالغة المصاب في تقدير الخطر (La surestimation du danger)، وبذلك

تصبح الأفعال القهرية والطّقوس وسيلتان لمنع الخطر وتخفيض القلق المرتبط بتفسير المصاب للأفكار المقتحمة ذات المحتوى الكارثي.

وفي سنة 1985، أثبت بول سالكوفسكي Paul Salkovskis صحّة هذا النّموذج، وقدّم هو الآخر نموذجا معرفيا يرتكز على فرضية عامّة مفادها أنّ وجود الأفكار المقتحمة عند الفرد هو أمر طبيعي، لكن عند المصاب باضطراب الوسواس القهري يحدث خلل في ترجمة هذه الأفكار، فتنجم الوساوس عن تفسير كارثي (Catastrophique)، ويبالغ المصاب في تقدير أفكاره. فكلّ فكرة مقتحمة يقيّمها المصاب بشكل سلبي ستؤدّي إلى تفكير سلبي وقلق، وستدفعه إلى أفعال قهرية لتخفيف هذا القلق وتحييد الأفكار السّلبية (Martinroche, 2020, pp. 28-29).

يمكن توضيح هذا النّموذج من خلال المفاهيم التّالية:

- ترجمة الأفكار الطّبيعية بأنها غير طبيعية وخطيرة:

إنّ الأفكار المقتحمة هي عالمية ومألوفة. يعني ذلك أنّ هذه الأفكار التّي نجدها عند المصاب باضطراب الوسواس القهري، هي أفكار عادية لدى عامّة النّاس ولا تمثّل أي محتوى غير طبيعي في حدّ ذاتها. فعند قول المصاب مثلا:« هل أغلقت الباب بشكل غير صحيح؟ إذا وقع ذلك سأتعرّض لخطر السّطو» ، سيظهر لديه قلق مع تشكيل مخطّط معرفي ذو محتوى كارثي (السّطو). ولهذا السّبب سيتحقّق المصاب بعد ذلك من غلق الباب حتّى يشعر بالرّاحة.

- مشاعر مبالغ فيها تتعلّق بالمسؤولية والشّعور بالذّنب:

تمثّل المخطّطات المعرفية تمثّلات لاشعورية لدى أيّ فرد، حيث تعكس هذه الأخيرة فكرة الفرد عن ذاته، عن الآخرين، وعن العالم من حوله. وستتمركز كبنيات في الذّاكرة طويلة المدى، وسيلعب توازنها دورا مهمّا في بناء الشّعور بالهويّة. بسبب تنشيط جامد ومكثّف تنشط بعض المخطّطات الخاصّة بالمعاناة، وذلك لأنّ المصاب باضطراب الوسواس القهري يشعر بالمسؤولية تجاه كلّ ما يحدث في عالمه المباشر، ويشعر بتأنيب الضّمير، ويفسّر حدوث الأسوأ بتقصير منه في استخدام كلّ طاقاته لمنع خطر قد يهدّده أو يهدّد من حوله.

- استجابات انفعالية مكرهة:

ينشط اضطراب الوسواس القهري حسب النّموذج المعرفي مشاعر سلبية ومؤلمة يمكن أن تحتوي القلق، العار، الخوف، الهلع، التّقزّز... الخ (بوقفة، 2020، ص ص124-125).

- اللّجوء إلى الأفعال القهرية والطّقوس والتّجنّب:

تهدف الأفعال القهرية أو الطّقوس وحتّى التّجنب إلى خفض القلق وتحقيق الرّاحة للمصاب، لكّنها في نفس الوقت تعزّز الفكرة المقتحمة من خلال تأثير " عدم- العقاب" (Non-punition):« تحققّت من غلق الباب مرّتين إذن لم أتعرّض للسّطو»، وتعزيز المثير المثير للفكرة (Martinroche, 2020, p. 29).

يمكننا في الأخير تلخيص نموذج بول سالكوفسكي Paul Salkovskis في الشّكل الموالي:

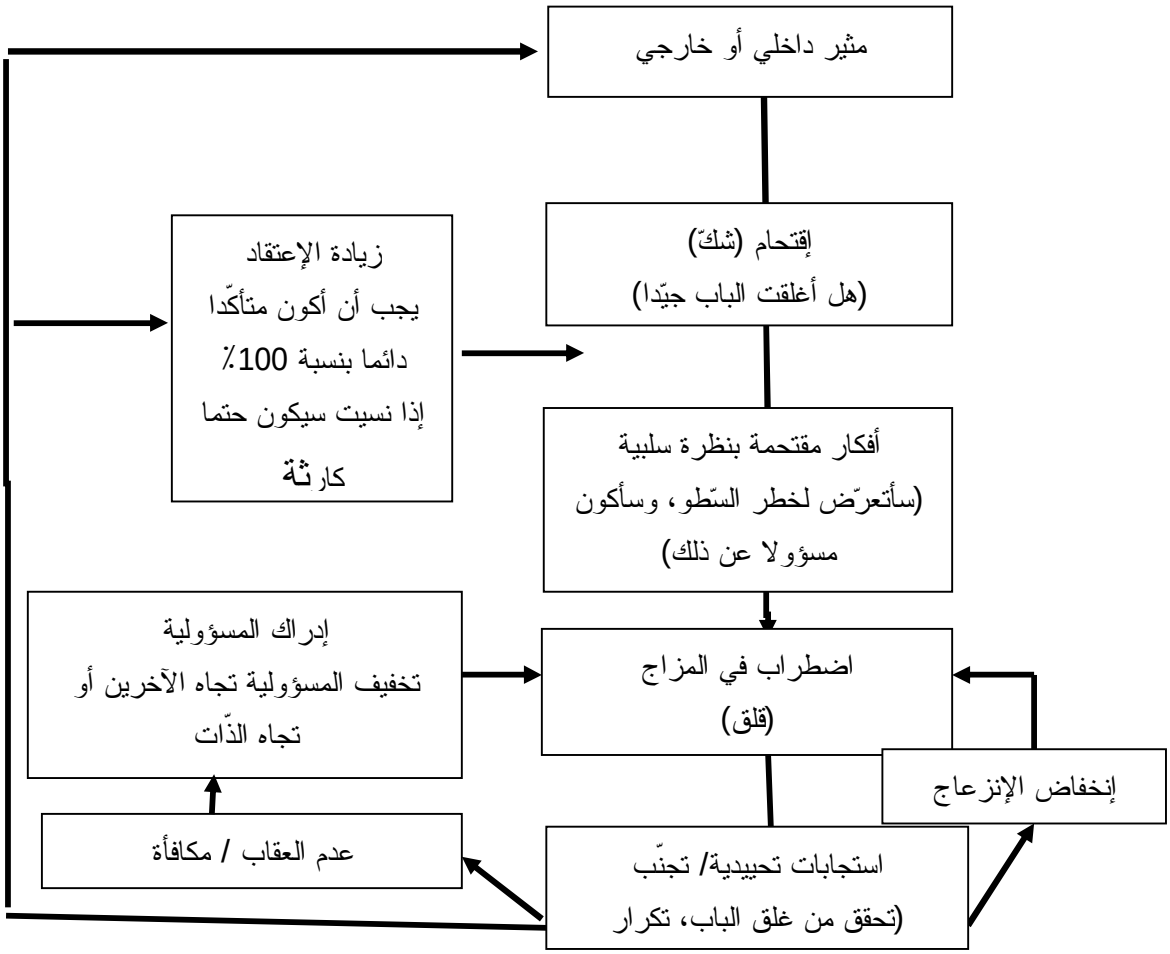

شكل رقم (02): كيفية أداء اضطراب الوسواس القهري حسب تمثّل نموذج Paul Salkovskis.

المصدر: (Martinroche, 2020, p. 29).

3.6. النّموذج العصبي التّشريحي:

قبل التّطرّق إلى النّموذج العصبي التّشريحي (Modèle neuroanatomique)، تجدر الإشارة أوّلا إلى أنّ النّماذج العصبية لا تتعارض مع النّماذج النّفسية في تفسير اضطراب الوسواس القهري، بل هي نماذج أساسية مكمّلة ضرورية من أجل فهم معمّق لهذا الاضطراب.

لقد سمحت تقنيات التّصوير الحالية بما فيها التّصوير المقطعي بالإصدار البوزيتروني (Tomographie par émission de positions (TEP))، صور الرّنين المغاطيسي (Images par résonnances magnétiques (IRM))، والتّصوير المقطعي الأحادي الفوتون (La tomographie par émission monophotonique (TEMP))، بتدعيم هذا النّموذج الذي ينطلق من نموذجين أساسين هما نموذج باكستر Baxter ونموذج شوارتز Schwartz.

1.3.6. نموذج باكستر Baxter:

يعتبر النّموذج الذي قدّمه بكستر Baxter سنة 1987 نموذجا مرجعيا لتفسير السّببية المرضية لاضطراب الوسواس القهري حاليا، حيث أظهرت دراسته من خلال مقارنة 14 مصابا باضطراب الوسواس القهري مع 14 مصابا بالاكتئاب و14 فردا سويّا (مجموعة ضابطة) بواسطة "TEMP" فرط حركة على النّواتين المذنبتين (Noyaux codés) في حالة اضطراب الوسواس القهري (Martinroche, 2020, p. 32).

وفي دراسة أخرى (1992) أجريت على مجموعتين من عشرة مصابين، اعتبر بكستر Baxter الوساوس كأفكار مقتحمة تنشأ من القشرة المخيّة الجبهية (Cortex orbito-frantal (COF)) والقشرة الحزامية الدّاخلية (Cortex cingulaire antérieur (CCA)) اللّتان تظهران بنشاط مفرط في اضطراب الوسواس القهري (Martinroche, 2020, p. 32). ويقترح أنّ هذا النّشاط المفرط لدى المصاب بهذا الاضطراب يرتبط بانشغالات غير محدّدة من القلق، وهي ظاهرة قريبة من الوساوس. كما يأخذ مخطط الدّماغ (Striatum) دورا أساسيا بتلقّيه المعلومات من منطقة "COF" ومنطقة "CCA"وكذلك مساهمته في تسهيل الرّوتين. كما تكون قشرة الفصّ الجبهي الظهراني (Cortex préfrontal dorso-latéral (CPFDL)) قليلة النّشاط وتلعب بذلك دورا في تثبيط هذا الرّوتين والقدرة على تغيير السّلوك (Clair& Trybou, 2018, p. 28).

أمّا القهر، فيعتبره باكستر Baxter كـــ "وحدات ماكرو" (Macros) تولّدها العقد القاعدية (Ganglions de la base) بطريقة أوتوماتيكية استجابة لمثيرات منطقتي الـــ "COF و "CCA". هذه الوحدات التّي يكون لها في الأصل وظيفة تسهيل الأفعال الرّوتينية، لم تعد تتكيّف مع السّياق فتفشل في تثبيط إرادة الشّخص المصاب باضطراب الوسواس القهري (Clair& Trybou, 2018, p. 28).

2.3.6. نموذج شوارتز Schwartz:

يلعب مخطط الدّماغ (Striatum) دورا محوريا في نموذج شوارتز Schwartz. حيث يتمّ تعديل نشاط هذا الأخير بوجود مثيرات تكون مرتبطة إمّا بمكافأة أو بعقوبة، أي يرتبط بتعلّم سلوكيات محفّزة وهو ما يُعرف بالإشراط الإجرائي (Clair& Trybou, 2018, pp. 28-29).

وبإضافة 9 أفراد قام شوارتز Schwartz بتوسيع أعمال بكستر Baxter سنة 1998، وبيّن انخفاضا في النّواة المذنبة عند مرضى الوسواس القهري الذين يستجيبون للعلاج المعرفي السّلوكي مقارنة مع غير المستجيبين له. كما وضّح وجود علاقة دالّة لنشاط الدّماغ بين النّواة المذنبة والتّلفيف المداري (Gyrus orbitaire) (الموجود في "COF") وبين النّواة المذنبة والمهاد (Thalamus) (Martinroche, 2020, p. 34).

تعمل النّواة المذنبة كناقل أوتوماتيكي للمنطقة الأمامية أو الجزء المفكّر من الدّماغ مع البطامة (Putamen) التّي تمثّل النّاقل الأوتوماتيكي لأجزاء الدّماغ التّي تتحكّم في حركة الجسم. تقوم النّواة المذنبة بالتّنسيق الجدّ فعّال بين الأفكار والحركة أثناء الأنشطة اليومية، وهذا ما لا نجده عند المصاب باضطراب الوسواس القهري، إذ يحدث خلل في عمل هذه الأخيرة، فلا تقوم بتحويل السّرعة بالشّكل الصّحيح وتبقى الرّسائل من الجزء الأمامي من الدّماغ عالقة، أي يبقى الدّماغ عالقا في الفكرة ولا يستطيع المرور إلى الفكرة التّي تليها (بوقفة، 2020، ص107). فلمّا يعلق عقل المصاب في فكرة ما كأن يقول له مثلا: "عليك أن تغسل يديك مرّة أخرى"، فيقوم بذلك بالرّغم من عدم وجود ضرورة أو سبب مقنع لذلك. أو يقول له مثلا: "يجب عليك أن تتحقّق من أنّ قفل الباب مغلق"، فيقوم بالتّحقّق لعدّة مرّات دون قدرته على تجاوز الشّعور بأنّ الباب غير مغلق.

أظهرت دراسات التّصوير الطّبي التي أجراها حزاري وآخرون Hazari et al منذ سنة 1987 إلى غاية 2017، زيادة في أيض الجلوكوز (Métabolisme du glucose) في منطقة " COF"اليسرى، منطقة "CCA"، النوى المذنبة، القشرة الحركية اليسرى، البطانة، والمهاد، بالإضافة إلى تدفق الدّم في النواة المذنبة وانخفاض في الأيض بعد العلاج في الجانب الأيمن من منطقة "COF"، النواة المذنبة اليمنى، والحصين الحزامي (gyrus cingulaire).

وتُشير دراسة جديدة لجوروك وآخرون Gurok et al سنة 2019 إلى دور الحصين (Hippocampe) واللّوزة (Amygdale) في اضطراب الوسواس القهري والذّي يرتبط بانخفاض حجمها مقارنة بالأسوياء (Martinroche, 2020, p. 34).

4.6. النّموذج العصبي البيولوجي:

1.4.6. النّظام السّيروتونينارجي (Système sérotoninergique):

السّيروتونين أو ما يسمّى أيضا بـــ " 5-hydroxytryptamine " (5-HT) هو ناقل عصبي يوجد على المستوى المحيطي وعلى مستوى الجهاز العصبي المركزي (Système nerveux central (SNC))، له عدّة أدوار تتمثّل في: تنظيم الحرارة، استقبال الألم، الذاكرة والتّعلّم، دورة اليقظة- النّوم، المزاج، تناول الغذاء، الجهاز القلبي الدوراني، الجهاز الهضمي، الجهاز الدّموي، وكذلك على مستوى العضلات الملساء (Les muscles lisses).

يعمل السّيروتونين عن طريق خمسة عشرة نوعا فرعيا من المستقبلات المصنّفة في سبعة عائلات مختلفة تتمثّل في مستقبل 5-HT3 وهو مستقبل التأيّن الوحيد أو مستقبل القناة، بالإضافة إلى مستقبلات أيضية أخرى هي 5-HT1، 5-HT2، 5-HT4، 5-HT5، 5-HT6، 5-HT7.

لهذا النّظام السّيروتونينارجي دور في الإصابة بالعديد من الاضطرابات النّفسية والعقلية والعصبية، فبالإضافة إلى القلق، الاكتئاب، التّوحد، الاضطرابات الثّنائية القطب، متلازمة تورات (Syndrome de Gilles de la Tourette)... يعتبر اضطراب الوسواس القهري أحد الاضطرابات التّي النّاجمة عن وجود خلل وظيفي في هذا النّظام. ذلك أنّ تركيز أحد مستقبلات السّيروتونين (Métabolites de sérotonines) يكون مرتفع في السّائل الدّماغي النّخاعي (Liquide céphalo-rachidien) للمصابين باضطراب بالوسواس القهري مقارنة بالأسوياء. وينخفض هذا التّركيز

بواسطة مثبّطات إعادة امتصاص السّيروتونين الإنتقائية (Inhibiteur sélectif de la recapture de la sérotonine (ISRS))، وهو الأمر الذي جعل فرضية النّظام السّيروتونينارجي في اضطراب الوسواس القهري ترتبط بشكل أساسي بفعالية مضادّات الاكتئاب من هرمون السّيروتونين (الأدوية السّيروتونينارجية) التّي تعدّ حاليا العلاج الأوّل للاضطراب، وذلك بالرّغم من أنّ التّأثير العصبي البيولوجي المسؤول عن تحسّن الأعراض لا يزال غير معروف (Martinroche, 2020, pp. 38,40).

2.4.6. النّظام الدّوباميناجي (Le système dopaminergique):

يتكوّن نظام الدّوبامين (Dopamine) من الخلايا العصبية الموجودة في الدّماغ المتوسّط (Mésencéphale) والدّماغ البيني (Diencéphale) والبصلة الشّمّية (Le bulbe olfactif). تُشكّل الخلايا العصبية الدّوباميني (Les neurones dopaminergiques) للدّماغ المتوسّط – البيني المادّة السّوداء (La substance noire). ينشأ نظام الدّوبامين في الجهاز العصبي المركزي ويمتدّ عبر العقد القاعدية إلى النّواة المذنبة والبطامة ويلعب بذلك دورا مهمّا في التحكّم في الحركات الإرادية.

يُعرف هذا النّظام الذي ينشأ في الجهاز العصبي المركزي ويمتدّ عبر العقد القاعدية إلى النّواة المذنبة والبطامة، بدوره المهمّ في التحكّم في الحركات الإرادية، ليكون له بذلك دورا كبيرا في الإصابة بالأمراض العصبية الانتكاسية (Neurodégénératives) كمرض باركينسون (Maladie de parkinson). وإلى جانب ذلك يلعب كذلك الدّوبامين دورا في الإصابة باضطراب الوسواس القهري، حيث تؤدّي جرعات عالية من نواهض الدّوبامين (Agonistes dopaminergiques)، والأمفيتامينات (Amphétamines) إلى النّمطية (Stéréotypies) عند الحيوان، وإلى تكرارات سلوكية غير متحكّم فيها عند الجرذان، كما تمّ ملاحظة سلوكيات متكرّرة وطقوس عند الأشخاص الذين يتناولون المنشّطات النّفسية أو عقّار "اللّوفودوبا" (Levodopa). يُفترض أيضا أنّ الدّوبامين يلعب دورا في الارتباط مع السّيروتونين عبر حلقة قشرة-المخطّط-المهاد- القشرية (Cortico-Striato-thalamo-corticales (CSTC)) بالرّغم من أنّ هذه الآلية لا تزال غير معروفة. يتمّ تدعيم هذه الفرضية من خلال زيادة تثبيت الدّوبامين أو

المستقبلات الدّوباميناريجية (D2) أثناء العلاج الفعّال بالمثبطات الانتقائية لإعادة امتصاص السّيروتونين (ISRS) (Martinroche, 2020, pp. 40-41).

3.4.6. نظام الغلوتامات (Système glutamatergique):

تركزّ الفيزيولوجيا المرضية لاضطراب الوسواس القهري حاليا -بالإضافة إلى دور النّظام السّيروتونينارجي- بشكل أساسي على خلل وظيفي في حلقة "CSTC". غير أنّ وجود مقاومة للأدوية السّيروتونينارجية أدّى إلى توجّه البحوث حول دور أنظمة أخرى، بما فيها نظام الغلوتامات. يمثّل هذا الأخير النّاقل العصبي المثير للدّماغ البالغ. وفي حالة اضطراب الوسواس القهري يحدث خلل في الوظيفة الغلوتاميكية عند المصابين.

وأسفرت دراسة ناعيجان وآخرون Naaijen et al (2017) عن وجود علاقة بين تركيز الغلوتامات في "CCA" ووجود سلوكيات قهرية. كما أسفرت دراسة أخرى لـــ اسكوبار وآخرون Escobar et al (2019) عن مساهمة النّاقل "EAAT3" في الفيزيولوجيا المرضية لاضطراب الوسواس القهري، حيث ينظّم هذا النّاقل مستويات الغلوتامات خارج الخلايا. كما يمكن أن تكون مساهمته في تنظيم مستويات الغلوتامات على المستوى المشبكي (Niveau synaptique) من خلال تغيير في عمله على مستوى المشابك (Synapes) هي أصل البيولوجيا العصبية لاضطراب الوسواس القهري، خاصّة وأنّ الأدوية التي تستهدف مستقبلات الغلوتامات (Les récepteurs glutamatergiques) في علاج هذا الاضطراب قد أظهر استجابات مُشجّعة تؤكّد دور هذا النّظام (Martinroche, 2020, pp. 42-43).

5.6. النّموذج الجيني:

تشير بعض الأدلّة العلمية إلى انتقال اضطراب الوسواس القهري عبر الجينات، ممّا يعني أنّ الاستعداد البيولوجي الذي يولد به الفرد يجعله أكثر عرضة للإصابة بهذا الاضطراب. حتّى وإن أصيب بعض الأفراد في سنّ متأخر، إلاّ أنّ عمل الجينات وتأثيرها علينا يعتبر أمرا في غاية التّعقيد لا يمكن استبعاده في الإصابة باضطراب الوسواس القهري (بوقفة، 2020، ص108).

وفي هذا الاتّجاه، قدّمت الدّراسات التّي أجريت على التّوائم أدلّة قويّة تفيد بدور الجينات في ظهور هذا الاضطراب وانتقاله عبر الجينات. ولقد أظهرت دراسة كاري وجوتسمان Carey

et Gottesman (1981)، خطر إصابة مرتفع عند إصابة أحد التّوأمين قُدّر بنسبة 80% عند التّوائم المتآخية (Les jumeaux homozygotes) وحوالي 50% عند التّوائم غير المتآخية (Les jumeaux hétérozygotes). وفي دراسة أخرى (2000) أجريت على 527 زوجا من التّوائم ، كانت نسبة الوراثة الجينية للوساوس 33% و 26% بالنّسبة للأفعال القهرية. بينما أشارت في دراسة إلي وآخرون Eley et al (2003) على 4567 زوجا من التّوائم إلى 65% من السّلوكيات القهرية وارتبطت النسبة المتبقّية وهي 35% بتغيّرات بيئية غير معروفة.

ولقد بيّنت مجموعة من الدّراسات التّي تطرّقت للتّاريخ العائلي "الطّابع العائلي" للاضطراب، وأظهرت أنّ خطر الإصابة باضطراب الوسواس القهري لشخص لديه طفل أو مراهق يعاني من هذا الاضطراب هو أعلى بعشر مرّات مقارنة بعامّة السّكان، ويتضاعف هذا الخطر عندما يكون الشّخص المصاب باضطراب الوسواس القهري بالغا (Martinroche, 2020, p. 36).

ولتدعيم الفرضية الجينية تمّ إجراء العديد من الدّراسات حول تعدّد الأشكال الجينية على مدى السّنوات العشرة الماضية مع تحليل أكثر من 80 جينة مختلفة نذكر منها ما يلي:

- الجينات المرتبطة بالنّظام السّيروتونينارجي: جينة "SLC6A4".
- الجينات المرتبطة بالنّظام الدوبامينارجي: جينة "SLC6A3".
- الجينات المرتبطة بنظام الغلوتامات: جينة "SLCA1A1" (Martinroche, 2020, pp. 37-38).

نستنتج مّا سبق أنّ مجمل هده الدّراسات أظهرت سببية جينية معقّدة لاضطراب الوسواس القهري. وما هو مؤكّد أنّ الأمر لا يتعلّق بمرض جيني في حدّ ذاته، بل بهشاشة جينية (Vulnérabilité génétique). ولابدّ من دراسات جديدة لتأكيد دور بعض الجينات ولفهم كيف يمكن لتغيّر التّعبير الجيني أن يؤدّي إلى اضطراب الوسواس القهري. كما لا يمكن إهمال تأثير البيئة في الإصابة بهذا الاضطراب.

7. التّشخيص الفارقي لاضطراب الوسواس القهري:

لاضطراب الوسواس القهري أعراضا معقّدة في تقاطعها مع اضطراب سلوكي مع تظاهرات واضحة هو الأفعال القهرية، واضطراب معرفي- انفعالي هو الوساوس. علاوة على ذلك، لا ترتبط هذه التّظاهرات بشكل منظّم مع بعضها البعض عند نفس المصاب (وجود وساوس و/ أو

أفعال قهرية). كما يمكن أن يظهر هذا الاضطراب من خلال عدّة مواضيع، ولو كانت مواضيع التّلوّث/ النّظافة، والوساوس العدوانية/ التحقّق هي الأكثر ملاحظة. هذا التّنوّع السّريري، بالإضافة إلى سنّ ظهور الأعراض الأولى ونسبة الجنس (الرّجال أكثر إصابة من النساء) هي عوامل يمكنّها أن تجعل من التّشخيص الفارقي لاضطراب الوسواس القهري عملية جدّ معقّدة (Clair et al, 2016, p. 13). ومن أجل تشخيصه تشخيصا دقيقا وسليما لابد من تمييزه عن الاضطرابات التّالية:

- **الشّخصية الوسواسية القهرية (Personnalité obsessionnelle compulsive):**

تُعرّف الشّخصية الوسواسية القهرية ((Personnalité obsessionnelle (POC compulsive حسب الدّليل الخامس (DSM5): "بأنّها نمط عام من الكمالية المفرطة، المستمرّة، والمراقبة الصّلبة غير المتكيّفة والمنتشرة". يظهر اضطراب الشّخصية الوسواسية القهرية عادة في مرحلة البلوغ، ويتميّز بالصّلابة، المثالية، التّنظيم، حياة يومية طقسية (Ritualisée)، صعوبة في تفويض المهام للآخر، لكن دون وجود وساوس وأفعال قهرية حسب معايير (DSM). وتتميّز هذه الأخيرة عن اضطراب الوسواس القهري بغياب المعاناة النّفسية، حيث يجد المصاب أفعاله مناسبة تماما ومفيدة، وبالتّالي ليست له أي رغبة في محاربتها. فمن غير المألوف أن يعاني المصاب بالشّخصية الوسواسية القهرية بشكل مباشر من هذه الشّخصية المرضية (APA, 2015, p. 283).

وعلى عكس ما يمكن اعتقاده، لا ترتبط الشّخصية الوسواسية القهرية بشكل شائع باضطراب الوسواس القهري، ليكون أهمّ اضطراب مرافق له من بين اضطرابات المحور (Troubles de l'axe) هو الشّخصية التّجنبية بنسبة حوالي 30% من الحالات (Clair& Trybou, 2018, p. 18).

- **اضطرابات القلق (Troubles anxieux):** تشمل الاضطرابات التّالية:

- اضطراب الهلع (Trouble de panique): يكون الاختلاف مع اضطراب الوسواس القهري من التّنشيط في سياق مواقف محدّدة لاضطراب الهلع كالزّحام، مساحات فارغة... حيث لا توجد طقوس في اضطراب الهلع.

- اضطراب القلق المُعمّم (Trouble Anxieux Généralisé (TAG)): إنّ التّمييز بين الوسواس القهري (TOC) واضطراب القلق المُعمّم (TAG) ليس دائما واضحا، ويستوجب تحقيقا سريريا دقيقا. حيث يشتكي جميع هؤلاء المرضى من قلق شديد ومُعيق (Handicapant)، ويوجد عند بعضهم قلق توقّعي (Angoisse anticipatoire) وتجنّب لمواقف معيّنة. يرتبط القلق المرضى عند الذين يعانون من اضطراب القلق المعمّم بالعديد من أحداث الحياة اليومية (كالوصول متأخّرا، توقّع مشاكل مالية أو صحّية) دون وجود أي مواضيع محدّدة كما هو الحال في اضطراب الوسواس القهري. ومن جهة أخرى، فإن مفهوم المسؤولية في المواقف المثيرة للقلق الذي يعتر أمرا شائع جدّا عند مرضى الوسواس القهري، هو أمر نادر الوجود في حالات القلق المُعمّم (Clair et al, 2016, p. 15).

يعتمد التّشخيص الفارقي بين اضطراب الوسواس القهري واضطراب القلق المُعمّم على طبيعة الأفكار. فالأفكار والصّور واجترار الحياة اليومية هي مظاهر خاصّة باضطراب الوسواس القهري وليس القلق المُعمّم. كما أنّ القلق الموجود عند المصاب باضطراب القلق المُعمّم يوافق بشكل كبير مع "المونولوج اللّفظي الدّاخلي" (Monologue verbal intérieur)، في حين أنّ الوساوس غالبا ما تكون على شكل صورة أو ومضة (Flash)، هذا بالإضافة إلى غياب الأفعال القهرية في اضطراب القلق المُعمّم (Martinroche, 2020, p. 62).

لقد حدّد لادوسور وكول Ladouceur et Coll مجموعة من الفروق التّشخيصية يمكن إيجازها في الجدول التّالي:

جدول رقم (01): الفرق بين اضطراب الوسواس القهري واضطراب القلق المُعمّم حسب Ladouceur et Coll

اضطراب الوسواس القهري (TOC)	اضطراب القلق المعمّم (TAG)
وساوس: ومضة أو صورة	قلق: مونولوج داخلي
إيجوديستونيا (Egodystone) مع معتقدات المصاب	إيجوسانتونيا (Egosyntone) مع معتقدات المصاب
محتوى الوساوس ثابت	محتوى القلق متغيّر
يعتقد أن فكرته ستُسبِّب فعلا ما يخشاه	التفكير في الأمر يمنع وقوع الحدث

المصدر (Martinroche, 2020, p. 62).

من خلال الجدول (01) يمكن أن نختصر الفرق الجوهري بين اضطراب الووساس القهري واضطراب القلق المعمّم في أنّ هذا الأخير لا يرتبط بمحتوى وسواس ثابت وهذا ما لا يؤدّي إلى ظهور أفعال قهرية ترتبط بالفكرة الوسواسية المستمرّة.

- الفوبيا (La phobie): الفوبيا هي عبارة عن ردود أفعال، أو خوف مرضي يثير القلق عند الفرد عندما يواجه مواضيع رهابية لا تُخيف في العادة أغلب الناس. وقد يرتكز هذا القلق بدقّة إمّا على موضوع أو موقف ما، وهذا ما لا نجده عموما في اضطراب الوسواس القهري حيث يرتبط القلق بفكرة أو صورة معيّنة.

يعدّ التّجنب الرّهابي (L'évitement phobique) كافيا بشكل عامّ للتّخفيف من القلق، هناك أيضا التجنّب في اضطراب الوسواس القهري عندما يكون الاضطراب معتدلا إلى شديد. وللتّمييز بين التّجنب الذي هو جزء من الفوبيا مقابل اضطراب الوسواس القهري، من الضروري البحث عن الأفعال القهرية التي سبقت التّجنب (Clair& Trybou, 2018, pp. 15-16).

يمكن الكشف عن وجود اضطرابات قلق أخرى بواسطة استبيان تقييم الخوف (Le questionnaire d'évaluation de la peur (QEP))، إذ يتضمّن هذا الاستبيان جزأين: جزء يتكوّن من أسئلة مغلقة، يجيب عليها المصاب بإعطاء درجة تتراوح من 0 إلى 8 لكلّ سؤال، وجزء وصفي يتضمّن مجموعة من الأسئلة (Martinroche, 2020, p. 63).

- **توهّم المرض (L'hypochondrie):** يكمن الاختلاف في وجود أحاسيس جسدية تعتبر مصدر الأفكار المؤلمة لدى المصاب بتوهّم المرض. أمّا المصاب باضطراب الوسواس القهري فلا يُظهر أحاسيس جسدية تُثير الوساوس (Martinroche, 2020, p. 63).
- **اضطرابات السّلوك الغذائية (Les troubles de conduite alimentaires (TCA)):** يمكن تمييز

الوسواس القهري عن فقدان الشّهية العصبي (Anorexie mentale) من حيث أنّ الوساوس والأفعال القهرية لا تقتصر على انشغالات متعلّقة بالوزن والطّعام (APA, 2015, p. 283).

- **اضطرابات المزاج (Troubles de l'humeur):** وتتمثّل فيما يلي:

- الاكتئاب (La dépression): غالبا ما يتمّ الخلط بين التّباطؤ الاكتئابي (Ralentissement dépressif) والبطء الوسواسي (Lenteur obsessionnelle). وفي هذه الحالة، من المفيد تحديد وقت

ظهور التّباطؤ مقارنة بوقت ظهوره في اضطراب الوسواس القهري، وكذلك البحث عن أعراض الاكتئاب (لصالح اضطراب الوسواس القهري)، خاصّة عرض الحزن المرضي اليومي وفقدان الاهتمام.

ومع وجود الاجترار الفكري في كلا الاضطرابين يصعب تحديد تشخيص دقيق، إلاّ أنّ هذا الأخير عند مرضى الاكتئاب يتوافق مع مزاجه، وغالبا ما يتعلّق بالماضي أو الفشل أو ببعد القلق بالدّرجة الثّانية مع عدم ارتباطه بالأفعال القهرية. كما أن الشّعور بالذّنب هو أيضا شعور مشترك بين كلا الاضطرابين، لكّنه يُنتقد على نطاق واسع من قبل مرضى الوسواس القهري، وهو الأمر الذي لا يوجد على الإطلاق أوجدّ ناذر عند مرضى الاكتئاب (Clair& Trybou, 2018, p. 15).

يسمح استبيان بيك Beck الذي يتمّ تطبيقه في سياق اكلينيكي بتشخيص الاكتئاب عند المصاب باضطراب الوسواس القهري وأيضا بتقييم شدّته. تتكوّن هذه الأداة من أسئلة يتعيّن على المصاب الإجابة عليها بإعطائها درجة تتراوح من 1 إلى 4 وفقا لسلّم مئوي يعكس مدى انطباق السّؤال عليه.

إذا كانت النّتيجة الاجمالية تتراوح من 0 إلى 9، فإن المصاب لا يعاني من اكتئاب، أمّا إذا 41 فأكثر فإنّ المصاب يعاني من اكتئاب شديد (Martinroche, 2020, p. 63).

- اضطراب ثنائي القطب (Trouble bipolaire): لابدّ أن تستدعي مقاومة الأعراض تحت العلاج بمضادات الاكتئاب وجود الثّنائية القطبية عند المصاب (Martinroche, 2020, p. 63).

- **الاضطرابات ذات الصّلة بالوسواس القهري حسب DSM5 (Troubles apparentés au TOC):**

تجمع هذه الفئة الجديدة من الدّليل الخامس (DSM5) مجموعة من الاضطرابات حول اضطراب الوسواس القهري، بما فيها الوسواس المتعلّقة بالتّشوه الجسمي (Dysmorphophobie)، الاكتناز المرضي أو ما يعرف باضطراب اكتناز الوسواس القهري (La thésaurisation pathologique ou syllogomanie ou TOC d'accumulation)، النّتف القهري للشّعر (Trichollomanie)، وكشط الجلد (Dermatillomanie).

يدفعنا هذا التّصنيف قبل وضع تشخيص نهائي لاضطراب الوسواس القهري على توخّي الحذر بشأن موضوع الأعراض، ذلك أنّ الفرد الذي يشعر بالقلق الذي تثيره وساوسه المتعلّقة بمظهره الجسدي، أو من سلوك نتف شعره، يعاني من وساوس التشوّه الجسدي أو من اضطراب نتف الشّعر وليس من اضطراب الوسواس القهري. ونفس الأمر بالنّسبة لمرضى الاكتناز المرضي، حيث تختلف بروتوكولات العلاج لكلّ من هذه الاضطرابات (Clair& Trybou, 2018, p. 16).

يختلف اضطراب نتف الشّعر مع اضطراب الوسواس القهري في وجود لذّة عند نتف الشّعر مع غياب الوساوس التّي تسبق الأفعال القهرية.

ترتكز الأعراض المرضية حصريّا في اضطراب الاكتناز القهري على الصّعوبة المستمرّة في التّخلّص من الممتلكات أو الانفصال عنها، حيث يرتبط القلق الشّديد والملحوظ بالتّخلّص منها مع اكتناز مفرط للأشياء. لكن إذا كان للفرد وساوس نموذجية لاضطراب الوسواس القهري (مثلا مخاوف من عدم الاكتمال أو إلحاق الأذى) وإذا كانت هذه الوساوس تؤدّي إلى سلوكيات اكتناز (مثلا الحصول على جميع الأشياء للوصول إلى الاكتمال أو عدم التّخلي عن الجرائد القديمة لأنّها قد تحتوي على معلومات يمكن أن تمنع خطرا) سيكون التّشخيص لصالح اضطراب الوسواس القهري (APA, 2015, pp. 282-283).

- **الاضطرابات الذّهانية (Troubles psychotiques):**

على الرّغم من وضوح التّشخيص الفارقي بين الاضطرابين، إلاّ أنّ هذا الأخير يطرح مشكلة في بعض الأحيان مع بعض مرضى الوسواس القهري ذوي أنصايت ضعيف أو مستوى معرفي منخفض. ويجب الحذر من عدم الوقوع في "فخّ غرابة المواضيع"، فالوساوس ذات المواضيع غير العادية، أو صعوبة التّعبير عنها ليس بالضّرورة فكرة هذيانية (Idée délirante). لذلك يصبح من الضّروري التّركيز على خصائص هذه الأفكار والسّلوكيات: هل ينتقدها المريض؟ هل هي منعزلة أو مرتبطة بأعراض أخرى؟

يؤدي عدم انتقاد الأعراض من طرف المصاب بالذّهان إلى البحث عن أعراض أخرى يمكن أن تغيب في اضطراب الوسواس القهري، وهذا ما يدعّم تشخيص الاضطراب الذّهاني

(Clair& Trybou, 2018, pp. 16-17). كذلك تغيب الهلاوس واضطراب الفكر في اضطراب الوسواس القهري بصورة واضحة كما هو الحال في الفصام (APA, 2015, p. 283).

- **اللّزمات (Les TICS):**

هي عبارة عن تظاهرات حركية و/أو صوتية شبه إرادية (Semi-volontaire)، يشعر المريض بقدومها (إحساس مبكّر)، وبالحاجة القويّة لأدائها، ثمّ الرّاحة بمجرّد تنفيذها. يختلف تواتر اللّزمات بين الأفراد، ولكن أيضا عند الفرد نفسه، فهي تتوقّف على مدّتها اليومية، فترات حدوثها في الحياة، أو القلق (Clair& Trybou, 2018, p. 17).

8. تشخيص اضطراب الوسواس القهري:

يأخذ الوسواس القهري في الدّليل التّشخيصي والإحصائي الخامس للاضطرابات العقلية (Dsm5) (APA, 2015, pp. 275- 276) رمز (F42) 300.3، ويعرّفه هذا الأخير وفق المعايير التّشخيصية التّالية:

A. وجود وساوس أو أفعال قهرية أو كليهما:

تعرّف الوساوس من خلال (1) و(2):

1. أفكار، دوافع، أو صور متكرّرة ومستمرّة، يتمّ الشّعور بها في لحظة معيّنة من الإصابة بأنّها مقتحمة وغير مريحة، وتسبّب القلق والضّيق الشّديد لدى معظم الأشخاص.

2. يبذل الشّخص جهودا لتجاهل أو قمع أفكاره أو دوافعه أو تصوّراته أو لتحييدها بأفكار أو أفعال.

يعرّف القهر من خلال (1) و(2):

1. سلوكيات متكرّرة (مثلا: غسل اليدين، ترتيب، تحقّق) أو أفعال عقلية (مثلا صلاة، عدّ، تكرار كلمات، بصمت)، يشعر الشّخص بأنّه مضطرّ على القيام بها استجابة للوساوس أو وفقا لقواعد معيّنة يجيب تطبيقها بطريقة غير مرنة.

2. تهدف السّلوكيات والأفعال العقلية إلى تحييد أو تخفيض القلق أو مشاعر الضّيق، أو منع حدث أو موقف مخيف، ومع ذلك فإنّ هذه السّلوكيات أو الأفعال العقلية هي إمّا ليست مرتبطة بشكل واقعي بما يقترحون تحييده أو منعه، أو واضحة بشكل مفرط.

ملاحظة: قد لا يتمكّن الأطفال الصّغار من التّعبير عن أهداف سلوكياتهم أو أفعالهم العقلية.

B. تتسبّب الوساوس أو الأفعال القهرية في هدر كبير للوقت (مثلا أكثر من ساعة في اليوم) أو في ضيق كبير له دلالة إكلينيكية هامّة، أو في تعطيل الأداء الاجتماعي أو المهني أو غيرها من المجالات المهمّة.

C. أن لا تُعز الأعراض الوسواسية القهرية إلى تأثيرات فيزيولوجية لمادّة أو أي إصابة طبّية أخرى (مثلا تعاطي مواد أو أدوية).

D. أن لا يُفسّر الاضطراب بشكل أفضل بأعراض اضطراب آخر (كالقلق المفرط كما في اضطراب القلق المعمّم، الانشغال المفرط بالمظهر كما في هوس تشوّه شكل الجسم (Obsession d'une dysmorphie corporelle)، صعوبة التّخلص من امتلاك الأشياء أو الانفصال عنها كما هو الحال في الاكتناز المرضي (Syllogomanie)، نتف الشّعر في حالة اضطراب التريكوتيلومانيا (Trichotillomanie)، كشط الجلد المرضي (Dermatillomanie)، النّمطية كما هو الحال في الحركات النّمطية(Mouvements stéréotypés)، طقوس سلوك الأكل كما في اضطرابات الأكل (Troubles alimentaires)، انشغال بالمواد أو بالقمار كما هو الحال في اضطرابات الادمان والمتعلّقة بالمواد، الانشغال والخوف المفرط من الإصابة بمرض، الاندفاعات أو التخيّلات الجنسية كما هو الحال في اضطرابات البرافيليا (Troubles paraphiliques)، التحكّم في الاندفاعات والسّلوك، اجترار الذّنب في اضطراب الاكتئاب الجسيم (Trouble dépressif caractérisé)، الانشغالات الهذيانية أو الأفكار المفروضة كما في طيف الفصام (spectre de la schizophrénie) أو الاضطرابات الذهانية أخرى، والنّمطية المتكرّرة كما هو الحال في اضطراب طيف التّوحد (Trouble du spectre de l'autisme))

مع تحديد ما إذا كان للمصاب:

- أنصايت جيّد أو لابأس به (Bon ou assez bon insight): أين يدرك المصاب بشكل مؤكّد أو محتمل أنّ المعتقدات المرتبطة باضطراب الوسواس القهري لا تتوافق مع الواقع، أو أنّها ليست صحيحة.

- أنصايت ضعيف (Mauvais insight): أين يظنّ المصاب أن المعتقدات المرتبطة باضطراب الوسواس القهري هي ربّما لا تتوافق مع الواقع أو غير صحيحة على الأرجح.

- أنصايت غائب/مع وجود اعتقادات هذيانية (Absence d'insight/ Avec présence de croyances délirantes): أين يكون المصاب مقتنعا تماما أنّ الاعتقادات المرتبطة باضطراب الوسواس القهري هي صحيحة وحقيقية.

مع تحديد:

- العلاقة باللّزمات (Les TICS): وجود لزمات حالية أو سوابق خاصّة.

يرتكز تشخيص الوسواس القهري إذن بشكل أساسي على وجود وساوس و/أو أفعال قهرية (لمدّة ساعة واحدة في اليوم على الأقلّ) ممّا يسبّب معاناة ملحوظة في حياة الفرد وفي نوعيتها. هذه الأعراض تخضع لدرجة متغيّرة من النّقد/ الأنصايت (درجة الأنصايت "Degré d'insight")، والتي يجب تحديدها عند كلّ مصاب.

يؤكّد وصف الدّليل الخامس (Dsm5) أيضا على التّجنب اليومي الذي غالبا ما يقوم به المصاب باضطراب الوسواس القهري.

ونجد في الأوصاف السّريرية والاعتبارات النّظرية الأولى، أنّ بيار جانيه Pierre Janet (1903) قد قرّب هذه الأعراض بالتّظاهرات الطّبيعية للتّفكير والسّلوك. فهو يرى بأن الوساوس لا تتميّز عن التفكير العادي (La pensée normale) من خلال محتواها (Son contenu) (مادام أنه لا يوجد بيننا فرد لا تراوده أفكار تافهة من حين لآخر)، ولكن بشكل أكبر من خلال طابعها المفرط، المتكرّر، المقلق، وغير المتحكّم فيه، أي عرقلة للحياة اليومية ككلّ. فهذا الاضطراب يمكن أن يكون أكثر أو أقل إعاقة، فيتراوح من ضعف خفيف في أداء الفرد إلى عجز على أداء معظم الأنشطة اليومية (Clair et al, 2016, p. 07).

إذا تطلّب تشخيص اضطراب الوسواس القهري وجود أعراض تستغرق وقتا طويلا و/ أو تأثيرا معيّنا على أداء المصاب، سيكون من الشّائع جدّا ملاحظة وساوس وأفعال قهرية لا تستوفي هذه المعايير. حيث أنّ هناك سلسلة متّصلة (un continuum) من الأعراض تتراوح من أداء طبيعي إلى اجتياح شامل للحياة اليومية، مرورا بمتلازمة الوسواس القهري (Syndrome obsessionnel compulsif (SOC)) التّي تتضمّن العديد من الأعراض التي لا تؤدي إلى إعاقة شديدة .

تتعدّد خصائص اضطراب الوسواس القهري، وهذا ما أدّى إلى اقتراح عدة تصنيفات، ركّزت على سنّ ظهور الأعراض، وشدّة الوساوس مقارنة بالأفعال القهرية، وأيضا بموضوع الأعراض التي يقدّمها المصاب (Clair, et al, 2016, pp. 07-08).

9. علاج اضطراب الوسواس القهري:

تعدّدت الأساليب العلاجية التي حاولت مساعدة المصاب باضطراب الوسواس القهري على تحسين نوعية حياته اليومية والتّخفيف من معاناته النّفسية. ولتحقيق هذا المسعى، غالبا ما يوصى بعلاج اضطراب الوسواس القهري إمّا فقط بالعلاج الدّوائي، أو بالعلاج النّفسي المعرفي السّلوكي، أو بمزيج من كلا النّوعين. لكنّ السؤال الذي غالبا ما يتّم طرحه هو: أيّ العلاجين يُبدأ بهما؟ العلاج النّفسي (معرفي سلوكي) أو العلاج الدّوائي؟

يُقترح العلاجي الدّوائي في المقام الأوّل في الحالات التّالية:

- اضطراب وسواس قهري بوساوس مهيمنة (Obsessions dominantes).
- عدد كبير من الأعراض.
- تجنّب، شدّة و/ أو قلق شديد.
- اكتئاب مرافق شديد.
- عدم توفّر العلاج المعرفي السّلوكي أو رفضه من طرف المصاب.

أمّا العلاج المعرفي السّلوكي فيقترح قبل العلاج الدّوائي في الحالات التّالية:

- اضطراب وسواس قهري خفيف أو معتدل.
- اضطراب وسواس قهري بأفعال قهرية مهيمنة (Compulsions dominantes).
- عدم وجود الاكتئاب كاضطراب مرافق.
- رفض المصاب لتناول الدّواء.
- توفّر العلاج المعرفي السّلوكي من طرف خبير مختص في اضطراب الوسواس القهري (Clair& Trybou, 2018, p. 19).

1.9. العلاج الدّوائي:

يتمثّل العلاج الدّوائي في استخدام الأدوية والعقاقير لضبط الأعراض من خلال متابعة طبّية مستمرّة. ويتنوّع هذا الأخير تبعا لطبيعة الأفكار والأفعال القهرية. ومن أهمّ هذه الأدوية الأكثر استخداما نذكر ما يلي:

- **مضادات الاكتئاب (Les antidépresseurs):**

أثبتت مضادات الاكتئاب نتائجها الجيّدة في علاج اضطراب الوسواس القهري، وذلك حتّى في حالة عدم وجود الاكتئاب كاضطراب مرافق للوسواس القهري (Hanus& Louis, 2010, p. 168). ومن بين هذه الفئة نجد ما يلي:

- مضادات الاكتئاب الثّلاثية الحلقات (Les tricycliques): ومن بينها:

- الكلوميبرامين (Clomipramine): من نوع الأنافرانيل Anafranil تمّ اكتشافه سنة 1964 من طرف Ciba-Geigy، وكان أوّل دواء أثبت فعاليته في علاج اضطراب الوسواس القهري.

يمنع الكلوميبرامين ناقل السّيروتونين القبل المشبكي (présynaptique de la sérotonine)، وبالتّالي يقلّل من إعادة امتصاصه، كما يثبط إعادة امتصاص النورادرنالين (Noradrénaline) ممّا يسمح بتقليل الوساوس والأفعال القهرية. ويجب إتّباع هذا العلاج على المدى الطّويل (Martinroche, 2020, p. 83).

- مثبطات إعادة امتصاص السّيروتونين (Inhibiteurs de la recapture de la sérotonine (IRSS)): تعتبر الفئة الوحيدة إلى جانب الكلوميبرامين التي لديها ترخيص تسويق لعلاج اضطراب الوسواس القهري لدى البالغ. يمنع هذا الدّواء إعادة امتصاص السّيروتونين في مستوى ما قبل المشبكي، ممّا يسمح بزيادة تركيز السّيروتونين في الشّق المشبكي (Martinroche, 2020, p. 85).

يبقى اختيار مضادات الاكتئاب السّيروتونينارجية في الدّرجة الأولى بالرّغم من الاستخدام الواسع للكلوميبرامين أمام المثبّطات الانتقائية لإعادة امتصاص السيروتونين إلاّ أنّ مقاومة هذه الأخيرة يكون بشكل أفضل. يبدأ العلاج عادة بجرعة أقلّ يتم الحفاظ عليها من 4 إلى 12 أسبوعا قبل زيادتها والوصول إلى الحدّ الأقصى للجرعة. يتم ملاحظة تحسّن مع بداية العلاج من الأسبوع الثّاني أو الأسبوع الرّابع، إلاّ أنّ الفعالية العلاجية تزداد تدريجيا وبانتظام

لتصل إلى الحدّ الأقصى في الأسبوع الرّابع والعشرين. تكون جرعة العلاج ومدّته أكبر من تلك المستخدمة عادة في الاكتئاب (Clair& Trybou, 2018, p. 19).

تُظهر الدراسات الإكلينيكية أنّ مضادات الاكتئاب التّي تحتوي على هرمون السّيروتونين (Sérotoninergiques) تقلّل من الشّدّة الكلّية لاضطراب الوسواس القهري بمتوسّط يتراوح من 35% إلى 50% مع ما يقرب من 50% إلى 60% من المرضى المُستجيبين (Les répondeurs).

يتمّ اقتراح إضافة الكلوميبرامين الذي يعمل أيضا على النّظام السّيروتونينارجي (Système sérotoninergique)، بعد فشل دواءين إلى ثلاثة أدوية مختلفة من المثبطات الانتقائية لإعادة امتصاص السّيروتونين. كما يمكن أيضا اقتراحه بمفرده عن طريق الوريد (Intraveineux) في حالة اضطراب الوسواس القهري المقاوم (TOC résistant) (Clair& Trybou, 2018, p. 19).

- **المثبّطات العصبية أو مضادات الذّهان (Les neuroleptiques ou Antipsychotiques):**

في حالة فشل مضادات الاكتئاب في علاج اضطراب الوسواس، يوصى عادة بالعمل على النّظام الدّوباميناريجي (Système dopaminergique) عن طريق إضافة المثبّطات العصبية أو مضادات الذّهان (مثل Aripiprazole، Respiridone أو Haldoperidol) بجرعات منخفضة جدّا. ومع ذلك أثبتت هذه الأخيرة عدم فعاليتها عند وصفها بمفردها، لأنّ إضافة جرعات منخفضة منها أثبتت فعاليتها عند الحالات المقاومة للعلاج الأحادي السّيروتونيني (Monothérapie sérotoninergique) (Clair& Trybou, 2018, p.20).

- **معدّلات المزاج (Les thymorégulateurs):**

يمكن العمل على نظام هرمون GABA (GABA énergique)عن طريق جرعات منخفضة من معدّلات المزاج.

تتكوّن المدّة الإجمالية للعلاج الدّوائي عموما من ثلاث مراحل هي كما يلي:

- المرحلة الأولى: الحدّ من اضطراب الوسواس القهري واستقراره. مدّة ستة أشهر هي ضرورية لملاحظة التّأثير الكامل للعلاج الأوّل المضادّ اضطراب الوسواس القهري (Anti TOC).

- المرحلة الثّانية: الحفاظ على الدّواء بنفس الجرعة لمدّة 12 شهرا من أجل تعزيز التّأثير المضادّ لاضطراب الوسواس القهري. يُعتبر وقف العلاج خلال هذه الفترة سببا رئيسا لحدوث الانتكاسة بنسبة 80%.

- المرحلة الثّالثة: يتمّ خلالها التّخفيض المُبرمج والتّدريجي للجرعات، فبعد ملاحظة فعالية الدّواء على مدى فترة كافية، يتمّ تخفيض الجرعة بطريقة جدّ تدريجية.

وأخيرا، يجب التّذكير أن معدّل نجاح إيقاف العلاج الدّوائي يتوقّف أيضا على الاستفادة من علاج معرفي سلوكي مناسب (Clair& Trybou, 2018, pp. 19-20).

- **المهدّئات (Les tranquillisants):**

يتم استخدام المهدّئات للتحكّم في القلق عندما يكون عمل مضادات الاكتئاب غير كافيا، ونجد من بينها أساسا البانزوديابيزينات (Les benzodiazépines) (Clair& Trybou, 2018, p. 20).

2.9. العلاج النّفسي:

1.2.9. العلاج بالتّحليل النّفسي:

يقدّم العلاج بالتّحليل النّفسي لاضطراب الوسواس القهري نماذج إرشادية لا يمكن الاستغناء عنها، إلّا أنّ الوصول إلى أفضل النّتائج يعتبر صعبا ويتطلّب وقتا طويلا مقارنة مع العلاج الدّوائي والعلاج المعرفي السّلوكي (Hanus& Louis, 2010, p. 169). ففي الأشكال الشّديدة حيث يكون العلاج التّحليلي مستحيلا أو غير فعّال، غالبا ما يتمّ اللّجوء إلى هذا النّوع من العلاج (أي العلاج المعرفي السّلوكي) أو إلى العلاج بالصّدمات (Cupa& Pirlot, 2010, p. 68).

2.2.9. العلاج المعرفي السّلوكي:

يعتبر العلاج المعرفي السّلوكي أحد الخيارات العلاجية المتاحة النّاجحة التّي أثبتت نجاعتها من خلال الوقوف بشكل أساسي وأوّليعلى تعديل الأفكار المشوّهة ودحضها من خلال

تقنياته المعرفية، ثم كفّ السّلوكيات (المرتبطة بها) المختلة وظيفيا وتكييفها من خلال تقنياته السّلوكية.

ولقد أثبتت العديد من الدّراسات أن مرضى الوسواس القهري الذين تلقوا علاجا معرفيا سلوكيا يُشفون بنسبة أكبر من أولئك الذين تلقوا علاجا بالأدوية (Clair& Trybou, 2018, p. 19). فالدّواء هو جزء يكمّل العلاج وليس كلّ العلاج. وهذا ما جعل الهيئة العليا للصّحة تعتبر العلاج المعرفي السلوكي العلاج الأمثل لاضطراب الوسواس القهري (Tazi, 2018, p. 55) مؤكّدة في توصياتها منذ عام 1993 على فعاليته في ذلك بنفس مستوى فعالية المثبّطات الانتقائية لإعادة امتصاص السّيروتونين (IRSS) (منقوشي وكروم، 2021، ص272). ليصبح بذلك أحد العلاجات الأساسية التّي لا يّمكن تجاوزها في علاج اضطراب الوسواس القهري. يشمل العلاج المعرفي السّلوكي شقّين من التّقنيات العلاجية نوضّحها كما يلي:

- **التّقنيات المعرفية:**

يأخذ العلاج المعرفي شكل جلسات لمدّة ساعة تقريبا، هدفه هو التّشكيك في اعتقادات المصاب المشوّهة وتحويلها إلى أفكار منطقية (Martinroche, 2020, p. 74). هذا النّموذج يميّز بين ثلاثة أنواع من الظّواهر التّي تلعب دورا أساسيا في نشأة الاضطراب واستمراره:

- الأفكار المقتحمة: مثال: " ربّما مشيت فوق بقعة حمراء".
- الأفكار الأوتوماتيكية: مثال: " أنا في خطر سأصاب بالإيدز".
- التحييد: مثال: "سوف أعود وأتتبّع خطواتي لأتحقق من أن البقعة الحمراء لم تكن دما".

يفترض النّموذج المعرفي أن تشوّها في مخطّطات التّفكير يؤدي إلى نشأة الأفكار المقتحمة لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري. ترابط هذه المخطّطات مع الأفكار المقتحمة ومع حالة القلق الاكتئابي الذي ينجم عنها سيؤدي إلى الأفكار الأوتوماتيكية.

يشمل العلاج المعرفي خمس مراحل متعاقبة باستخدام تقنيات مختلفة كما يلي:

- المرحلة الأولى: وهي مرحلة التّحليل الوظيفي (L'analyse fonctionnelle) ويتمّ في الجلسات الأولى من العلاج المعرفي، ويمثّل خطوة أساسية تمكّن المعالج من تحديد الظّروف والعوامل المسبّبة للاضطراب، والتّفصيل في السّيناريو الكارثي الذي يفترضه المصاب. كما يساعده على تحديد الطّقوس المرضية بدقة، وكذلك مآل الاضطراب على المدى القصير وحتى البعيد.

من خلال التّحليل الوظيفي، يبحث المعالج أيضا في تاريخ الاضطراب وانعكاساته على نوعية الحياة اليومية للمصاب. وعن فترات زيادة الأعراض وانخفاضها، بالإضافة إلى التّاريخ العائلي لمعرفة السّوابق المرضية، وما إذا كان الأفراد المحيطون بالمصاب يشاركونه في طقوسه المرضية. يطلب المعالج من المصاب تعداد وساوسه وأفعاله القهرية يوميا في شكل جدول، ليقوما معا بمناقشتها خلال الجلسة.يعدّ ذلك مرحلة جوهريةتمكّن من مواصلة تطبيق التّقنيات المعرفية الموالية (Clair& Trybou, 2018, p. 36).

- المرحلة الثّانية: وهي مرحلة تمييز الأفكار (Différentiation des pensée) حيث تعمل هذه الأخيرة على تعليم المصاب ملاحظة أدائه العقلي وتعليمه كيف يميّز بين الأفكار المقتحمة، والأفكار الأوتوماتيكية النّاجمة عن الخلل الوظيفي، والأفكار التّحييدية، وكذلك الطّقوس المرضية التّي تعمل على بقاء واستمرار الاضطراب (Tazi, 2018, p. 67).

- المرحلة الثّالثة: وتشمل مناقشة الأفكار الأتوماتيكية (Discussion des idées automatiques)، وتأتي هذه المرحلة بعد تحديد الأفكار الأوتوماتيكية بهدف تعويضها بأفكار أكثر عقلانية، ولأجل ذلك يستخدم المعالج "الحوار السقراطي" (La discussion socratique)، حيث يتمّ توجيه أسئلة إلى المصاب، تتعلّق عادة بالجوانب والأفكار اللاّمنطقية والمختلّة وظيفيا. ومن هذه الأسئلة مثلا، "ماهي أسوأ كارثة ممكنة؟ على ماذا مبنية هذه الشّكوك؟". الهدف من هذا التّساؤل السّقراطي هو مساعدة المصاب على ملاحظة الطّابع غير العقلاني لأفكاره وسيناريوهاته التّي تصبح طقوس فيما بعد (Clair& Trybou, 2018, p. 37). لا يعمل المعالج على طمأنة المريض من خلال هذا الحوار حتّى لا يدخل معه في طقوسه المرضية (محاولات التّطمين) (Martinroche, 2020, p. 75).

توجد عدّة تقنيات يستعملها المعالج لتحقيق الهدف المطلوب أهمّها: تقنية "مع وضد" (du pour et du contre)، تقنية إعداد قائمة للتّفسيرات (technique du listing des interprétations)، تقنية عدم التّمركز (technique du décentrage)، تقنية حساب الاحتمالات (technique du calcul des probabilité)، تقنية حساب المسؤولية (technique du calcul des responsabilités)، تقنية كاممبيرت "تقاسم المسؤولية" (technique de responsabilité: partager la responsabilité)، تقنية

التّجربة السّلوكية (technique de l'expérience comportementale) ، التّربية النّفسية (psychoéducation) (Clair& Trybou, 2018, pp. 37,39).

- المرحلة الرّابعة: وتشمل تحديد المخطّطات المعرفية (repérage des schémas). حيث تعمل المخطّطات المعرفية المشوّهة على ظهور الأفكار الأوتوماتيكية الكارثية، وذلك من خلال استخدام مفرط لميكانيزمات التّعميم والافتراضات والتّفسيرات الوهمية... في هذه المرحلة يقوم المعالج بتوجيه المصاب بتحديد ما يحاول بالفعل تجنبّه بدقّة، وغالبا ما يستقرّ المصاب على أوّل فكرة أوتوماتيكية دون الوعي بما تبقى من الأفكار. فطالما لم يتمّ تحديد السّيناريو النّهائي بشكل صحيح والمخطط المعرفي المسؤول عنه، سيبقى المصاب معرض لخطر التّركيز على فكرة أوتوماتيكية جديدة. (Clair& Trybou, 2018, pp. 41-42).

تسمح تقنية السّهم التّنازلي (technique de la flèche descendante) بتحديد دقيق للمخطّط المسؤول عن ذلك كما هو موضّح في الشكّل التّالي:

ما الذي سيحدث إذا وقع هذا؟

ما هي أسوأ نتيجة؟

ماذا يعني لك ذلك؟

كيف ستشعر لو حدث ذلك؟

شكل رقم (03): تقنية السّهم التّنازلي

المصدر: (Clair& Trybou, 2018, p. 42).

- المرحلة الخامسة: هي المرحلة الأخيرة وتشمل التّشكيك في المخطّطات المعرفية (La remise en question des schémas cognitifs)، حيث تأتي بعد تحديد المخطّط المعرفي المسؤول عن السّيناريو الكارثي من خلال تقنية السّهم التّنازلي، وتهدف إلى التّشكيك في الوقوع الحتمي والمؤكّد لهذا السّيناريو (Tazi, 2018, p. 69).

- **التّقنيات السّلوكية:**

تُعتبر تقنية "التّعرّض مع منع الاستجابة" (" Expositionavec prévention de la réponse (ERP") أساس تطوير تقنية أساسية في العلاجات المعرفية السّلوكية، وتُركّز على مبدأين

أساسيين: أوّلهما هو تعريض المصاب للمثير الذي يخيفه، وثانيهما هو منع الاستجابة، أي إجباره على عدم القيام بالطّقوس.

تؤدي هذه التّقنية إلى زيادة انتقالية في القلق، لتنتهي بتراجعه بعد فترة زمنية معيّنة (يعتمد الوقت على الشّدّة الأوّلية للقلق وعلى صعوبة التّمرين). فكلما زادت مدّة التعرّض ، كلّما انخفض القلق بشكل أسرع. كما أن تكرار هذه التّقنية يسمح بالتعوّد وبالتّالي التّقليل من الطّقوس ومن شدّة الاضطراب (Clair& Trybou, 2018, pp. 43-44).

10. مآل اضطراب الوسواس القهري:

يختلف مآل اضطراب الوسواس القهري من فرد إلى آخر، ويمكن أن يشفى المصاب كما يمكن أن يتحوّل اضطرابه إلى أشكال (من نفس الاضطراب) أو اضطرابات أخرى متعدّدة. وتفيد الدّراسات الحديثة أنّ حوالي 70% من مرضى الوسواس القهري يتماثلون للشّفاء بعد استعمال الأدوية المثبّطة لإعادة امتصاص السّيروتونين، والتّي تزيد من من السّيروتونين في المستقبلات العصبية مع العلاج المعرفي السّلوكي (بوقفة، 2020، ص108). وتجدر الإشارة في هذا الشّأن إلى أنّه لا يوجد شفاء تلقائي لاضطراب الوسواس القهري، ويمكنه أن يتطوّر إلى اضطرابات مختلفة كالاكتئاب، محاولات انتحارية، إدمان على المخدّرات (Cupa& Pirlot, 2010, p. 59).

تحدث الأفكار الانتحارية وفي وقت ما عند حوالي نصف الأشخاص المصابين، ويصل ربع منهم إلى محاولات انتحارية، كما أنّ وجود اضطراب اكتئابي مرافق (Comorbide) يزيد من الخطر (APA, 2015, p. 281).

خلاصة الفصل:

تناول هذا الفصل متغيّر اضطراب الوسواس القهري، وكلّ ما نؤكّد عليه في الأخير هو أنّه بالرّغم من المعاناة النّفسية العميقة لدى المصاب بهذا الإضطراب، إلّا أنّ تطوّر الدّراسات النّفسية حوله قد فتح نافذة كبيرة للتّعرّف عليه، وهو ما يفتح الطّريق نحو توجّه متفائل بشأن تحسّن الأعراض بطريقة منظّمة ومنهجية، خاصّة مع القفزة النّوعية التّي شهدها مسار العلاج المعرفي السّلوكي من صورته الكلاسيكية إلى صورة جديدة تُعرف بالعلاجات العصبية السّلوكية والتّي ترتكز على كلّ من التّقنيات المعرفية والسّلوكية، لتقدّم بذلك منظورا جديدا لقراءة وعلاج أنواع فرعية أخرى لاضطراب الوسواس القهري بكلّ نجاعة وفعالية.

ولكن وعلى الرّغم من التقدّم العلاجي لهذا الاضطراب، إلا أنّه غالبا ما يُنظر إلى مرضى الوسواس القهري بأنّهم مُستعصيو العلاج، وهذا لا يعني أن اضطرابهم غير قابل للشّفاء، بل لأنّ علاجه ذو مسار طويل ولا يزال يعتبر معقّدا ومُخيفا إلى غاية وقتنا الحالي.

الفصل الرابع

الإجراءات المنهجية للدّراسة

تمهيد

1. الدّراسة الاستطلاعية
2. منهج الدّراسة
3. حدود الدّراسة
4. حالات الدّراسة
5. أدوات الدّراسة

خلاصة الفصل

الفصل الرابع
الإجراءات المنهجية للدّراسة

تمهيد:

تتحدّد قيمة أيّ بحث علمي في إجراءاته المنهجية وطريقة تحديدها ثمّ تطبيقها على أرض الواقع. ومن أجل ذلك ينتهج الباحث أسلوبا منظّما في استقطاب البيانات وجمعها وتفسيرها وتحليليها وفق طرق وأدوات علمية محدّدة. ويسمّى هذا الجهد الواعي من هذه المراحل المنظّمة بـــ "منهجية البحث العلمي".

والممارسة العيادية هي إحدى الممارسات النّفسية التّطبيقية التي ترتكز على مجموعة من الأدوات والتّقنيات التي تسمح بدراسة الظّاهرة النّفسية دراسة علمية مضبوطة. لتصبح بهذا المعنى مجموعة من الخطوات والمراحل المنظّمة التي يفرضها "الفعل العيادي" بهدف فهم وتفسير السّلوك الإنساني وضبطه والتّنبؤ به بكلّ موضوعية ونزاهة علمية. يعني ذلك أنّ الممارسة العيادية هي مهمّة (une tâche) لا يمكن اختزالها في مجرّد "وضعية" (Une situation) يقوم أثناءها المختصّ النّفسي العيادي بإجراء مقابلات عيادية فقط، وإنّما هي ممارسة تقنية (Technique) تتطلّب رصانة وكفاءة عالية. الممارسة العيادية إذن ليست "مهمّة" بقدر ما هي "التزام" بمراحل ومنهج وأدوات علمية متعارفذ عليها ومعترف بها.

ولأنّ دراسة الحالة تقتضي معرفة واسعة ومعمقّة من طرف المختصّ النّفسي العيادي- لخصوصيتها وخصوصية مراحلها- فإن اختيار منهج الدّراسة وأدواتها لا يتمّ بطريقة اعتباطية عشوائية، وإنّما وفق معايير منهجية مضبوطة تتحدّد من خلال الهدف المراد الوصول إليه.

وبناءً على ما تقدّم، جاء هذا الفصل من الدّراسة ليتناول الإجراءات المنهجية التي تضمّنها جانبها التّطبيقي، وذلك من حيث: منهجها، حدودها الزّمانية والمكانية، حالاتها، أدواتها المعتمدة، وأخيرا خلاصة للفصل.

1. الدّراسة الاستطلاعية:

تُعتبر الدّراسة الاستطلاعية من أهمّ الأدوات التّي يستعملها الباحث في مستهلّ دراسته، فهي بمثابة الأرضية القاعدية التّي تُرسي له أسس وقواعد البحث العلمي، بما يوجّه نحو المسار الذي يؤدّي إلى نتائج صائبة وموثوق بها (لرينونة، 2015، ص63).

وانطلاقا من هذا الأساس، قامت الباحثة بدراسة استطلاعية لحالتين طالبة للاستشارة النّفسية بالعيادة النّفسية"Ma petite maison de psychologie" الكائنة بحي 100 مسكن اجتماعي تساهمي بولاية عين تموشنت، تمّ تشخيصها باضطراب الوسواس القهري حسب DSM IV TR، وذلك بعد جمع المعطيات اللّازمة وتاريخ الحالة الخاصّ بها.

ولجمع أكبر قدر من المعلومات، ومتابعة المتغيّر التّابع –التّوظيف النّفسي- باشرنا السّير العيادي من أجل تحقيق التّشخيص التّصنيفي، حتّى نتمكّن من تحديد المتغيّر المستقلّ والمتمثّل في تواجد عرضية الوسواس و/أو القهر. وفي نفس الاتّجاه التّشخيصي من خلال دراسة الحالة، المقابلة العيادية النّصف موجّهة، واختبار الرّوشاخ، لتحقيق فحص نفسي متكامل، ولتطوير سير منهجي من خلال تسطير فرضيات إجرائية تسمح بتحديد ومن جديد الإطار النّظري المناسب لفهم التّوظيف السّيكوباتولوجي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري.

1.1. حالات الدّراسة الاستطلاعية:

تخصّ هذه الدّراسة حالتين راشدتين ترتادان العيادة النّفسية "Ma petite maison de psychologie" الكائن مقرّها بمدينة عين تموشنت، وقد تمّ تشخيصها باضطراب الوسواس القهري حسب DSM IV TR، حيث تمّ اختيارها بطريقة قصدية دون الأخذ بعين الاعتبار متغيّر الجنس، المهنة، والمستوى التّعليمي، ولكن بإقصاء كلّ اضطراب عصبي-عقلي أو إدماني.

1.1.1. خصائص حالات الدّراسة الاستطلاعية:

يمكن توضيح خصائص حالات الدّراسة الاستطلاعية في الجدول الآتي:

جدول رقم (02): خصائص حالات الدّراسة الاستطلاعية

الحالات	الجنس	السّن	الحالة المدنية	المستوى التّعليمي	المهنة	نوع الاضطراب	مدّة الإصابة
الحالة الأولى	أنثى	29 سنة	غير متزوّجة	ثانوي	ماكثة في البيت	وسواس قهري متعلّق بالنّظافة	3 سنوات
الحالة الثّانية	ذكر	31 سنة	غير متزوّج	جامعي	موظّف إداري	وسواس قهري متعلّق بالتّحقّق	9 أشهر

يظهر من خلال الجدول (02) أنّ الدّراسة الاستطلاعية اشتملت على حالتين راشدتين من جنسين مختلفين. الحالة الأولى تعاني من وسواس قهري متعلّق بالنّظافة منذ 3 سنوات، بينما تعاني الحالة الثّانية من وسواس قهري متعلّق بالتّحقق منذ 9 أشهر.

2.1. نتائج الدّراسة الاستطلاعية:

تمّ الاعتماد على المنهج العيادي لرصد سيكوباتولوجية التّوظيف النّفسي لدى حالتين راشدتين مصابة باضطراب الوسواس القهري في أسلوب وصفي- تحليلي انطلاقا من المقابلة العيادية النّصف موجهة، التّشخيص التّصنيفي DSM IV TR، واختبار الروشاخ، نعرض أهمّ النّتائج المتحصّل عليها في الجدول التّالي:

جدول رقم (03): نتائج الدراسة الاستطلاعية

الحالات	المقابلة العيادية النّصف موجّهة	التّشخيص التّصنيفي (DSM IV TR)	اختبار الرّوشاخ
الحالة الأولى	**- نزعة قوّية إلى الشّك والخوف من فقدان السّيطرة على الذّات:** «قتلني الشّك والتوسويس»، «راني خايفة نهبل تالمو الشّك كلاني» **- تأنيب ضمير ولوم الذّات يقترب من الاضطهاد:**« علاش راني غابنة في روحي؟»، «بلاك كاش ما درت في حياتي؟»، «ما نستاهلش الفرحة»، «دارنا دايما يضحكو عليّا ويتمسخرو كي يشوفوني نغسل الحوايج...يقولولي أنت مريضة وبصّح أنا هي اللّي وصلت روحي». **-تردّدات وتحفّظات كلامية تتخلّلها فترات صمت طويلة.**	المحور I: **اضطراب الوسواس القهري F42.[301.9]** يستوفي جميع المعايير التّشخيصية(A) ، (B) ،(C)، (D)، (E). المحور II: **شخصية تجنّبية [301-82] F 60.6** المحور III: **غياب الإصابة الطبّيّة.** المحور IV: **مشاكل علائقية مع الأمّ.** المحور V: التّقييم الشّامل للأداء الوظيفي يناسب الدّرجة **41-50**.	**- فقر استهامي:** إنتاجية فقيرة (13 إجابة)، قصر الإجابات وعدم ثرائها. **- وصف البقع في ظلّ الشّك والتّردد:** «راها تبان بلاك كي الخفاش» (اللّوحة I)، «هادي نظن كي التّوريفال (اللوحة X)» ، «ما نعرفت... ماشي بلاك قلب هنا التّحت لا؟» (اللوحة II). - **الميل إلى التّحكم والرّقابة:** ارتفاع الإجابات الشّكلية والجزئية، تدوير اللّوحات بصفة متكرّرة، ذهاب وإيّاب نحو نفس الموضوع في اللّوحة. **- ميولات عدوانية ورهابية:** خاصّة على مستوى اللّوحة (II) «راه يسيل الدّم، معركة رهيبة من الدّماء خوفتني بزّاف هاذي». - **دفاعات نفسية من نوع:** التّكوين العكسي، العزل، الإلغاء، فشل الكبت، الانشطار. **-صدمة الألوان:** رفض اللّوحة (III)، تدوير وارتفاع زمن الرّجع في اللّوحة (II,III, VIII, XII,) يفوق"10، ارتفاع الاستجابات الحيوانية أمام

			الاستجابات الإنسانية (H=1)/(A=9)، وارتباطها بإجابات تشريحية وجنسية. - **صراع نفسي:** المعادلة المكمّلة (FC) تعارض توجّه نمط الصّدى الحميم (TRI).
الحالة الثّانية	- **شعور بالذّنب وفقدان الأمل:** «كرهت كل شي»، «محال نولّي فرحان كيما كنت»، «طفرت لوكان جريت على روحي من الأوّل ما يصرالي هاكّا» - **إحساس مستمرّ بالمسؤولية وصعوبة اتخاذ القرارات:** «أنا السّبة ما داويتش روحي»، «نخاف كاش مايصرا على رقبتي»،«قعدت حاصل ما قدّيتش نآفونسي، جامي ديت قرار وشدّيت فيه». - **كف وتوتّر وصعوبة في التّعبير الانفعالي:** «والله ما نقد نوصف لك المعاناة تاعي»،«كي نجي نحكي ما نقدش، نزيد ننظر».	المحور I: **اضطراب الوسواس القهري F42.[301.9]** يستوفي جميع المعايير التّشخيصية (A)، (B) ،(C)، (D)،(E) . المحور II: **شخصية حدّية F60.31[301.83]** المحور III: **غياب الإصابة الطبّيّة.** المحور IV: **مشاكل في مجموعة الدّعم الرّئيسة** تتمثّل في وفاة الأمّ وزواج الأب. المحور V: التقييم الشّامل للأداء الوظيفي يناسب الدّرجة **51-60**.	- **فقر استهامي:** إنتاجية فقيرة (11 إجابة)، إجابات بسيطة، متقطّعة ذات مضامين حيوانية، تشريحية، مع ارتفاع زمن الرّجع في كلّ اللّوحات. - **مراقبة العاطفة نتيجة قوّة الشّك:** التّكرار لمدركات واردة من قبل، الميل إلى الدّقة، ارتفاع الإجابات الكلّية، إجابات ذات محتوى حيواني في إطار متردّد «زوج دجاجات ولا زوج أرانب ما نعرفت» (اللّوحة (III))، كثرة الإجابات الجزئية من نوع D وDd. - **عاطفة متصلّبة:** غياب الاستجابات ذات المحتوى الإنساني. - **استجابات رهابية واكتئابية يصعب السّيطرة عليها:** حساسية اتجاه اللّون الأحمر والأسود «شغل حاجة مهوّلة» في اللوحة (II)، «هادي راها تخوّف» في اللّوحة (IV)، «حاجة مغمومة طيّحت لي المورال كي شفتها»،«حيوانات مفترسة» في اللّوحة (VIII). - **دفاعات نفسية من نوع:** التّكوين العكسي، فشل الكبت، العقلنة، الإلغاء، الانشطار، النّفي، العزل... - **مواجهة صراعية:** المعادلة المكمّلة (FC) تعاكس توجّه نمط الصّدى الحميم (TRI).

سمحت لنا نتائج الدّراسة الاستطلاعية الموضّحة في الجدول رقم (03) برصد بعض المؤشّرات الدّالة على التّنظيم العصابي الوسواسي، وإعداد فرضيات إجرائية "عملية" (Opérationnelles)، تُساعد في دراسة التّوظيف النّفسي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري على المستوى العيادي والإسقاطي.

1.2.1. مؤشّرات التّنظيم العصابي الوسواسي:

تمّ تسجيل مجموعة من مؤشّرات التّنظيم العصابي الوسواسي في كلّ من الوضعية العيادية والوضعية الإسقاطية، نذكرها فيما يلي:

- في الوضعية العيادية:

سمحت المقابلة العيادية مع الحالتين برصد مجموعة من المؤشّرات التي تدلّ على التّنظيم العصابي الوسواسي، نعرض أهمّها في ما يلي:

- كفّ واضطراب هامّ في العلاقات مع تعطّل الأداء الوظيفي.
- كبت، صعوبة التّعبير واتّخاذ القرارات وإدراك المصير.
- تضارب فكري، شكّ، عدم الثّقة في النّفس، عدم التّحكّم في الأفكار والأفعال والانفعالات.
- استثمار فكري قهري مفرط.
- تأنيب ضمير وإحساس مستمرّ بالحزن وبالدّونية، والخوف تجاه واقع مؤلم ومهدّد.
- كفاح مستمرّ بين الرّغبات والموانع والتّصورات.
- تمركز حول الذّات، وتأهّب مستمرّ للخطر، وتجنّب المواقف المقلقة.
- خلل في الذّاتية (Désubjectivation) أين يصبح الفرد غريبا عن نفسه.

- في الوضعية الإسقاطية:

سمحت نتائج الفحص الإسقاطي من خلال اختبار الروشاخ، وبالاستناد إلى الدّراسات السّابقة على غرار أعمال كاترين شابير Catherine Chabert (1997، 1998، 2012)، سي موسي عبد الرّحمان وبن خليفة محمود (2010)، عبد الله إيمان الصادق عثمان (2016)، بتحديد مجموعة من المؤشّرات التّي تظهر في التّنظيم العصابي الوسواسي، نعرض أهمّها في ما يلي:

- ارتفاع الإجابات الشّاملة (G).

- ارتفاع الإجابات الشّكلية (F ٪) مع ارتفاع الإجابات الجزئية الصّغيرة والكبيرة (D، Dd): عزل إدراكي.

- إجابات مركّبة مع وجود مؤشّرات قلق الإخصاء: صعوبات في التّعامل مع العدوانية في صدى مع رمزية اللّوحات لاسيما الحمراء (اللّوحة II، III).

- كثرة الاستجابات الحيوانية على حساب الاستجابات الإنسانية (A٪> H٪).

- غياب أو قلّة الاستجابات اللّونية (C).

- صدمة الألوان.

- وصف البقع في ظلّ الشّك والتّردّد.

- نمط الصّدى الحميم (TRI) منطوي (C < K).

2.2.1. الفرضيات الإجرائية:

سمحت لنا نتائج الدّراسة الاستطلاعية بإعادة صياغة فرضيات إجرائية تمكّننا من اللّمس العملي للمتغيّر التّابع –التّوظيف النّفسي- حتّى نتمكّن من متابعته ومراقبته من خلال الأدوات العيادية والإسقاطية التّي تمّ اعتمادها.

الفرضية الجزئية الأولى: يتميّز التّنظيم العصابي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري بصعوبة الإعداد النّفسي للصّراع النّفسي الدّاخلي من خلال الإنتاج الإسقاطي لاختبار الروشاخ.

- من خلال المقابلة العيادية:

تظهر صعوبة الإعداد النّفسي للصّراع النّفسي الدّاخلي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري من خلال المقابلة العيادية إجرائيا في ما يلي:

- الشّعور المستمرّ بالذّنب.

- التّعارض ما بين الرّغبات والدّفاع ضدّها.

- الخوف من المسؤولية ومن ارتكاب الأخطاء.

- الخوف من فقدان السّيطرة على الذّات (نخاف نهبل).

- من خلال اختبار الروشاخ:

تظهر صعوبة الإعداد النّفسي للصّراع النّفسي الدّاخلي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري من خلال اختبار الروشاخ إجرائيا في ما يلي:

- المعادلة المكمّلة FC تُعارض توجه نمط الصّدى الحميم TRI.
- الإجابات الشّكلية F في اللّوحات الملوّنة أكثر من الحركات ممّا يدعّم العزل.
- الرّجوع (Le retournement) والذّهاب والإيّاب نحو نفس الموضوع في اللّوحة.
- ظهور نوعية خاصّة من الآليات الدّفاعية: تتمثل في التّكوين العكسي (Formation réactionnelle)، الإلغاء (Annulation)، العزل (Isolation)، العقلنة (Intellectualisation)، الشّك (Doute).
- ظهور استجابات بذيئة (Crues) بعدما كانت مرمّزة مما يدلّ على فشل الكبت.
- رمزية اللّوحات خاصّة اللّوحة (I) واللّوحة (IV).

الفرضية الجزئية الثّانية: يتميّز الاستثمار القهري لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري بالمراقبة الصّلبة للواقع المهدّد من خلال الإنتاج الإسقاطي لاختبار الروشاخ.

- من خلال المقابلة العيادية:

تظهر المراقبة الصّلبة للواقع المهددّ لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري من خلال المقابلة العيادية إجرائيا في ما يلي:

- وجود أفكار متسلّطة وأفعال قهرية.
- التّكتّم و التّردّد والتّحفّظ الكلامي.
- صعوبة التّعبير الانفعالي والوجداني.
- الدّقة في التّفكير والتّنظيم والاهتمام المفرط بالتّفاصيل.

- من خلال اختبار الروشاخ:

تظهر المراقبة الصّلبة للواقع المهددّ لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري من خلال اختبار الروشاخ إجرائيا في ما يلي:

- يُعاش اختبار الروشاخ كواقع مُهدّد لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري، حيث يأخذ زمن الرجع وقتا طويلا نسبيا (أكثر من 10 ثواني) مع تدوير اللّوحات وإنتاجية لفظية فقيرة (أقلّ من 30 إجابة).
- تقديم استجابات ذات مضامين رهابية يصعب السّيطرة عليها نتيجة الحساسية من اللّوحات الحمراء.

- ظهور صدمة الألوان: صدمة اللون الأحمر والأسود.
- الميل إلى الوصف الدّقيق مع ارتفاع نسبة التفاصيل النّادرة Dd.
- ارتفاع نسبة الإستجابات الحيوانية (A% مرتفع) حيث ترتفع نمطية التّفكير.
- تكرار المضمون المهدّد.

2. منهج الدّراسة:

يرى شوفيي وأتيقي Chouvier et Attigui (2016, p. 13) أنّه لا يوجد علم نفس عيادي شرعي (Légitime) دون الأخذ بعين الاعتبار المستويات المختلفة للحياة النّفسية التّي لا يمكن الوصول إليها إلاّ من خلال ما يسمّى بـــ "المنهجية". تقودنا وجهة النّظر هذه نحو ضرورة ملحّة لالتزام الباحث في مجال علم النّفس العيادي بأصول المنهج العلمي الذي يأخذ دورا أساسيا في بناء البحث بناءً منهجيا منظّما وصائبا.

وانطلاقا من هذا الاعتبار، ولأنّ قيمة النّتائج تتوقف على قيمة المناهج المستخدمة، نسعى إلى انتهاج أسلوب علمي منظّم يهدف إلى الوصول إلى استقصاء الحقيقة وتحقيق معرفة علمية وفق الإجراءات المنهجية التّالية:

1.2. المنهج العيادي:

تستخدم كلمة "عيادي" في المجال الطّبي للإشارة إلى جملة من المعارف التّي تُكتسب عن طريق ملاحظة المرضى دون الاستعانة بوسائل البحث أو الضّبط العلمي، وبهذا المعنى تتميز العيادة عن المخبر، كما يتميز المنهج العيادي عن المنهج التّجريبي (الوافي، 2013، ص51). إلّا أنّ علم النّفس العيادي يتعدّى هذا المفهوم الضّيق، ليتّسع إلى منهج علمي يقوم على دراسة كل ما يتعلّق بالمريض. ويقصد بـــ "منهج عيادي" مجموعة من التّقنيات المستخدمة في إطار مهنة المختصّ العيادي، والأسلوب المنظّم الموجّه نحو الفرد في وحدانيته وفردانيته. فمن مسلّمات هذا المنهج أنّه يتعامل مع الحالة المدروسة بوصفها وحدة "شاملة" لا تقبل التّجزئة في حالتيها السّوية والمرضية (لرينونة، 2015، ص ص37-38).

وانطلاقا من هذا الاعتبار، تمّ الاعتماد على المنهج العيادي الذي يقوم على دراسة الحالة ويركّز على التّناول الكيفي ضمن تميّز الفرد في توظيفه النّفسي، وتغيّره المستمرّ في الزّمان والمكان مع محاولة احتفاظه بقدر من الثّبات الذي يحقّق له نسبيا انسجاما شخصيا (أو عدم

انسجام). ومن أجل فحص هذا الانسجام أو عدمه، يستخدم المنهج العيادي التّقنية الإسقاطية، بشكل يسمح بتجسيد نوعية قدرة الفرد الحالية في مباشرة العالم والمواضيع وفق مبدأ التّميّز والتّفرّد (بن خليفة، 2007، ص101).

تأخذ الباحثة بعين الاعتبار هذا المبدأ في التّعامل مع حالات الدّراسة. وتُنوّه أنّ ما يهمّ في البحث العيادي هو ليس الإطناب والاسترسال في استعراض عدد حالات الدّراسة سعيا للتّعميم، وإنّما طريقة تناول الحالات والتّعامل مع الحالة الواحدة كحالة فريدة من نوعها دون مقارنة ولا تعميم (لرينونة، 2015، ص40)، فمعظم الأفراد يتشابهون ويختلفون، وما هو موجود عند الجماعة ليس ضروريا عند الفرد والعكس صحيح.

تتطابق وجهة النّظر هذه مع اتّجاه بيرون Perron (1997, p. 15) عندما طرح مفهوم "الشّخص" (La personne) كحالة خاصّة ومتميّزة تُشكّل موضوع علم النّفس العيادي، وهذا لا يعني فقط التّعامل مع الأفراد كحالات مستقلّة عن بعضها البعض، وإنّما أيضا مراعاة درجة تشابه خصائص لديها واندراجها ضمن سجّل عيادي(Registre clinique) مشترك مع مجموعة من الأشخاص. فما يهمّ في دراسة الحالة هو "ليس فقط فهم فرد متميّز ومتفرّد (Singulier)، وإنّما أيضا بناء طرق توظيف وتحديد سيرورات عامّة انطلاقا من الفرد الواحد" (Ghiglione& Richard, 2007. p. 186).

وبالاعتماد على وجهة النّظر هذه يمكن الاكتفاء في البحث العيادي بحالة واحدة مدروسة بقدر كبير من الإتقان لاستخراج نموذج التّوظيف النّفسي انطلاقا من الحالة الواحدة، وهذا ما فعله سيجموند فرويد Sigmund Freud في دراسة نماذجه التّي قدّمها في" خمس حالات من التّحليل النّفسي"[16] (Les cinq psychanalyses).

إنّ تسليمنا بهذا المنحى يعني القبول بمصداقية دراسة الحالة كإحدى الأدوات المهمّة التّي يقوم عليها المنهج العيادي. هذه الأخيرة ستفيدنا من خلال دراسة معمّقة ودقيقة في استخلاص النّموذج السّيكوباتولوجي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري في إطار توظيفه النّفسي. وسنتبنّى المقاربة التّحليلية السّيكودينامية كطريقة تتناول تاريخ الحالة، وتأخذ بعين الاعتبار

[16] نموذج نموذج الهستيريا (حالة دورا (Dora))، نموذج الفوبيا (هانز الصّغير (Le petit Hans))، نموذج عصاب الوسواس، (رجل الجرذان) (L'Homme aux rats) ، نموذج البارانويا (حالة شرايبر (Schreber))، نموذج عصاب الطّفولة (رجل الذّئاب (L'Homme au loups).

الدّلالات الظّاهرية، الكامنة، واللّاشعورية للخطاب، والإنتاجية، والإشكاليات النّفسية التي تحييها الوضعية العيادية والإسقاطية.

المنهج العيادي إذن هو الطّريقة التي تسمح لنا بمعرفة نمط التّوظيف النّفسي، بهدف تكوين بنية واضحة للظّواهر النّفسية التّي تصدر لدى الفرد الواحد انطلاقا من دراسة الحالة (Perron, 1979, p. 38).

3. حدود الدّراسة:

1.3. الحـــــدود الزمانية: تمّ إجراء الدّراسة الميدانية في الفترة الممتدّة مابين 06 أكتوبر 2020 إلى غاية 18 سبتمبر 2022.

2.3. الحـــــدود المكانية: تمّ إجراء الدّراسة الميدانية بالعيادة النّفسية "Ma petite maison de psychologie" الكائن مقرّها بحي 100 مسكن اجتماعي تساهمي بمدينة عين تموشنت.

4. حالات الدّراسة:

اشتملت الدّراسة على حالتين راشدتين تمّ اختيارها بطريقة قصدية، وهي الطّريقة التّي يستخدم فيها الباحث الحكم الشّخصي على أساس أنّها هي الأنسب لتحقيق أهداف دراسته، دون أن يكون هناك قيود أو شروط غير التّي يراها مناسبة وفق مواصفات محدّدة لأفراد العيّنة، مبنيّة على المعلومات المعروفة مسبقا (فلاحي، 2017، ص240). وانطلاقا من هذا الأساس قامت الباحثة بانتقاء حالتين تعانيان من اضطراب الوسواس القهري وطالبة للفحص النّفسي في العيادة النّفسية "Ma petite maison de psychologie".

1.4. خصائص حالات الدّراسة:

يمكن توضيح خصائص حالات الدّراسة في الجدول الآتي:

جدول رقم (04): خصائص حالات الدّراسة

الحالات	الجنس	السّن	الحالة المدنية	المستوى التّعليمي	المهنة	نوع الاضطراب	مدّة الإصابة
الحالة الأولى	أنثى	23 سنة	غير متزوّجة	جامعي	طالبة جامعية	وسواس قهري متعلّق بالدّين مع صور جنسية	3 سنوات
الحالة الثّانية	أنثى	28 سنة	متزوّجة	جامعي	ماكثة بالبيت	وسواس قهري متعلّق بالنّظافة	سنتين

يظهر من خلال الجدول رقم (04) أنّ كلتا الحالتين تعانيان من وسواس قهري يأخذ أنواعا مختلفة وهذا يرجع لعدم وجود معيار النّوع كشرط أساسي لاختيار حالات الدّراسة. كما يبدو أيضا تجانس في الجنس (حالتين إناث) وذلك لأنّ الدّراسة لا تهدف لدراسة الفروق الجنسية. مع الأخذ بعين الاعتبار عامل السّن (21 سنة فما فوق) لاستبعاد أي متغيّر دخيل يرتبط بمرحلة الطّفولة، مع إقصاء كلّ اضطراب عصبي -عقلي أو إدماني.

5. أدوات الدّراسة:

للتّحقّق من فرضيات الدّراسة، تمّ الاعتماد على مجموعة من الأدوات تتناسب مع موضوع وأهداف ومنهج الدّراسة، نذكرها فيما يلي:

1.5. دراسة الحالة:

تعدّ دراسة الحالة من أهمّ الأدوات المستخدمة في علم النّفس العيادي. هذه الأداة تقوم على علاقة نوعية وخاصّة بين الفاحص والمفحوص، وتؤدي بذلك إلى الوصول إلى نتائج هامّة وقيّمة تتعلّق بالمفحوص. مبدؤها الأساسي هو الانتباه الخاصّ والنّوعي والمشاركة والملاحظة الفعّالة والوصف الدّقيق لخصوصية الوضعية العيادية والتّوظيف النّفسي للشّخص الذي يشكّل تركيبة نوعية للأحداث النّفسية، التّي يكون مصدرها الشّخص (جعدوني، 2011، ص129).

تماشيا مع منهج الدّراسة، وانطلاقا من الإعتبارات السّابقة، تم الاعتماد على دراسة الحالة كأداة أساسية يستعين بها الباحث العيادي، وذلك لما تقدّمه من معلومات شاملة ومفصّلة ومعمّقة، تمكّن من فهم مختلف السّيرورات النّفسية وتسجيل تفسيرات لها تمكّن من لمس مختلف الظّواهر والعمليات النّفسية البسيطة منها وحتّى المعقّدة.

2.5. المقابلة العيادية:

تُعرّف المقابلة حسب "Le petit Robert" بأنّها:«فعل تبادل الكلمات مع شخص أو عدّة أشخاص» (Chiland et al, 1983, p. 01). هذا التّعريف يجعل مختلف أنواع المقابلات تشترك في نفس الخاصّية وهي "تبادل الكلمات". لكن في المقابلة العيادية يُضاف إلى هذا التّعريف المصطلح الطّبي "عيادية" (Clinique) ليجعل منها وسيلة للتّشخيص والعلاج والمساعدة. المقابلة العيادية إذن هي نشاط مهني هادف وليس محادثة أو دردشة عادية، فهي لا تركّز على الحوار الظّاهري فحسب، بل على مجموع الاستجابات الظّاهرية وغير الظّاهرية للمفحوص ضمن إطار عيادي

محدّد بزمان ومكان (جعدوني، 2011، ص131). لتصبح بذلك: « حالة من التّبادل بين شخص نشِط (Actif)، يقوم بتنظيم أسلوبه الخاصّ في الحوار، ومختصّ عيادي يعمل على اتّخاذ الموقف الحيادي، والاستماع الجيّد لشخص عادة ما يأتي بمعاناة أو طلب أو شكوى، وتتميّز هذه العلاقة بتباين الطّلب (L'asymétrie de la demande) » (Weill-Barais& al, 1997, p. 101).

والمقابلة العيادية النّصف موجّهة، هي أحد أنواع المقابلات العيادية التّي تهدف إلى السّير في اتّجاه واضح وبأقلّ توجيه وضبط للأسئلة مع المحافظة على حرّية تعبير المفحوص من خلال أسئلة معدّة مسبقا والتّي تتميّز بنوع من المرونة (Weill-Barais et al, 1997, p. 100).

على هذا الأساس تمّ الاعتماد على المقابلة العيادية النّصف موجّهة، كأحد الأدوات العيادية المهمّة التيّ تُفيدنا في فحص وفهم الدّينامية النّفسية للتّوظيف النّفسي، فهي أداة قيّمة تسمح ببلوغ الفهم الدّقيق للمعطيات الذّاتية وللحياة النّفسية للفرد في تفرّده وشموليته (Dans sa totalité).

وتمّ إدراج مجموعة من الأسئلة المفتوحة توجّه بشكل منتظم حالات الدّراسة نحو أسئلة دقيقة للحصول على إجابات تصبّ في إطار الأهداف المنهجية للدّراسة. ولم يكن التّدخل إلاّ عند الضّرورة. وحاولت الباحثة تشجيعها على التّعبير التّلقائي والتّحدّث بحرّية، وتوفير جوّ من الثّقة والتّفهم والتّعاطف الحيادي على مدار جميع المقابلات العيادية، وكذلك تفادي أي حكم تقييمي أو مسبق، بهدف جمع أكبر قدر من المعلومات ورؤية الحالة كما هي، ودراستها في شكل منسّق ومنظّم يُؤمّن فهم واقعها النّفسي ببعديه الشّعوري واللّاشعوري.

سارت المقابلات العيادية مع حالات الدّراسة وفق خمس حصص، سُطّرت من خلالها الأهداف التّالية:

1- تحديد الانشغالات النّفسية من خلال التّاريخ النّفسي للحالة وراهنها (Anamnèse et Catamnèse).

2- فحص الهيئة العقلية.

3- التّشخيص التّصنيفي.

4- التّشخيص البنيوي.

5- الفحص الإسقاطي من خلال اختبار الرّوشاخ.

وتمّ تحليل المقابلات العيادية ضمن مستويين:

- مستوى نفسي- دينامي: يسمح بفهم مضمون خطاب المصاب باضطراب الوسواس القهري.
- مستوى تحليلي- وصفي: يسمح بتحديد العناصر الميتاسيكولوجية الخاصّة بالتّوظيف النّفسي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري وفق مبدأ التّميّز والتّفرّد.

3.5. الملاحظة العيادية:

هي أسلوب مكمّل للمقابلة العيادية، وتّعرّف بأنّها ذلك الانتباه المقصود والموجّه نحو السّلوك الفردي أو الجماعي دون تغييره أو تحريفه (Ghiglione& Richard, 2007. p. 62). يستعين الباحث العيادي بهذه الأداة لجمع أكبر قدر من المعلومات. فأثناء الفحص النّفسي العيادي يقوم بالاهتمام بمفحوصه وبسياقاته النّفسية، وذلك بملاحظة سلوكه وهو يستجيب للمقابلات العيادية أو الاختبارات النّفسية، بهدف رصد تغيّراته ووصفه وتحليله وتقييمه بشكل منظّم، ثمّ إعطائه معنى بإعادة وضعه في ديناميكية وفي سياق جديد (لرينونة، 2015، ص47).

تمّ الاعتماد على الملاحظة العيادية المباشرة من خلال الاتّصال المباشر بحالات الدّراسة أثناء الوضعية العيادية والإسقاطية، بهدف رصد كلّ ما يظهر على الحالتين من أعراض، وسلوكيات، وإيماءات، وتعبيرات جسدية، ولفظية وغير لفظية. كما تمّ الاستعانة بالملاحظة المسلّحة (Armée) التّي تعتمد على الأدوات الميكانيكية كالمسجّلات والكاميرات (لرينونة، 2015، ص47)، وذلك بالاستعانة بمسجّلة صوتية (Magnétophone) وكرونوماتر (Chronomètre) أثناء الوضعية الإسقاطية، هذا النوّع من الملاحظات سيتيح لنا إمكانية الاحتفاظ بالكثير من المعلومات والعودة إليها لتحليلها لاحقا في ظروف أفضل لتجنّب أي تفسير فوري أو حكم متسرّع .

4.5. فحص الهيئة العقلية:

ستسمح لنا هذه الأداة ببلوغ التّشخيص البنيوي للتّوظيف الوسواسي القهري لدى حالات الدّراسة، حيث يركّز هذا الفحص على ملاحظة الاستجابات السّلوكية التّلقائية اللّفظية منها والحركية، كما يقدّم معلومات حول محيط المفحوص عندما يقوم بعرض مشكلته، إذ يقدّم شرحا مزوّدا بتعاليم لضبط الهيئة العقلية، ويتكوّن من عنصر الاستعداد والسّلوك العام، المزاج

والعاطفة، محتوى التفكير،القدرة العقلية، والحكم والاستبصار (جبار، 2016، ص151). يحصل الفاحص على هذه المعلومات من خلال المقابلة العيادية والملاحظة العيادية.

5.5. التّشخيص التّصنيفي (DSM IV TR):

سيسمح لنا التّشخيص التّصنيفي من خلال DSM IV TR باقتراح وصف موضوعي لا نظري لاضطراب الوسواس القهري، وذلك من خلال تشخيص متعدّد المحاور (Multiaxial) يؤكّد وجود عرضية وسواسية و/أو قهرية، كما يسمح لنا بالتّشخيص الفارقي مع اضطرابات أخرى من مثل الشّخصية الوسواسية، اضطراب الهلع، الفوبيا... وغير ذلك من الاضطرابات.

ولقد تمّ استخدام DSM IV TR (بالموازاة مع DSM5) لأنّه يشمل تقييما عياديا على 05 محاور (بدلا من 3 في DSM5) يحيل كلّ واحد منها إلى مجال مختلف من المعلومات. حيث يعيننا المحور IV على تحديد المشكلات النّفسية الاجتماعية والمشكلات البيئية التّي قد تؤثّر على التّشخيص. أمّا المحور V فيسمح لنا بتقييم شامل للأداء الوظيفي (EGF) الذي يمدّنا بمعلومات مفيدة في وصف الاضطراب وفي قياس شدّته (خفيف، متوسّط، شديد) من أجل التّنبّؤ بمآله (كخطر انتحاري مثلا). وهذا ما يما يمكّننا في الأخير من تقييم شامل ومنهجي يسمح بتنظيم وتسجيل جميع المعلومات السّريرية المتعلّقة بالحالة.

6.5. التّشخيص البنيوي:

بما أنّ فهم التّوظيف النّفسي يصبّ في قالب التّشخيص البنيوي، تمّ استخدام هذه الأداة إلى جانب التّشخيص التّصنيفي (DSM IV TR) لتكملة التّشخيص الخاصّ بالتّوظيف النّفسي لدى حالات الدّراسة، ويكون هذا الأخير حسب الأعمال الموجّهة لمقياس سيكوباتولوجية الرّاشد للدّكتور نصرة قويدر رحمه الله (1978) من خلال فحص الهيئة العقلية، الفحص السّيكاتري (فحص القدرات العقلية والعلائقية)، مقابلة التّنفيس التّحليلي والمقابلة العيادية النّصف موجهة، تفسير وتحليل الصّراعات، ويتضمّن بعد التّعرف على الأعراض والسّمات الشّخصية، وذلك من خلال إدماج الهوية (كيفية تواجد إدراك الذّات)، فحص الواقع (كيفية التّعامل مع الواقع)، والميكانيزمات الدّفاعية المستخدمة.

7.5. اختبار الرّوشاخ:

لأنّ التّحليل النّفسي لا ينظر إلى الأعراض كأعراض مرضية فحسب، بل كمكوّنات أساسية للغة مشحونة بالمشاعر ذات معنى تعمل الاختبارات الإسقاطية على استخراجها، وتحديد طبيعة الصّراع الذي يعطي معناه الكامل للأعراض أو السّلوكيات المختلّة وظيفيا (Léveillée et al, 2008. p. 07)، تمّ الاعتماد على اختبار الروشاخ كأحد الاختبارات الإسقاطية التّي تعمل على استخراج المادّة اللاّشعورية المكبوتة، ودراسة جميع جوانب الشّخصية وفق معايير تحليلية مدروسة تمكّن من الكشف الدّقيق عن الحياة النّفسية للفرد.

إنّ دقّة الاختبار تُمكّن من الكشف عن علامات سريرية من شأنها أن تكشف عن سيرورات خفيّة قد لا تسمح الملاحظة أو المقابلة العيادية بالكشف عنها. هذا الاختبار يسمح بتقدير ديناميكي لموارد الشّخص الحالية والكامنة، بالإضافة إلى نقاط ضعفه.

ولقد حاولت الباحثة أثناء تطبيقها للاختبار، توفير كلّ الشّروط المناسبة، بداية بتوفير مادّة الاختبار، والاستعداد الجدّي لاستقبال حالات الدّراسة، والتّنسيق والإتّفاق معها على مواعيد الفحص الإسقاطي.

فيما يخصّ وصف الإختبار، يمكن الرّجوع إلى الجانب النّظري (أنظر صفحة 97). أمّا فيما يخصّ طريقة تطبيقه، فقد تمّ اتّباع جميع مراحل الإجراء التّي يُحبّذها المختصّون، وذلك على النّحو الآتي:

التّعليمة:

تمّ تكييف التّعليمة حسب الموقف الإسقاطي الخاص بكلّ حالة، وذلك من حيث ردود أفعالها اتجاه المادّة، وكذلك لغتها المستعملة، حيث كانت التّعليمة الملقاة مقتبسة من تعليمة كاترين شابير Catherine Chabert ومصاغة باللّغة العربية "العامّية" (وهي نفس اللّغة التي كانت تستعملها الحالات) على النّحو التّالي: "رايحة نورّي لك عشرة صور فيهم بقع تاع حبر، وأنت قول لي واش راك تشوف، ولاّ واش راك تتخيل فيها". مع الحرص على اتّخاذ الموقف الحيادي، دون تقديم أيّ إجابات أو تفسيرات موحية، ودون إعطاء أحكاما عن الإجابة المقدّمة.

- **التّمرير التّلقائي:**

من خلاله قمنا بتسجيل أزمنة الاختبار (زمن الكمون، زمن الاستجابة، والزّمن الكلّي) في كلّ لوحة وفي الاختبار ككلّ، وذلك لمعرفة اللّوحات التّي انحرفت فيها الحالة بشكل ملحوظ عن المتوسّط المعتاد، ومنه تحديد النّقاط الحسّاسة التّي أثّرت فيها أثناء الاختبار. كما تمّ تسجيل جميع الإجابات المقدّمة حرفيا (Ad verbatum) مع الشّروحات والتّعليقات المقدّمة، بالإضافة إلى جميع السّلوكيات، الإيماءات، والاستفسارات التّي أبدتها الحالة حول طريقة الاجتياز، دون أن ننسى تسجيل تغيير وضعية اللّوحة أثناء الإجابة: عادية على اليمين (^)، مقلوبة (V)، جانية (< أو >) (Anzieu& Chabert, 2015, p. 60).

- **التّحقيق:**

قمنا في هذه المرحلة، بحثّ الحالتين على التّعبير عن ما شعرت به أثناء تقديم إجاباتها العفوية دون الإدلاء بأيّ إجابة موحية. ولقد حاولنا التّعامل معها بنوع من المرونة بعيدا عن التّحقيق الصّارم الذي يوحي بالرّقابة الشّديدة أو بالمطالبة بتبريرات للإجابة التّي قدّمتها أو بأنّها خاطئة. وتمّت هذه المرحلة بإلقاء تعليمة ثانية مصاغة أيضا باللّغة العربية "العامية" كما يلي: "مرّة أخرى راني رايحة نرجع لك كلّ الصّور، ووريلي وين شفت الشّي اللّي قلت لي، وعلى واش اعتمدت في الإجابة نتاعك؟ وإذا عندك إضافات أخرى تقدر تقولها".

كانت هذه التّعليمة هي التّعليمة العامّة الخاصّة بمرحلة التّحقيق، ولكن نشير إلى أنّه تمّ ذكرها في كلّ لوحة بالصّيغة التّي تناسب المنبّه المستحضَر أو أي منبّه آخر تمّ إضافته. فمثلا عندما تمّ رؤية خفّاش في اللّوحة الأولى طلبنا من الحالة تحديد المكان الذي رأته فيه من البقعة، وما الذي جعلها ترى الخفاش؟ هل شكله؟ أم لونه؟ وكذلك اختلاف الألوان من حيث العمق، الانتشار، الملمس، وهل هو في حركة أم سكون. ونقوم أثناء ذلكّ بتسجيل الإجابات الإضافية إن وُجدت.

عموما، تمّ الإستفادة من مرحلة التّحقيق وتحقيق الحدود في تسجيل ملاحظات أوّلية حول طبيعة سير النّظام النّفسي وطبيعة الإنتاج الإسقاطي لدى كلّ حالة، وهذا ما فسح لنا مجالا آخرا لتقييم قدراتها على المرونة والتّغيير أو الصّلابة والانغلاق.

- اختبار الاختيارات:

بعد التّحقيق، طلبنا من الحالات أن تختار من بين اللّوحات العشر التّي نضعها أمامها، "لوحتين فضّلتها أو أعجبتها أكثر"، و"لوحتين لم تفضّلها أو لم تعجبها ". وكان هذا الإجراء فرصة للتّعبير بكلّ حرّية عن الاختيارات التّي لم يمكن بالإمكان التّعبير عنها سابقا، وكذلك التّحدّث عن الاختبار وكيفية استثماره.

تجدر الإشارة في الأخير، إلى أنّ جميع هذه المراحل تمّ اتباعها بطريقة مستمرّة ومتواصلة، دون وجود فاصل زمني بين كلّ مرحلة والمرحلة التّي تعقبها (Chabert, 1983, p. 38).

بعد الإنتهاء من تطبيق الاختبار، وتماشيا مع توجيهات المختصّين، قمنا بقراءة متأنّية (في غياب الحالات) لكلّ البروتوكول قبل الشّروع في تحليله. هذه القراءة ستسمح لنا بتناول خصائص الخطاب من حيث التّناسق أو عدمه، التّتابع أو الانقطاع، المرونة أو الانغلاق... بعد ذلك، تمّ جمع جميع الإجابات المقدّمة في المخطّط نفسي (Psychogramme) لتقييمها لاحقا، وذلك بتحويلها من طبيعتها اللّفظية إلى صيغتها الرّمزية، مع احترام الإنتاج الإسقاطي الخام كما ورد على لسان الحالات، والتّسجيل الدّقيق والوفيّ لكلّ ما ذكرته، وذلك حرصا على الدّقة أثناء التّشخيص. ولقد فضّلنا ترميز تلك الإجابات باللّغة الفرنسية، وهذا ليس تقصيرا منّا في ترجمتها إلى اللّغة العربية، وإنّما من جهة لاعتمادنا على مدرسة باريس 5 (Paris V) في تحليل نتائج الاختبار، ومن جهة أخرى لعدم توافق التّرجمات في الكتب والدّراسات العربية السّابقة على رموز موحّدة.

وتمّ الاعتماد على طريقة كاترين شابير Catherine Chabert (1983، 1997، 2012)، لأنّها ستسمح لنا بدراسة المخطّط النّفسي بطريقة تفيد في استخلاص السّياقات الدّفاعية التّي تتبعها حالات الدّراسة في التّعامل مع الوضعية الغامضة والصّراعات التي تثيرها بقع الاختبار. وتمّ معالجة المعطيات الإسقاطية انطلاقا من التّحليل الكمّي والتّحليل الكيفي وفق ما تمّ تحديده في الجانب النظري (أنظر صفحة 106).

خلاصة الفصل:

تضمّن هذا الفصل مجموعة الإجراءات المنهجية التّي قامت عليها الدّراسة، والتّي سمحت لنا بتحديد عرضية الوسواس و/ أو القهر لمراقبة المتغيّر التّابع المتمثّل في التّوظيف النّفسي، وذلك من خلال مجموعة من أدوات الفحص العيادي والإسقاطي.

ولاختبار فرضيات الدّراسة، تم اعتماد المنهج العيادي القائم على دراسة الحالة، على حالتين تمّ اختيارها بطريقة قصدية وفق مواصفات وشروط منهجية محدّدة.

الفصل الخامس

عرض وتحليل ومناقشة نتائج الدّراسة

تمهيد

1. عرض وتحليل نتائج الدّراسة
2. مناقشـــة فرضيـات الدّراســـة
3. استنتاج عام

الفصل الخامس

عرض وتحليل ومناقشة نتائج الدّراسة

تمهيد:

بناء على النّتائج المتحصّل عليها في سياق اختبار فرضيات الدّراسة، سيتناول هذا الفصل عرض هذه النّتائج وتحليلها ومناقشتها ومقارنتها بنتائج الدّراسات السّابقة والإطار النّظري، لينتهي بخاتمة متبوعة بمجموعة من الاقتراحات.

1. عرض وتحليل نتائج الدّراسة:

1.1. عرض وتحليل نتائج الحالة الأولى:

1.1.1. تقديم الحالة الأولى:

الاسم: ملاك

السّن: 23 سنة.

السكن: بني صاف -عين تموشنت-

المستوى الاقتصادي: لا بأس به

المستوى الدّراسي: سنة ثالثة ليسانس

المهنة: طالبة جامعية (أدب عربي)

الحالة المدنية: غير متزوّجة

سوابق عائلية: لا توجد.

دافع الزّيارة: اضطراب وسواس قهري متعلّق بالدّين مع صور جنسية

مدّة الإصابة: 03 سنوات.

2.1.1. فحص الهيئة العقلية للحالة الأولى:

الاستعداد والسّلوك العام:

"ملاك" من النّمط الجسمي المكتنز (Type pycnique)، تميل إلى البدانة، ذات قامة طويلة، العيون سوداء، بشرة بيضاء، ترتدي الحجاب العصري، نظيفة المظهر، تميل إلى ارتداء الملابس باللّون الأسود، ملامحها توحي بالقلق والضّيق، تعاني من الأرق.

لم يكن الاتّصال معها سهلا في أوّل الجلسات النّفسية، حيث وجدتْ صعوبة في تقديم إشكاليتها والمتمثّلة في وساوس دينية وجنسية مصحوبة بطقوس مرضية، حزن عميق، بكاء، نقص الثّقة في الذّات وسوء تقدير الذّات، التّفكير في الموت، شكّ، اجترار فكري، تردّد، صعوبة اتّخاذ القرارات، عزلة، اندفاعية عدوانية اتجاه الذّات، تهديم الذّات «نجرّح روحي بلالام»، كره الموضوع الأبوي «نظل ندعي عليه ما نبغيهش». بالإضافة إلى أعراض جسدية تتمثّل في الاختناق النّفسي، كما لاحظنا صعوبة في استقرارها النّفسي الحركي ظهرت من خلال زيادة التّنفس أثناء الحديث، تشابك الأصابع، احمرار الخدّين، وأحياينا ارتجاف اليدين.

النّشاط العقلي:

لا تمتلك "ملاك" القدرة على التّعبير عن أفكارها بشكل عفوي، إلاّ أنّ أفكارها مترابطة ومنظّمة في معانيها باللّغة العربية "الدّارجة" والعربية الفصحى، تتخللّها فترات صمت طويلة تدلّ على الكفّ (Inhibition). ومع ذلك تحاول إعطاءنا وصف مفصّل لمعاناتها النّفسية بأسلوب يميل إلى الاكتئاب نظرا لفقدان الأمل وسوء تقديرها لذاتها.

المزاج والعاطفة:

أبدت "ملاك" خلال سائر الجلسات العيادية مزاجا هادئا ومتوتّرا في نفس الوقت، مشاعر الدّونية، شعور بالقلق، الخوف، التّهديد المستمرّ، ورغبة ملحّة في التّخلّص من معاناتها النّفسية.

محتوى التّفكير:

تتميّز "ملاك" بتفكير وسواسي قهري، تفكيرها منصب حول ما تعانيه من شكوك ووساوس (دينية وجنسية)، لها أفكار مشوّهة، تشاؤمية، وانتحارية تعكس معاناتها النّفسية العميقة، ترفض رفضا قاطعا تناول أي دواء مهما كان نوعه لسبب لا تستطيع تحديده «والله ما علابالي علاه بصّح خاطيني حاجة سمّوها الدّوا». أبدت خلال سائر الحصص العيادية تقديرها السّيء لذاتها، وصراعها بين الرّغبة في الانتحار بأفكار عدوانية اندفاعية نحو ذاتها، والدّفاع ضدّ فكرة الانتحار بأفكار مُثقلة بمشاعر الذّنب ولوم الذّات.

القدرة العقلية:

تعبّر"ملاك"عن أفكارها بأسلوب تشاؤمي يميل إلى التّناقض، فهي تتعارض بين خوف اللّه وبين سبّه والتّشكيك في وجوده. وهي غير قادرة على تجاوز هذه الإشكالية الصّراعية. ولو

أنّ "ملاك" كثيرة التّركيز على انشغالاتها ومعاناتها النّفسية، إلّا أنّها بدت قليلة التّركيز ومشوّشة التّفكير، فعندما طلبنا منها ترتيب أفكارها الوسواسية في شكل تصاعدي (هرمي) أي من الفكرة التّي تعتبرها أقلّ ألما إلى أشدّها ألما، قدّمت أفكارها بشكل مشوّش ومختلط، وصرّحت أنها محاصرة بالأفكار "التي تهجم عليها" (حسب تعبيرها) ولا تستطيع حصرها في شكل مُنظّم.

الحكم والاستبصار:

"ملاك" مستبصرة وواعية جدّا بمعاناتها وبما يشغلها من أفكار وسواسية مزعجة وأفعال قهرية تعيشها في حياتها اليومية، أبدت رغبتها في طلب المساعدة والفحص النّفسي مع إصرارها على رفضها الشّديد لتناول جميع الأدوية بما فيها الأدوية النّفسية (Les psychotropes).

3.1.1. التّشخيص التّصنيفي (DSM IV TR) للحالة الأولى:

المحور I:

اضطراب الوسواس القهري [301.9] .F42:

تستوفي "ملاك" جميع المعايير التّشخيصية لاضطراب الوسواس القهري: (A)،(B) ،(C)، (D)، (E)[17] حيث تقدّم الأعراض التّالية:

- أفكار وسواسية مستمرّة متعلّقة بالدّين وتصوّرات جنسية مقتحمة.

- سلوكيات قهرية وأفعال عقلية متكرّرة، تأخذ أكثر من ساعتين يوميا (حسب أقوالها) تتمثّل في: وضوء وصلوات متكرّرة، غلق الأذنين بشكل قهري لصدّ الأفكار المؤلمة، سبّ اللّه، استغفار قهري بشكل مبالغ فيه (99 مرّة)، تصفّح المواقع الدّينية كطقس مطمئن لتخفيف القلق.

- لوم الذّات وتأنيب ضمير مرتبط بوساوس دينية وتصوّرات جنسية.

- مع أنصايت جيّد (Bon insight): حيث تدرك الحالة بشكل مؤكّد عدم صحّة معتقداتها الوسواسية.

المحور II:

شخصية تجنّبية [301.9] F60.6 ، شخصية تابعة [301.6] F60.7 تظهران من خلال الأعراض التّالية:

---

[17] لا توجد اختلافات بين المعايير التّشخيصية في DSM IV TR و DSM5: (A)هو نفسه في الدّليلين، (B) في DSM5 هو (C) في DSM IV TR، (C) في DSM5 هو (E) في DSM IV TR. يمثّل (B) في DSM IV TR: إدراك المصاب في محطّة ما من سير الاضطراب، بأنّ الوساوس أو الأفعال القهرية مفرطة أو غير معقولة.

- تجنّب المواقف الاجتماعية (الرّكوب في الحافلة، التّسوّق، زيارة الأقارب...) بسبب الخوف من الانتقاد والسّخرية.

- تجنّب النّشاطات الجامعية والعمل الجماعي مع الزّملاء بسبب الارتباك والخجل والخوف من الرّفض.

- كفّ في المواقف العلائقية الجديدة بسبب الخوف من عدم الكفاءة.

- نمط ثابت من التّثبيط الاجتماعي، سوء تقدير الذّات مع فرط الحساسية تجاه التّقييم السّلبي والشّعور المستمرّ بعدم الكفاية، حيث تنظر الحالة إلى نفسها بأنّها عديمة الفائدة وأقلّ قيمة من الآخرين «نحس روحي بدائية... ما عندي حتّى قيمة ولا فايدة في المجتمع».

- الخوف من الانتقاد والتّخلّي عنها في المواقف الاجتماعية.

- حاجة مستمرّة إلى الدّعم، وإلى تحمّل الآخر لمسؤولياتها والقيام بواجباتها.

المحور III:

- غياب الإصابة الطبّيّة.

المحورIV:

- مشاكل علائقية مع الوالدين: لوم، حزن، لامبالاة، وغضب خاصّة تجاه الأب بسبب التّسلّط والضّغط المفرط.

- مشاكل أكاديمية: رسوب جامعي.

المحور V:

التقييم الشّامل للأداء الوظيفي يناسب الدّرجة 41-50 (تفكير انتحاري، أفكار وسواسية مع طقوس شديدة).

4.1.1. التّشخيص البنيوي للحالة الأولى:

إدماج الهوية:

بالرّغم من أنّ "ملاك" مدركة جيّدا لمعاناتها النّفسية، إلّا أنّها تتميّز بإدماج هوية ضعيف، غير قادرة على اتّخاذ القرارات، تتميّز بفراغ نفسي «قد ما راسي معمّر نحسّ روحي خاوية في ذاتي» (ممّا يشر إلى الإنشطار)، فقدان القيمة وعدم الرّغبة في العيش «زعما واش الفايدة؟

علاش راني عايشة؟ نتمنىّ الموت ترفدني... كل يوم نقول لوكان غي ما نصبحش»، التّناقض ما بين خوف اللّه وما بين التّشكيك في وجوده وسبّه، نقص الثّقة في النّفس، وتأنيب الضّمير.

فحص الواقع:

تعبّر "ملاك" عن واقع غير مؤمّن، مضطهد، ومهدّد لاستقرار هويّتها، فهو غير مستثمر بشكل فعّال، كما أنّها تبدي صعوبة في مواجهته والاندماج فيه، حيث أنّها تخاف من مواجهة الآخر وقول كلمة "لا" حتّى لا يتخلّى عنها «نخاف نقول اللّا نخاف نلقى روحي وحدي» .

الآليات الدّفاعية:

- ميكانيزمات عصابية تتمثّل في: تناقض وجداني (حب وكره الموضوع الأبوي)، التّجنّب، الإزاحة (البدائية (تدرك الأب بطيبة بالرّغم من أنّها تبدي عدوانيتها وكرهها له)، الكبت (صعوبة التّعبير الانفعالي: «ما نقدرش نعبّر حتّى نحسّ حكمتني عبرة»)، شكّ، تكوين عكسي، كفّ انفعالي «يضرّوني وما ندافعش على روحي...غي نردّ لقلبي»، شعور بالذّنب ولوم الذّات «علاش نقول هاكا...حرام عليّا... ما نستاهلش اسم ملاك».

- انشطار الأنا: حيث تحدّثت عن معاناتها، وذكرت أنّها لم تتمكّن بعد من البوح بأفكار وسواسية أخرى، وهذا ما يشير أيضا إلى الكبت.

5.1.1. تحليل المقابلات العيادية للحالة الأولى:

"ملاك" طالبة جامعية تقدّمت للفحص النّفسي بطلب واضح، وقد أبدت استعدادها التّام لإجراء المقابلات العيادية، دون أي تردّد، وكانت منضبطة طيلة الجلسات العيادية، وكان الاتّصال معها يتّسم بنوع التّعاون الإيجابي.

تحتلّ "ملاك" المرتبة الثّالثة بين أربعة إخوة، من بينهم ذكرين أحدهما موظّف ومتزوّج، والآخر لا يزال تلميذا في المرحلة الثّانوية، وأخت واحدة متزوّجة وماكثة في البيت. وهي تعيش مع أبيها الذي يبلغ 63 سنة، وهو متقاعد حاليا بعدما كان دركيّا، وأمّها البالغة 58 سنة وهي ماكثة في البيت، وكذلك أخوها الذي يصغرها سنّا ولا يزال تلميذا في الطّور المتوسّط.

ذكرت الحالة أنّها ترعرعت في محيط أسري لا بأس به ماديّا، وتحدّثت عن طفولة ومراهقة قاسية من طرف أب وصفته بالمتسلّط واللّامبالي، وأمّ خاضعة لا تقدّم لها الحماية

والحبّ الكافيين، حيث تقول: « شا يدير الميّت في يد غسّاله... مليكة (تقصد أمّها) بروحها مسيطر عليها...ما تقد ديرلي والو... ما دافعش عليّا، نحسّها ماشي مّا..... كارهة منّي».

تذكر ملاك في جلسة موالية أنّها كانت تتعرّض للضّرب والتّوبيخ من طرف أمّها لأنّها كانت تعاني من تبول لا إرادي استمرّ معها إلى غاية بلوغها عشر سنوات: « كانت تضربني.. خطرات غي على والو تشدني من الشّعر تجبد لي حكاية "التّبوّل"...سبّة برك...كانت دايما تقارني مع خاوتي». تضيف الحالة أنّ هذه الطّفولة التّي وصفتها بـــ "القاسية" جعلت علاقتها بأفراد أسرتها لاسيما والديها علاقة سطحية وجدّ متحفّظة، فهي لا تعبّر لهم عن حاجاتها ومعاناتها النّفسية، وتقول بأنّها تعاني في "صمت"، لدرجة أنّها عاشت أشهرا عديدة في "عذاب" مع أفكارها الوسواسية دون أن تفصح لأهلها بذلك، لأنّها أوّلا تستحي بهذه الأفكار، وثانيا لأنّهم لا يبالون ولا يهتمّون بها، حتّى أنّها تبقى أحيانا يوما كاملا تبكي في غرفتها دون أن تكلّم أحدا منهم دون أن يسأل أحدهم عنها أو عن سبب ذلك.

وأمّا علاقاتها الاجتماعية فهي محدودة جدّا، لا تتعدّى زملاء الجامعة في إطار تجنّب الاتّـــصال معهم وتقول:«ما عنديش صحابات، عندي اللّي يقراو معايا في الجامعة وماشي حتّى لتم...أصلا أنا ما نبغيش نكثّر معاهم نخاف يكرهو منّي، نحسّ روحي ثقيلة على النّاس...مام مع لافامي نحسّ روحي نرجف...نحشم، نقول يضحكو عليّا، الضياف يجو عندنا ما نخرجش عندهم... نحس روحي معقّدة» . إنّ هذا الكلام يعكس لنا جيّدا ميكانيزم التّجنّب الذي تلجأ إليه الحالة، وفي نفس الوقت سوء تقديرها لذاتها وخوفها من فقدان الآخر.

ولعلّ ما أثار انتباهنا أثناء التّبادل مع الحالة هو تجنّبها المستمرّ للصّورة الأمومية (La figure maternelle)، فكانت قليلة الكلام عنها، و تكتفي فقط بالإجابة على أسئلتنا عنها،على عكس أبيها الذّي كان حاضرا بقوّة في حديثها. وأكثر ما أثار انتباهنا في هذا الأمر هو استعمالها للأسلوب الموضوعي في حديثها عن أمّها بدلا من الأسلوب الذّاتي العاطفي، وكأنّها تتحدّث عن أمّ ليست أمّها (مليكة (تناديها باسمها)... امهم...الأمّ الخاضعة). واستنادا على هذه الملاحظة يمكننا اعتبار هذا النّوع من التّوظيف من وجهة نظر كريستيفا Kristeva كفراغ عاطفي يكشف عن نوع من التّقمّص الأوّلي السّلبي لأمّ "ميّتة"، لأمّ فقط "كجسد" يحتوي هذا الأنا المستكين ويحبسه: «نشوف روحي في مليكة... خاضعة تابعة»، لذلك تستكين أمام جبروت الموضوع

الأبوي، فيتسلّل ذلك الجبروت نظرا لقوّته المطلقة، وينتقل إلى مواضيع أخرى بسبب ذلك التّقمص السّلبي. وفي هذا الشّأن ترى كريستيفا Kristeva أنّ: «أمّ المصاب بالوسواس القهري هي أمّ "ميّتة"، "مدفونة"، "مجهولة"، "مكتئبة"، أو "أمّ لشخص لآخر"، بعدما قطع هذا المصاب الرّابط الغلمي[18] (Le lien érotique) للأب الصّارم، النّشط، المتشددّ الذي يعطي ابنه انطباعا بأنّه كائن فتّاك (Létal)، لا صوت له (Aphone) يتكلّم قليلا، ليحتفظ الابن من الجهة الأخرى بالانطباع الشّديد للنّظرات المتبادلة، للّمسات، ولرعاية "الغلاف المجهول" (Enveloppe anonyme) (Cupa& Pirlot, 2010, p. 66)».

تنطبق وجهة النّظر هذه على "ملاك" عندما تقول مثلا: « نحسها ماشي مّا»، و« كاينة ولاّ ماكايناش غي كيف كيف، هي بروحها كارهة حياتها مع بّا... بّا ما كانش اللّي يطيق يعيش معاه... دفنّا واحنا حييّن، بسبابه تعقّدْت... دايما التّالية... نخمّم في النّاس قبل ما نخمّم في روحي... واللّه ويقصدني واحد ونموت ما نعرف نقوله "اللّا"».

وأمّا بالنّسبة لمشكلتها الأساسية والتّي كانت أساس طلب الفحص النّفسي (دافع الزّيارة)، فتقدّم "ملاك" أفكارا متسلّطة متعلّقة بالدّين، وصورا جنسية متطرّفة، تُجبرها على القيام بأفعال قهرية تحاول من خلالها تخفيف شدّة القلق الذي تسبّبه لها هذه الأفكار والصّور. وقد بدا لنا من خلال المقابلات العيادية أنّ "ملاك" مستبصرة وواعية جيّدا (أنصايت جيّد) بمعاناتها النّفسية وفي نفس الوقت بعدم صحّة معتقداتها، وهذا ما يجعلها توجّه انتقادا سلبيا لذاتها. ورغم هذا المستوى الجيّد من الأنصايت إلاّ أنّها تستلم لأفكارها، وتشكّك في إيمانها باللّه لدرجة أنّها أصبحت مُجبرة على سبّ ولعن كلّ ما يتعلّق بالدّين.

تتهاطل على "ملاك" أسئلة وجودية متكرّرة لا تتمكّن من إيقافها، تقتحم عقلها فجأة وتسيطر عليه، فتُسبّب لها ألما وضيقا شديدا، وقد بذلت جهدا كبيرا لتفصح لنا عن محتواها، وكان ذلك بعد تكتّم وتردّد كبير، نتيجة شعورها بالخزي والعار: « أنا مسلمة ولا كافرة ؟ بلاك راني نديرها بلعاني أنا ماشي مسلمة»، « كيفاش يشوفنا ربّي واحنا ما نشوفوهش؟» ،« ربّي مين جاب هاد القوّة؟ بلاك ماكانش أصلا؟ علاش ما نشوفوهش؟...» إنّ هذا الاجترار الفكري

[18] يبعث مصطلح غلمي (érotique) إلى الطّابع الطّفولي للنّزعة اللّيبيدية، كما يمكن استعمال مصطلح "شبقي" إذا أردنا التّركيز على الجانب الإشباعي للذّة (سي موسي وبن خليفة، ص32).

يغزو نشاطها العقلي، فتصبح "ملاك" مُهاجمة أكثر بالشّكوك والطّقوس والتّأمّلات اللاّمنتهية، فينتابها خوف شديد من ارتكاب المعاصي ومن فقدان السّيطرة على ذاتها، وهذا ما يبدو من خلال كلامها: « راني خايفة يهبّلني الشّك... نخاف نهبل...نخاف ندير حاجة تغضّب ربّي». وأمام هذا "الاستثمار الفكري المفرط" تشعر "ملاك" بتأنيب ضمير فتتوجّه بالأذى والعدوان نحو ذاتها «كي نندم نولّي على روحي... نضرب روحي...نجرح روحي بلالام حتّى الدّم يقعد يسيل»، وكذلك نحو والديها في صورة كيد وامتناع عن المساعدة «نظلّ ندعي عليهم بالموت، لوكان نشوفهم يعانوا أنا تاني ما نرحمهش». وتظهر العدوانية هنا سواء الموجّهة نحو الذّات أو الموجّهة نحو الوالدين كنظام دفاعي أمام توظيف نفسي مُثقل بمشاعر الذّنب، النّدم، وتأنيب ضمير « واللّه نندم... نلوم روحي بزّاف...تاكلني الندامة» يذكّرنا بما قاله سيجموند فرويد Sigmund Freud:« سيكون من الصّعب فهم الشّعور بالذّنب الذي يغمر العصابي (Le névrosé) إذا أردنا تفسيره بأخطاء حقيقية. قد يغمر المصاب بعصاب الوسواس شعور بالذّنب يمكن تبريره عند مجرم ارتكب عدّة جرائم قتل (...) ومع ذلك، فإنّ شعوره قائم على أسس، فهو يستمدّ دوافعه من رغبات الموت الشّديدة والمتكرّرة التّي تتّجه في لاشعوره ضدّ أمثاله. لم يتأسّس من حقائق واقعية، بقدر ما تأسّس من نوايا لاشعورية. هذه هي الطّريقة التّي يظهر بها جبروت التّفكير، وهيمنة السّيرورات النّفسية على حقائق الحياة الواقعية...» (Brunot, 2005, p. 31).

وفي المقابل تعاكس "ملاك" هذه الإندفاعات العدوانية العنيفة لمكافحة حاجاتها النّزوية المحبطة والعدوانية «روحي أمانة نتهلّى فيها... ما نبغيش الشّوكة توشي والديا...شكون يفرّط في والديه»، فيظهر ميكانيزم التّكوين العكسي عندها كنوع من المقاومة المباشرة ضدّ تمثّلاتها وأفكارها المؤلمة.

إنّ هذا الجانب المتمرّد، المبالغ فيه، والعنيد لهذا الطّبع الذي ظهر عند الحالة، يعيدنا إلى ما اصطلح عليه سيجموند فرويد Sigmund Freud بـــسمات "الغلمة الشّرجية" (Érotisme anal) التّي تختلط فيها النّزوات العدوانية مع النّزوات اللّيبيدية، وهذا ما يبعث نحو توظيف سيكوباتولوجي وصراع نفسي شديد تفشل "ملاك" في تسييره تحت وطأة الأنا الأعلى، فينشأ شغف فكري على شكل تفكير وسواسي مفرط يزيد من حدّة تأنيب الضّمير عندها. وفي نفس السّياق يمكننا تفسير الملاوم (Les reproches) التّي توجّهها "ملاك" لذاتها من منظور التّحليل

النّفسي، بأنّها ملاوم مشوّهة بعمل نفسي لا شعوري يقوم على التّبديل، أي أنّها تستبدل تصوّراتها الجنسية المؤلمة وتعوّضها بلوم الذّات. وهذا ما يؤكّده سيجموند فرويد Sigmund Freud عندما يقول بأنّ الملاوم التّي يقدّمها المصاب بعصاب الوسواس هي في الأصل حالة انفعالية ثابتة ومخلّدة (Éternisé) ارتبطت بتصوّرات جنسية لا تّطاق فتحوّلت إلى فكرة متسلّطة (سي موسي؛ وبن خليفة، 2010، ص66).

وإذا توقّفنا عند الصّراعات الطّفولية التّي تحدّثت عنها الحالة بشكل مستمرّ خلال معظم الجلسات النّفسية، فيمكننا تفسير وساوسها كنتيجة لصراعاتها العاطفية التّي عاشتها خلال مرحلة الطّفولة، فهي إمّا لم تتمكّن من حلّها، وإمّا لم تنجح في كبتها بشكل فعّال (فشل الكبت)، وهذا ما ترك لها "تثبيتات" (Des fixations) على مستوى اللّاشعور. وعلى هذا الأساس يمكننا القول أنّ هذا الإحياء الرّمزي (La reviviscence symbolique) للصّراعات الطّفولية الذي ظهر عند "ملاك" ما هو إلّا مؤشّر على صعوبة الإعداد النّفسي لصراعاتها النّفسية التّي لم يتمكّن الأنا من تجاوزها.

وعن ما تعانيه "ملاك" من مشاعر ذنب نتيجة كرهها لوالديها، تقول: « ندعي بالموت على أقرب النّاس ليّا...نستحقر بيهم...من بعد نقول علاش راني ندعي عليهم...نكره روحي...هاذو والديا اللّي نبغيهم... نخاف كاش ما يصرالهم». إنّ هذا الكلام الذي أفصحت به الحالة يكشف عن وجود ما يسمّيه التّحليل النّفسي بـــ "التّناقض الوجداني" (L’ambivalence) أي حبّ وكره في نفس الوقت، وهذا ما يفسّر وجود دفاعات نفسية خاصّة عندها (تكوين عكسي، عزل، إزاحة، تكوين العرض: سنأتي إلى توضيحها لاحقا) وتعتبر كلّها استثمارا مضادا لأفكارها الوسواسية وتصوّراتها الجنسية وهواماتها العدوانية، وهذا ما يزيد من تعزيز الأعراض الوسواسية عندها. فعندما تقول "ملاك":«نبغي نقلع من روحي ونزيد في والديا، نخسر صغري وشبابي على جالهم...الوالدين ما يتعوضوش»، يمكننا تطبيق الوصف الذي قدّمه سيجموند فرويد Sigmund Freud حول الأعراض الوسواسية التّي تنشأ في إطار التّناقض الوجداني بـــ "نوع من الأخلاق المفرطة للدّفاع عن الحبّ تجاه الموضوع ضدّ الكره الذي يكمن وراءه" (Freud, 1973, p. 197). كما يوضّح كلامها أيضا آلية التّكوين العكسي.

إنّ هذا التّناقض الوجداني الذي يوجد داخل "ملاك" يشهد على "أنا مُرهق" أمام "أنا أعلى صارم وقاسي"، يمثّل بصلابته قوّة مهيمنة، كابحة، تعذّبها باستمرار، تُغرقها بتأنيب الضّمير ولوم الذّات، وتُطالبها بتصحيحات دائمة لأفكارها وتصوّراتها وعدوانيتها. وهذا ما أقّره غرين Green (1967, p. 638): « يتشبّث الوسواسي بتقديم الأدلّة التّي فقط يرغبها الأنا الأعلى، ويحصر نفسه في الامتثال لهذه الرّغبة الوحيدة.

وإذا عملنا بفكرة " الأنا الأعلى اللاّمتسامح" لــ غرين Green (1964, p. 694)، نستطيع القول أنّ الأنا الأعلى لــ "ملاك" يتصرّف وكأنّ الكبت لم يحدث أصلا (عودة المكبوت)، ليصبح الهو لديها أيضا غير متسامح تجاه هذا الأنا الأعلى الصّلب، فيلحّ عليها طلبا للإشباع. إنتاج الأعراض إذن يعني طلبا للتّجاوز تجاه الأنا الأعلى، وهنا لا يجد الأنا سبيلا في كفاحه ضدّ ما تمّ كبته إلاّ الإشباع المازوشي (عدوانية ذاتية) مضيفا الطّابع الجنسي على الأنا الأعلى، وهذا ما يغذّي لديها إحساسات التّأنيب النّاتجة عن التّصورات الجنسية.

وفي ظلّ هذا التّسلل الفكري للتّصوّرات القهرية (الدّينية والجنسية) المراودة للحالة، يتمّ تطوير نوعية خاصّة من الآليات الدّفاعية، حيث يشير تكوين العرض عندها إلى عودة المكبوت، يعني ذلك أنّ أعراض الوسواس القهري الموجودة عندها لم تحدث بفعل الكبت نفسه، بل هي رمز لفشله، وما تشكّل هذه الأعراض إلا نتيجة لهذا الفشل.

كما أنّ عودة الذّكريات المكبوتة عند الحالة يعني فشل دفاعها النّفسي، فأصبحت تكوينات التّسوية (Formations de compromis) بين تصوّراتها المكبوتة ودفاعاتها النّفسية شعورية، ظهرت على شكل تصوّرات قهرية وعواطف مؤلمة، وقد تمّ إقصائها (عزلها) لا شعوريا، لأنّها مرتبطة بتمثّلات صراعية مؤلمة بقيت عندها على مستوى الشّعور. ومن هنا يمكننا أن نستنتج أنّ هذا النّمط من التّوظيف النّفسي الذي تميزت به "ملاك"، يشهد على واقع مهدّد ومؤلم، تقوم بمراقبته بطقوس قهرية (تصفّح المواقع الدّينية، استغفار قهري، تكرار الصّلوات، تكرار الوضوء...). هذا الاستثمار القهري لهذا الواقع الخاصّ للحالة، أصبح محلّا لتوظيف العدوانية وإزاحتها إلى الذّات وإلى الآخر.

تُبرّر هذه العدوانية ما تشعر به "ملاك" من ضيق شديد تجاه أفكارها التّي تعترف بعدم عقلانيتها، فتلوم نفسها، وتشكّك في صحّة صلاتها عندما تقتحمها الصّور الجنسية (تتخيّل أنّها في

فعل جنسي مع أبيها) أثناء الصّلاة، لتجد نفسها مضطرة بعدها إلى معاقبة نفسها بجرح يديها بواسطة الشّفرة.

إنّ هذا الدّفاع الصّلب ضدّ التّصوّرات المحارمية اللّاشعورية الذي تتميّز به "ملاك" يُبرّر أيضا تنامي العدوانية تجاه أبيها، وإزاحتها فيما بعد إلى مواضيع أخرى بديلة (الذّات والأمّ).

إنّ هذا التّوظيف النّفسي يحيلنا أيضا إلى ما أشار إليه جوينيه Juignet عندما تحدّث عن صراع المصاب بالوسواس القهري الذي يتميّز بالدّفاع الصّارم ضدّ المتطلّبات الأوديبية وضعف الدّينامية القضيبية لديه، وهو مؤشّر لآلية التّثبيت في المرحلة الشّرجية (سي موسي وبن خليفة، 2010، ص69). يعني ذلك أنّ نقص الرّوابط الإيجابية لـــ "ملاك" مع أمّها لم يسمح بإرصان مقبول للغيرة التّي تولّدها الوضعية الأوديبية المولّدة لقلق الإخصاء (Angoisse de castration)، ليبقى الأب عندها على تلك الصّورة المهدّدة، المرعبة، التيّ تغذّي مشاعر النّدم وتأنيب الضّمير النّاجمة عن أفكارها وتصوّراتها الجنسية، وهو أيضا ما يبرّر تراكم العدوانية تجاهه وصعوبة تسييرها نتيجة صعوبة الإعداد النّفسي للصّراع النّفسي الدّاخلي. فبالرّجوع إلى التّفكير المستمرّ لملاك في الموت «كي يجيني الوسواس نجرح روحي بلالام... نتمنّى نموت... كلّ يوم نقول لوكان غي ما نصبحش... لوكان نموت نتهنّى... سيّيت شحال من مرة ننتحر »، يمكننا القول أنّ هذا التّفكير نابع من الرّغبة في التّخلّص من أنا أعلى قاسي ومن قيوده الصّارمة التّي يفرضها على واقعها. كما يمكن تفسير محاولاتها الانتحارية المتكرّرة كوظيفة نداء للاستغاثة.

كشفت معطيات المقابلة العيادية مع "ملاك" عن نظام متعارض حبّ/ كره، سادية/ مازوشية، ساهم في تأصيل وتعميق قلق الإخصاء، مشاعر العدوانية، والشّعور بالذّنب بسبب الأنا الأعلى القاسي تجاه الأنا الذي ينهمك في استخدام نوع خاصّ من الآليات الدّفاعية لتخطّي هذه المشاعر المؤلمة، وتمثّلت بشكل خاصّ في: التّكوين العكسي، تكوين التّسوية، التّثبيت، الكبت (تشويه محتوى التّمثّلات النّزوية العدوانية واستبعاد العاطفة المؤلمة المصاحبة)، الإلغاء الرّجعي (السّعي إلى محو الفكرة أو التّصور عن طريق الاستغفار القهري أو الوضوء المتكرّر)، العزل، والإزاحة.

فعجز الحالة عن إيجاد حلول تفاوضية بين رغباتها والدّفاع ضدّها، جعلها مضطرّة إلى تعويضها بهذه الدّفاعات الوسواسية التّي كشفت في إطار المقابلة العيادية عن تنظيم عصابي تميّز باستثمار قهري للواقع.

6.1.1. عرض وتحليل نتائج اختبار الروشاخ للحالة الأولى:

1.6.1.1. عرض نتائج اختبار الروشاخ للحالة الأولى:

كانت "ملاك" هادئة أثناء الفحص الإسقاطي وتتكلّم بصوت خافت، وقد تمّ تطبيق الاختبار في ظروف مناسبة مكّنت من تسجيل عددا من الاستجابات نعرضها في الجدول الآتي:

جدول رقم (05): بروتوكول الرّوشاخ للحالة الأولى.

اللوحة	الإجابات المقدّمة	عدد الإجابات	التحقيق	زمن الكمون	التّنقيط
I	٨...بلاك بوبشير هذاك خفّاش ٨...حيوان مفزع يخلع 52"	02	كلّ البقعة (G) كلّ البقعة (G)	59"	G F^+ A Ban تردّد G FClob A Choc au noir
II	٨...>...حيوان مفترس محيّر لكن قتلوه ٨...هذا قلبه في الأعلى ٨...هنا رحم 1'42"	03	كلّ البقعة (G) الجزء الأحمر في الأسفل (D3) الفراغ الأبيض في الوسط (Ddl5)	1'10"	G FClob A →Dest Dénégation DF^+ Anat Ddl F^- Sex
III	V...شخص شاد في رأسه V...هذه يدي حيوان بمخالب بزاف مخيفة شفتها تخوف 1' 48"	02	كل الجزء الجانبي بالأسود (D9) الجانبيين السّفليين (D5)	58"	DF^+H Ban D F^{+-}Ad →Cob Condensation
IV	٨...لا أدري ٨...ربّما حيوان شامخ صامد 1' 02	01	كلّ البقعة (G)	1'25"	Choc au noir G F^+ A
V	٨..خفّاش يرفرف بأجنحته ولا خفّاش يرخي جناحه 2' 05"	01	كلّ البقعة (G)	59"	G kan A Ban
VI	٨...>...٨...خفّاش نائم ٨...هاذو شلاغمه ٨...هنا صليب كي	03	كلّ البقعة (G) الخط الصغير في الرّأس العلوي	1' 27"	GF^-A Équ. choc Dd F^-Ad

	يشوفوه النّاس يدّهشو 1'59"		(Dd26) البقعة الصغيرة الفاتحة في المحور الوسطي (Dd11)		Dd F^{+-} Elm
VII	٨...هنا ألاحظ أرنبين ظهرا لظهر ويتكلّمان مع بعضهما ٨...أو ربّما زوج أشخاص يرقصان ملتصقان ظهر للظّهر ودايرين عمامة فوق راسهم 2'28"	02	الجزأين الجانبيين في الأعلى (D2) كلّ البقعة (G)	1'12"	D kan A Ban G K H تردّد
VIII	٨...<..٨...زوج حيوانات مفترسة ٨... يديْ امرأة ٨...هنا عضو ذكري صلب 1'47"	03	الجزأين الجانبيين بالوردي (D1) الجزء الرّمادي في الأعلى (Dd31) الفراغ بين الأزرق (D5) والوردي في الجانب (D5) (Ddl28)	49"	DF^{+}A Ban Dd F^{+} Hd Dbl F^{-}Sex
IX	V...ما بانتليش V...المهم زوج أشخاص عاطيين بالظّهر يتفاهمو على مكيدة 1'34"	01	الجزأين الجانبيين بالبرتقالي (D3)	1'22"	Choc. C D F^{-}H Dramatisation →Agr Scéne
X	V...هنا بلاك زوج حيوانات راهم باركين V...٨...وهاذو بزّاف الألوان راها تنفجر كيما الألعاب النّارية اللّي طير 1'37"	02	الجزأين الجانبيين بالوردي (D9) كلّ البقعة (G)	52"	D F^{-}A تردّد Kan réprimé G kob Feu Condensation

اختبار الاختيارات:

الاختيار الإيجابي (+):

اللوحة (II): في الأوّل ما عجبتنيش عاود عجبتني مين فيها قلب.

اللوحة (X):ألوان حديقة.

الاختيار السلبي (-):

اللوحة (VI): فيها صليب ما نبغيش صليب يخوّفني.

اللوحة (IX): خاطر بانت لي يديرو مكيدة.

جدول رقم (06): المخطّط النّفسي للحالة الأولى

أنماط الإدراك	المحدّدات	المحتوى	الخلاصة
G= 08	F^{+}=06	A= 09	R= 20 R. compl= 2 Refus= 0 T. Total=52mm Tps/R= 1'24" T.d'appr: G-D-Dd-Ddl TRI=1K /0C FC=4K /0E RC=30% Ban= 5 F%=70% F^{+}%=50% F% élargi=95% A%=55% H%=20%
D= 07	F^{-} = 06	Ad=02	
Dd= 03	F^{+-} =02	H=03	
Dbl=02	FClob= 02	Hd=01	
	FC= 00	Anat= 01	
	CF=00	Sg=00	
	C= 00	Sex=02	
	E = 00	Elem = 02	
	FE= 00		
	kan= 02		
	K= 01		
	kob= 01		
R=20	R=20	R=20	

الصّدمات: 4 (I، III، IV، IX)

التّكرار: حيوان مفترس (I، VIII)، خفّاش (I، V، VI)، زوج أشخاص (VII، IX)، زوج حيوانات (VIII، X)

التّعاليق: تردّد، شكّ، إيماءات، تكوين عكسي، عزل، فشل الكبت

التّتابع: صلب نسبيا.

حساب النسب المعتمدة في التّحليل:

- **نسب استجابات أنماط الإدراك (Modes d'appréhension):**

$$G\% = \frac{\Sigma G}{R} X\ 100$$
$$G\% = \frac{8}{20} X\ 100$$
$$G\% = 40\%$$
$$D\% = \frac{\Sigma D}{R} X\ 100$$
$$D\% = \frac{7}{20} X\ 100$$
$$D\% = 35\%$$
$$Dd\ \% = \frac{\Sigma Dd}{R} X\ 100$$
$$Dd\% = \frac{3}{20} X\ 100$$
$$Dd\% = 15\ \%$$
$$Dbl\ \% = \frac{\Sigma Dbl}{R} X\ 100$$
$$Dbl\% = \frac{02}{20} X\ 100$$
$$Dbl\% = 10\%$$

- **نسب استجابات المحدّدات الشّكلية (Les déterminants Formels):**

$$F\% = \frac{\Sigma F}{R} X\ 100$$
$$F\% = \frac{06+06+02}{20} X\ 100$$
$$F\% = 70\%$$
$$F^{+}\% = \frac{\Sigma(F+)+(\frac{F+-}{2})}{\Sigma F} X\ 100$$
$$F^{+}\% = \frac{06+\frac{2}{2}}{14} X\ 100$$
$$F^{+}\% = 50\%$$
$$F\%\ \text{élargi} = \frac{\Sigma F+\Sigma K+\Sigma kan+\Sigma FC+\Sigma FE+\Sigma Fclob}{R} X\ 100$$
$$F\%\ \text{élargi} = \frac{14+01+02+00+00+02}{20} X\ 100$$
$$F\%\ \text{élargi} = 95\%$$

- **نسب استجابات المحتوى (Contenus des réponses):**

$$H\% = \frac{H+Hd}{R} X\ 100$$
$$H\% = \frac{03+01}{20} X\ 100$$
$$H\% = 20\%$$

$$A\% = \frac{A+Ad}{R} X\ 100$$
$$A\% = \frac{09+02}{20} X\ 100$$
$$A\% = 55\ \%$$

- **نمط الصدى الحميم (Type de résonnance intime TRI):**

$$TRI = \frac{K}{C} = \frac{K}{(CX1,5)+(CFX1)+(FCX0,5)}$$
$$TRI = \frac{1}{(00X1,5)+(00X1)+(00X0,5)}$$
$$TRI = 1/0$$

- **المعادلة المكمّلة (Formule complémentaire FC):**

$$FC = \frac{K}{E} = \frac{\sum Kan+\sum Kob+\sum Kp}{(0,15X00)+(1X00)+(1,5X00)}$$
$$FC = \frac{2+1+00}{(0,15XFE)+(1XEF)+(1,5XE)}$$
$$FC = 3/0$$

- **استجابات الموارد اللّونية (Ressource de couleur RC):**

$$RC = \frac{Nombrederèponses\ à\ VIII,IX,X}{R} X\ 100$$
$$RC = \frac{03+01+02}{20} X\ 100$$
$$RC = 30\%$$

- **الأزمنة (Les temps):**

$$\text{Temps par réponse} = \frac{Temps\ total}{Nombre\ de\ rèponses}$$
Temps par réponse =1' 24"
$$\text{Temps de latence moyen} = \frac{Sommes\ des\ temps\ de\ latence}{Nombre\ deplanches\ interprétées}$$
Temps de latence moyen = 67"

2.6.1.1. تحليل نتائج اختبار الروشاخ للحالة الأولى:

الإنتاجية:

تبيّن القراءة الأوّلية لبرتوكول الحالة إنتاجية فقيرة بالنّظر إلى الوقت الكلّي (52 دقيقة)، حيث بلغ عدد الإجابات المقدّمة (R=20) في وقت قدره 28 دقيقة، أي ما يعادل 1 دقيقة و24 ثانية لكلّ إجابة، أمّا الوقت المتبقّي (24 دقيقة) فكان مستهلكا في التّحقيق واختبار الاختيارات، ولعلّ هذا ما صبغ البروتوكول بنوع الكفّ والرّقابة. كما يكشف التّأمل في نوعية الإجابات عن فقر إستهامي، يظهر من خلال قصر الإجابات والتّعليق عليها بطريقة مختصرة واستحضار

أغلبها في شكل متكرّر (خفاش، حيوان مفترس، زوج حيوانات، زوج أشخاص) يخدم طابع التّردد والشّك والتّحفّظ الكلامي الذي ظهر في جميع بداية الإجابات، مع غلبة الجانب الشّكلي، وهذا ما يبرز طابع الرّقابة والصّلابة كدفاع للتّحكّم في محتوى الإسقاطات (F%= 70، F^{+}%= 50، F% élargi = 95).

بلغ متوسّط زمن الكمون 67 ثانية وهو زمن طويل، وقد ساهمت اللّوحات (IV، VI، IX) في رفعه نظرا للانبهار أمامها (اللاّلونية والفاتحة) والحساسية أمام بنيتها. كما يعتبر طول زمن الكمون في جميع الإجابات، مع تناقضها في بعض اللّوحات (IV،V، VI، X)، وتدوير البعض منها بصفة متكرّرة من المؤشّرات الدّالة على القلق والانزعاج أمام مادّة الاختبار، كما يمكن أن يوحي ذلك إلى كفّ العاطفة وتجنّبها لكبت الرّغبة الممنوعة.

وبالنّظر إلى لغة البروتوكول، فتبدو هذه الأخيرة لافتة للانتباه، وذلك من حيث ميل الحالة إلى الاستعمال المزدوج للّغة العربية "الدّارجة" واللّغة العربية الفصحى، ويمكن اعتبار هذا التّذبذب اللّغوي كمحاولة لاقتسام الصّراع النّفسي من جهة، ومن جهة أخرى كردّ فعل لإحساسها بالخوف والغرابة أمام المادّة المبهمة، ولعلّ هذا ما أيقظ مشاعر الفزع والغموض في عالمها الدّاخلي (حيوان مفزع، شفتها تخوّف، لا أدري، ما بانتليش، النّاس يدّهشو).

وعليه يمكن تفسير هذا الخلط اللّغوي الذّي ميّز إنتاجية الحالة كـــ "قفز دفاعي" (من الدّارجة إلى العربية الفصحى) يهدف لتخفيف الصّراع النّفسي بعد اقتسامه من أجل التّحكم في المشاعر السّلبية (الفزع والغموض والدّهشة)، كما يعتبر أيضا نوعا من العزل اللّغوي بين التّصوّرات التّحفظية والعواطف المؤلمة. وهذا يدلّ على الشّك والتردّد والتّذبذب الفكري.

السّياقات المعرفية:

يُبدي البروتوكول حياة عقلية يصعب استثمارها، حيث قدّرت نسبة الاستجابات الشّاملة G بـــ 40% وهي نسبة مرتفعة نسبيا، ممّا يدلّ على رقابة نزوية من نمط انطباعي (GFClob في اللّوحة (I، II))، أو مركبّة (Gkan، GK في اللّوحة (V، VII))، أو بسيطة مألوفة GF^{+} في اللّوحة (IV،I))، أو غير ناجحة (Gkan في اللّوحة VI: «خفّاش نائم »). وجاءت الإجابات الشّاملة بشكل متتابع في اللوّحة (I)، (II) لتؤكّد من جهة الغموض الأوّلي والإحساس بالقلق والخوف تجاه الوضعية الإسقاطية، ولتبرز محاولة التّحكّم في هذه الأخيرة بإجابة بسيطة مألوفة

في بداية اللّوحة (I)، ثمّ فشلها في احتواء صدمة الخوف أمام الموضوع من جهة أخرى «حيوان مفزع، حيوان مفترس...» . ويطبع الإجابة الأولى نوع من التردّد في طريقة تناول اللّوحة، حيث وجدت الحالة صعوبة في التّعامل مع المحتوى المألوف "الخفّاش" وفي تسميته، فذكرت «بوبشير» في إطار متردّد «بلاك» مسبوق بـ «هذاك» وهو اسم إشارة يدلّ على الإبعاد، لتقدّم إجابة أخرى مبتذلة ومألوفة «خفّاش»، ويعتبر هذا الإبعاد نوعا من الرّفض الذي يدلّ على صعوبة التّكيّف مع المحتوى المألوف الذي يذكّرها بالموضوع الأوّلي، ولعلّ هذا ما ساهم في تقوية التّعبير عن الأحاسيس الدّاخلية التّي ظهرت في انطباعات الخوف والدّهشة (2GFclob) في الإجابة الثّانية من اللّوحة (I)، واستمرّت بنفس النّمط الانطباعي إلى غاية اللّوحة (II) التّي فتحت المجال لبروز مزيدا من الإستهامات العدوانية الاضطهادية «حيوان مفترس مُحيّر لكن قتلوه». إلّا أنّ هذه الانطباعات والقلق جاءا مدمجين في إطار مألوف لمحاولة التّحكم فيها وتجنّبها.

يتواصل هذا التّردّد الذي أبدته الحالة في الإجابة الشّاملة في اللّوحة (IV)، فبعد الذّهول أمامها الذي يظهر من خلال ارتفاع زمن الكمون ("25 ،1) كردّ فعل للصّدمة أمام اللّون الأسود «لا أدري»، تستحضر الحالة حيوانا غير معرّفا وفي إطار متردّد «ربّما حيوان شامخ صامد» (G F^+ A)، وتستدعي الشّموخ والصّمود في اللّوحة لوصف القوّة المنسوبة للموضوع، وفي نفس الوقت لمراقبة الخوف ومحاولة احتوائه. يتحرّر هذا التّصوّر المتردّد والصّلب أمام الموضوع المألوف في اللّوحة (V) «خفّاش» من خلال نشاط حركي (Gkan) «يرفرف بأجنحته»، لكن سرعان ما يتراجع هذا النّشاط بإضافة «ولّا خفّاش يرخي جناحه»، وفي اللّوحة (VI) «خفّاش نائم» كمحاولة لتجاوز قلق الإخصاء الذي تستثيره اللّوحة، والذي تسبّب في قمع هذه الحركة النّزوية الدّفاعية (Kan)، وهذا ما يشير إلى صعوبة الاستثمار الفكري.

وجاءت الإجابات الجزئية الكبيرة بنسبة 35%، وإن ارتبطت معظمها بالمحدّد الشّكلي، إلّا أنّها كانت في الغالب غير محدّدة الجنس: «شخص شاد في راسه، زوج أشخاص عاطيين بالظّهر...، زوج حيوانات يبانو باركين...» كما أنّها تكشف عن التّذبذب الفكري بين ارتباطها بالشّكل الإيجابي ($3DF^+$) الذي يتناسب مع وضوح الإدراك ويقظة الانتباه، والشّكل السّلبي ($2DF^-$) الذي يكشف عن الإنزلاقات المحمّلة بثقل الانشغالات الوسواسية والاستهامات البدائية غير المناسبة مع واقع اللّوحة (محتوى جنسي غير مناسب)، والشّكل المتردّد ($1DF^{+-}$) الذي يدلّ على

عدم القدرة على تسيير العدوانية من خلال تكثيفها في جزئيات حيوانية. ويظهر ذلك بداية من اللّوحة (II)، فبعد تدوير متكرّر للّوحة، وصمت طويل لمراقبة الصّدمة أمام اللّون الأحمر الذي يستثير تصوّرات الإخصاء، تستحضر الحالة استجابة حيوانية ذات تصوّر عدواني "حيوان مفترس محيّر لكن قتلوه" متبوعة بأخرى تشريحية ذات توجّه عاطفي "قلبه"، وقد ألزمتها الرّقابة الشّديدة تدوير اللّوحة من جديد لإدراك جزء جنسي أنثوي بنجاح «رحم» في الفراغ الأبيض من اللّوحة ($Dbl\ F^{+}$). وتعتبر هذه الحركة الإسقاطية طريقة دفاعية لعزل الجنس وتصعيده إلى الأعلى لتوظيفه بواسطة العاطفة (القلب). ولعلّ توجّه الحالة نحو الجزء العلوي من الجسم «هذا قلبه في الأعلى» يدلّ على رغبتها في الابتعاد عن الجزء السّفلي للجسم كموضوع للجنس والنّزوات بعدما تمّ إدراكه على شكل تشريحي ذو محتوى جنسي تناسلي، وهي بذلك تميّز بين العالم العاطفي العلوي (قلب) والعالم الحميم الجنسي السّفلي (رحم) على شكل انشطار. وجاءت الإجابة الجزئية البيضاء (Dbl) الأخيرة الواردة في اللّوحة (VIII) لتأكيد هذه النّزوات الجنسية المكبوتة، ولتبرز إشكالية جنسية عدوانية عنيفة متعلّقة بالصّورة الذّكرية الصّلبة «عضو ذكري صلب» وما تحمله من تصوّرات القوّة والنّشاط الذّكري، وكأنّ الحالة تريد من خلال هذا التّصوّر الجنسي تمرير إشكاليتها المتعلّقة بالتّصوّرات الجنسية المحارمية والتّأنيب أمام القوّة القضيبية السّادية المتسلّطة، خصوصا وأنّ التّحقيق قد كشف عن حركة دفاعية على شكل تكوين عكسي (ابتسامة) متبوعة باستجابة متعلّقة بتأنيب الضّمير الذي يقترب من الاضطهاد «شفتها وندمت، هنا تقول بلعاني صورو لي قضيب».

وجاءت الإجابة الجزئية الكبيرة الوحيدة المرتبطة بحركة حيوانية في اللّوحة (VII)، لتعكس التّرتيب والإعداد الدّفاعي (L'aménagement défensif) من خلال إزاحة أوّلية على صورة حيوانات، حيث تمّ إسقاط نفس التّصوّر «ظهرا لظهر» أوّلا على النّوع الحيواني "أرانب"، يليه بعد ذلك النّوع البشري «شخصين» دون القدرة على تحديد جنس المحتوى الإنساني، فالشّخصين المستحضرين مقدّمان في نظام تقمّصي جنسي غامض، حيث تمّ التّركيز على جزء من الجسم (الظّهر) لا يسمح بالتّمييز الواضح بين الذّكر والأنثى. ليمنح هذا التّصور الهوامي المبهم في الأخير لكلّ شخص خاصية ذكرية قضيبية (Phallique) تمّ إزاحتها نحو الأعلى "عمامة فوق راسهم". كما يظهر تغليم الفكر(Érotisation de la pensée) في هذه الحركة

المسقطة «يرقصان»، إذ تشير منطقة الاتّصال المستثمرة «ظهرا لظهر» بشكل خاصّ إلى الجانب الغلمي في الجزء الخلفي من الجسم.

إنّ هذه الحركة المسقطة في اللّوحة (VII) (لوحة الأمومة) تحمل هوامات العلاقات الجنسية المثلية (Relations homosexuelles)، يمكن تفسيرها حسب رمزية اللّوحة بوجود مشكل في العلاقة أم/طفل قد تدلّ على الحرمان والفراغ العاطفي، خاصّة وأنّ نفس التّمثيل الخيالي ظهر مرّة أخرى بصياغة مشابهة مسبوقة بصدمة «زوج أشخاص عاطيين بالظهر...» في اللّوحة (IX) (وهي لوحة الرّمزية الأمومية)، وهذا ما يُؤكّد مشكل التّمثيل الأمومي. ويظهر التّكرار القهري في هذه اللّوحة بشكل صارخ «زوج أشخاص عاطيين بالظهر»، حيث تعكس الإجابة المقدّمة (ذات المحدّد الشّكلي السّلبي (F^-)) عدم تنظيم الوظائف التّكيّفية للأنا. وتكشف معالجة الصّدمات أمام اللّوحتين (IV) و(IX)عن الكبت غير النّاجح الذّي يدلّ على عدم القدرة على الإعداد النّفسي للصّراع.

تؤكّد الإجابة الجزئية الصغيرة في اللّوحة (VI) النّزعة الوسواسية اتجاه الصّورة الذّكرية ورموزها القضيبية (Phallique) «شلاغمه»، وعدم القدرة على التّحكّم فيها في اللّوحة (IX) «زوج أشخاص عاطيين بالظّهر يتفاهمو على مكيدة» التّي أثارت عندها تصوّرات المؤامرة والكيد، وهذا ما يدلّ على وجود نزوة عدوانية مكبوتة.

تواصل الحالة تصوّراتها في ظلّ الشّك والوسواس في اللّوحة (X) بشكل مجمّد وثابت «زوج حيوانات يبانو باركين» كمحاولة لتهدئة النّزوات وإبقائها في حالة ساكنة، وهذا ما يشهد على التّصلب الفكري الذي يخدم الطّابع الوسواسي.

أمّا التّشكيل المرتفع للمدركات[19] (F%=70%) فيعكس نظام دفاعي صلب يدلّ على الرّقابة الشّديدة والتّحكّم (F% élargi =95%) وذلك من خلال الاعتماد على الواقع الخارجي كدفاع ضدّ العالم الدّاخلي (F^+%=50%).

[19] يرى كلوبفر Klopfer أنّ (F%) ترتفع عند الأفراد الذّين لا يتميّزون بالتّلقائية، ويدلّ ارتفاعها على التّثبيط وعدم القدرة على تصريف الصّراع النّفسي. أمّا نينا روش دو تروبنبارغ Nina Rausch de Traubenberg فترى أنّ ارتفاعها يرتبط بمعنى مزدوج: يدلّ الأول على موقف فكري نشط (Attitude intellectuel active)، والثّاني على نوع من التّكيف مع الواقع (Rausch de Traubenberg, 2015. p. 77). بينما يشير ارتفاع (F^+%) حسب سيسيل بيزمان (2009, p. 13) Cècile Beizmann إلى " تفكير منطقي صلب وجدّ مقيّد" (Pensée rationnelle rigide et trop contrainte) يؤدي إلى التّثبيط الذي يعمل على خفض التّلقائية وكل ما هو خيال وهوام.

معالجة الصّراعات:

يعكس برتوكول الحالة كبتا للصّراعات من خلال غياب الاستجابات اللّونية والحركات الإنسانية باستثناء حركة واحدة ظهرت في اللّوحة (VII). يشهد هذا الانطواء (Introversion) (1K/0C) في نمط الصّدى الحميم والمؤكّد بنسبة RC (30%) على كفّ كلّ من العاطفة والتّصوّرات، وذلك بالرّغم من أنّ الصّيغة المكمّلة قد أظهرت بروزا للّتصورات (3/0) وهذا ما يدلّ على وجود صراع نفسي لم تستطع الحالة تجاوزه، فتحاول إسقاطه على العالم الخارجي بشكل مكثّف في حركات حيوانية (2Kan) تعكس الصّلابة الفكرية. أمّا الحركة الإنسانية الوحيدة المستحضرة في البروتوكول فبالرّغم من أنّها مدرجة في إطار مألوف ومنظّم (G organisé (GK))، إلّا أنّها جاءت موظّفة لتمرير كمّية من الرّغبة في اللّوحة (VII) من خلال كلمة: "يرقصان"، "ملتصقان"، في إطار دفاعي بتعديل كلمة "شخصان" بـــعبارة «تخيّلت غي زوج صغار راهم يرقصو هاذا ماكان» (في التّحقيق) كنكوص لتصغير الصّراع النّفسي، وتكوين عكسي للتّهرّب من الجنس "غي"، "هاذا ما كان".

يشهد هذا التّصوّر الحركي على تمثيل العلاقة في إطار غامض وبشكل ثنائي (Bilatérale) «زوج» على صعوبات في التّقمّص، حيث لم تكن الصّورة الذّكرية «زوج أشخاص» معرّفة بشكل صريح إلاّ بعد استحضار تفصيل «عمامة» الذّي تحايل على التّقمّص الجنسي الواضح للشّخصين، ليستمرّ هذا التّقمّص الغامض في التّحقيق « زوج أطفال» وهذا ما يؤكّد صعوبة التّقمّص الجنسي عند الحالة. وتؤكّد كلمة "عمامة" من جديد، إزاحة المحتوى الجنسي القضيبي إلى الأعلى «فوق راسهم» وتوظيفه هذه المرّة بواسطة العقل (الرّأس) بدلا من العاطفة وهذا ما يشير إلى التّناقض الوجداني. كما يعكس "التّلامس" و"الالتصاق بالظّهر" إشكالية جنسية عند الحالة.

تمّ تأكيد صعوبات التّقمّص والتّعارض في المواقف المستحضرة بين النّشاط والفتور (Passivité- Activité) من خلال تحليل الإجابات الحركية المقدّمة في اللّوحات ذات الرّمزية الجنسية (IV و VI) وكليهما تتّجهان نحو اتّجاه مزدوج للتّداعيات:

- تداعيات قويّة نشطة:

اللّوحة (IV): «حيوان شامخ صامد».

اللّوحة (VI): «صليب كي يشوفوه النّاس يدّهشو».

ـ تداعيات خاملة فاترة:

اللّوحة (IV): «هذا حيوان لوكان نقول لك راه يبان عيان» (في التّحقيق).

اللّوحة (VI): «خفّاش نائم».

يبرز هذا التّعارض أيضا في اللّوحة (V) (لوحة تمثيل الذّات)، حيث تتوالى صورة حيوان في حالة حركة ونشاط «خفاش يرفرف في أجنحة»، مع صورة نفس الحيوان في حالة من الخمول والفتور «ولاّ خفّاش يرخي جناحه» تدلّ على الخضوع والاستكانة اتجاه المواضيع (صورة الأب).

وتكشف الحركة الكبرى (Gkob) الواردة في اللّوحة (X) عن القوّة النّزوية وإفلاتها من الرّقابة بطريقة منفجرة وقويّة. أمّا غياب الاستجابات اللّونية في اللّوحات الحمراء فيشهد بشكل خاصّ على آليات عزل نشطة.

تُبيّن دراسة المحتويات نوعا من الفقر الاستهامي، فمعظمها كانت متكرّرة وغير متنوّعة ذات محتويات حيوانية (A% =55%)، تدلّ على نمطية وصلابة التّفكير.

ونشير هنا إلى تكرار الحالة لـ "حيوانات مفترسة" و"مفزعة" في اللّوحة (I) و(VII)، و"خفّاش" في اللّوحة (I) و(V) و(VI) وهي كلّها هوامات تتعلّق بالعدوانية المحمّلة بتصوّرات مكثّفة من الخوف المفرط «يدي حيوان بمخالب بزّاف مخيفة شفتها تخوّف» (III)، والتّصوّرات التّدميرية «حيوان مفترس محيّر لكن قتلوه (I) »، مع الرّغبة في التّحكم فيها، وكأنّ هذا الحيوان المخيف المفترس والموظّف بصفة دفاعية (نفي: «لكن قتلوه») بالرّغم من أنّه مُقتل، إلّا وكأنّه لا يزال حيّا ومهدّدا للذّات النّرجسية، وذلك لأنّ العضو "قلبه" كان حاضرا ولم يُحذف من التّصور الهوامي «**هذا قلبه** في الأعلى» .

أمّا المحتوى الإنساني (H% =20%) فيكشف كما أسلفنا ذكره عن صعوبات في التّقمص، جاءت مسجّلة في مستويات جنسية غير معرّفة إلّا في التّحقيق، متكرّرة وموظّفة كلّها على شكل "زوج" مماثل.

تُذكّر الإجابة المستحضرة في اللّوحة (VII) في شكل محتوى رمزي ديني (صليب) مدهش ومخيف، بالانشغالات الدّينية، وتحاول الحالة إسقاطها على النّاس كمحاولة للتّخفيف من وطأتها واقتسام الصّـراع النّفسـي الدّاخلي، وذلك لأنّها جاءت موظّفة « كي يشوفوه النّاس يدّهشو » بغرض

الاحتماء الذّاتي من رموز الأخطار الخارجية التّي تهدّد الكيان النّرجسي، ويأتي الاختيار السّلبي للّوحة (VII) كتأكيد لذلك. وتظهر آلية التّكوين العكسي بشكل واضح في الاختيار الإيجابي للّوحة (II) بقولها: "في الأوّل ما عجبتنيش عاود عجبتني"، وهذا ما يؤكّد صعوبة الإعداد النّفسي للصّراع.

استنتاج:

كلّ هذه المعطيات الإسقاطية تسلك بالتّوظيف النّفسي لــ "ملاك" وجهة سيكوباتولوجية نحو تنظيم حدّي بدفاعات وسواسية لم تسمح له بالإعداد النّفسي لقلق الإخصاء، حيث كان فشل الكبت وعودة المكبوت في تصوّرات مهددّة تتضمّن إشكالية جنسية من خلال محتوى التّصورات النّفسية المُسقطة.

2.1. عرض وتحليل نتائج الحالة الثّانية:

1.2.1. تقديم الحالة الثّانية:

الاسم: فاطمة

السّن: 28 سنة.

السكن: سيدي بن عدّة -عين تموشنت-

المستوى الاقتصادي: جيّد

المستوى الدّراسي: ماستر 2 (حقوق)

المهنة: ماكثة بالبيت

الحالة المدنية: متزوّجة

سوابق عائلية: وسواس قهري عند الأب (منذ حوالي 12 سنة).

دافع الزّيارة: اضطراب وسواس قهري متعلّق بالنّظافة مع اجترار فكري.

مدّة الإصابة: سنتين.

2.2.1. فحص الهيئة العقلية للحالة الثّانية:

الاستعداد والسلوك العام:

"فاطمة" من النّمط الجسمي النّحيف (Type leptosome)، ذات قامة طويلة، عيون جاحظة سوداء، سوداء البشرة، ترتدي الحجاب التّقليدي (جلاّبة وخمار)، لباسها نظيف ومرتّب. كان

الاتّصال معها سهلا منذ بداية الجلسات النّفسية، حيث تمثّل طلبها الواضح بعبارات تلقائية في أنّها تعاني من وسواس النّظافة القهري والخوف من العيش في الحرام، بالإضافة إلى الشّعور باليأس وفقدان الأمل والمتعة في الحياة.

تتميّز الحالة بصعوبة في الاستقرار النّفسي الحركي وقد بدا واضحا من خلال عدم قدرتها على الاسترخاء والحديث بارتياح، هزّ الرّجلين باستمرار أثناء الحديث، وكذلك تغيير مكان الجلوس عدّة مرات أثناء الجلسة العيادية.

النشاط العقلي:

تعبّر "فاطمة" جيّدا عن أفكارها، وهي مترابطة في محتواها، متناسقة، ومنظّمة، كثيرا ما تستعمل التّكرار والتّفصيل في تقديم معاناتها (وسواس النّظافة، وعلاقتها الزّوجية المضطربة)، تعطي قيمة كبيرة للمعايير الدّينية في علاقتها مع زوجها، خيانتها له عزّزت وساوسها، شعورها العميق بالنّدم جعلها تدرك من جهة أنّها ليست جديرة به وأنّها تكرهه من جهة أخرى. نذكر أيضا أنّ الحالة ظهر عليها صرع هستيري أثناء جلسات العلاج الشّعبي الذّي أرجع مشكلتها إلى سحر (حسب أقوالها).

المزاج والعاطفة:

لدى "فاطمة" مزاج جدّ متوتّر يحمل عاطفة حسّاسة ومغرقة بتأنيب الضّمير ولوم الذّات، تظهر عليها سرعة التّأثّر وقابلية الإيحاء (كانت تستجيب لإملاءات المعالجين الشّعبيين ولطقوسهم العلاجية)، تفقد الثّقة في النّفس، تشكو فراغا عاطفيا ومساندة الزّوج، وهذا ما جعلها جدّ مرهقة من صراعاتها النّفسية الدّاخلية.

محتوى التفكير:

تستحوذ على "فاطمة" أفكار وسواسية ذات طبيعة قهرية، وقد تميّزت بتفكير منغلق ومنشطر بين ما تعيشه حاليا من وساوس وما عاشته أثناء مرحلتها الجامعية، فهي كثيرة التّفكير والكلام عن هذه الفترة من حياتها، تجترّ أفكارها، ثمّ تُنسب كلّ معاناتها إلى تجاربها الجنسية غير المشروعة (الزّنا) آنذاك. تصف الحالة مشاعرها وما يشغلها من أفكار (النّظافة، النّجاسة، الخوف من الإصابة بالإيدز، والخوف من العيش في الحرام) بأدقّ التّفاصيل، كما تتميّز بغياب

التّفكير العلمي واستحواذ التّفكير الخرافي والسّحري (La pensée magique) الذي ذابت في ظلّه شخصيتها المثقّفة لتفسير معاناتها تفسيرا غير موضوعيا لا يعكس مستواها التّعليمي.

القدرة العقلية:

تتميّز "فاطمة" بذاكرة قويّة للأحداث القديمة، وهي كثيرة التّركيز على ماضيها وعلى معاناتها في الحاضر. كما ترى أنّ ذاتها لا ترق إلى الشّخصية المثالية والخلوقة وحتّى إلى الأنثى "الجميلة". لديها فهم جيّد للقيم الاجتماعية والأخلاقية لذلك تحاول دائما ضبطها من خلال مراقبتها لسلوكياتها وقراراتها، وكذلك الانتقاد السّلبي للذّات.

الحكم والاستبصار:

"فاطمة" جدّ واعية بمشكلتها، حيث صرّحت منذ أول جلسة وبشكل صريح عن سبب الاستشارة المتمثّل في وسواس النّظافة، كما أقرّت بصريح العبارة بأنّها "مُقصفة بأفكار التّلّوث التّي يستحيل عليها وقفها: « أنا جيتك راه عندي وسواس النّظافة، نحس روحي مُقصفة بالأفكار، impossible نقد نحبّسها، دايما نتخيّل روحي "على جنابة"... باغية نريّح راني نسوفري» . كما تحمّل نفسها المسؤولية، فماضيها كان دائما حاضرا، ودائما تربطه بما تعانيه في الوقت الحالي، وتجزم بأنّ ما تُعانيه هو عقوبة من الله.

3.2.1. التّشخيص التّصنيفي (DSM IV TR) للحالة الثّانية:

المحور I:

اضطراب الوسواس القهري [301.9] .F42: تمثّلت الأعراض فيما يلي:

- أفكار أوتوماتيكية تقتحم الذّهن بشكل متكرّر:« راني مسخة... راني في نجاسة... راني على جنابة... الــ Corps تاعي نحسّه ملوّث».

- طقوس وسلوكيات قهرية (الاستحمام لساعات طويلة، تغيير الملابس بشكل قهري، المبالغة في استخدام الصّابون والمنظّفات، وغسل اليدين باستمرار).

- شعور بالذّنب وتأنيب حاد للضّمير.

- مع أنصايت ضعيف (Mauvais insight): فبالرّغم من أنّ طلب الفحص النّفسي كان واضحا، إلاّ أنّ "فاطمة" تكاد تقتنع بأفكارها الوسواسية، وترى أنّ معتقداتها حول النّظافة قد تتوافق مع واقعها غير المؤمن.

المحور II:

شخصية "فاطمة" تجنّبية [301.9] F60.6 تتمثّل في الأعراض التّالية:

- تجنّب الخروج من المنزل قدر الإمكان.
- تجنّب الذّهاب إلى الأماكن العمومية (السّوق، الحمام، المستشفى، صالونات الحلاقة...).
- تجنّب الاختلاط والاحتكاك بالنّاس خوفا من انتقال التلّوث.
- تجنّب العلاقة الجنسية الحميمة (مع زوجها) بسبب الخوف المفرط من النّجاسة وكذلك الوقوع في الحرام.
- الإحساس بعدم الكفاية الاجتماعية، سوء تقدير الذّات، والإحساس بعدم الجاذبية وبأنّها أقل قيمة من الآخرين بسبب بشرتها السّوداء وعيونها الجاحظة.

المحور III:

- غياب الإصابة الطّبيّة.

المحورIV:

- علاقة صراعية مع الزّوج، والعيش بعيدا عنه بسبب النّزاعات المتكرّرة.

المحور V:

التقييم الشّامل للأداء الوظيفي يناسب الدّرجة 41-50 حيث تتضمّن أعراض شديدة جدّا (وساوس وطقوس مرضية شديدة جدّا).

4.2.1. التّشخيص البنيوي للحالة الثّانية:

إدماج الهوية:

تتميّز "فاطمة" بإدماج ناقص للهوية وغير كامل لمفهوم "Self"، فهي غير مستقرّة نفسيا، سلوكياتها متناقضة، تشعر بالنّقص والفراغ، غير قادرة على الإحساس بعاطفة عميقة (عاطفتها سطحية تجاه الآخر) «نحس روحي خاااوية من الدّاخل»، تتجنّب الآخر خوفا من التلوّث والنّجاسة:« دروك العكس ولّيت نإيفيتي قاع النّاس، نخاف نجيب كاش مرض ولا علّة، ونخاف نلصقها في راجلي» .

فحص الواقع:

تعبّر "فاطمة" عن واقع مخيف، متناقض، ومهدّد، حيث تتواجد في حالة متناقضة تعبّر عنها بوجود شخصيتين متصارعتين في داخلها، إحداهما تمثّل الرّغبة، والأخرى تمثّل الامتناع عن السّلوك العدواني السّادي (الموجّه نحو الزّوج). كما أنّها تُبدي صعوبة في إدماج الحاضر وفي مواجهة الواقع والاندماج فيه. فلا تدرك الحلّ وينتابها الشّك والتّردّد، والتّشتّت، لتلجأ في الأخير إلى ميكانيزم التّجنّب كحلّ دفاعي هروبي من هذا الواقع غير المؤمن.

الآليات الدّفاعية:

تتمثّل في كلّ من:

- التّجنّب: خصوصا الزّوج.

- الكبت: تمّ استنتاجه من خلال صعوبة التّعبير عن الذّات، الكفّ الاجتماعي، وغياب المبادرة الشّخصية.

- الإزاحة: حيث تزيح مشاعر تأنيب الضّمير نحو تصوّرات وأفكار وسواسية متعلّقة بانتقال العدوى والأوساخ، والإصابة بمرض الإيدز.

- الشّعور بالذّنب وحذف قيمة الذّات «أنا ما نستاهلش راجل مسقّم... أنا خدّاعة ماشي صافية حتّى مع روحي... ما عندي حتّى قيمة».

- انشطار الموضوع "المثالي": نجدها متعلّقة بزوجها بشكل متناقض فهي تدركه بصفة مثالية، تحبّه وتكرهه في نفس الوقت.

5.2.1. تحليل المقابلات العيادية للحالة الثّانية:

بدت "فاطمة" سريعة الإثارة منذ أوّل جلسة، ومع ذلك تميّزت بالانضباط واحترام زمن المقابلات العيادية، دون أي تأخير أو تأجيل، وقد استمرّت الجلسات العيادية معها في جوّ يسوده التّفاعل الحسن، وكانت تخفي في الجلسات الأولى نوعا من قدرتها على جذب الجنس الآخر، لكنّها مغطّاة بالخجل الذي يميل إلى تأنيب الضّمير ولوم الذّات.

ذكرت "فاطمة" أنّها البنت الصّغرى من بين أختين، لها سوابق مرضية عائلية بحيث كان أبوها يعاني من وسواس قهري تمّ تشخيصه من طرف طبيب الأمراض العقلية منذ حوالي 12 سنة. هي ذات مستوى جامعي، وحاليا ماكثة بالبيت، تقدّمت إلى الفحص النّفسي في أوّل جلسة

رفقة أختها بعد سنة كاملة من التردّد على العلاج التّقليدي الشّعبي (حسب تسميتها) واستيائها من نتائجه.

نشأت الحالة في مدينة مشرية بولاية النعامة، وذكرت أنّها عاشت طفولة قاسية بسبب الخلافات الكثيرة بين أبيها وأمّها وخياناته المتكرّرة لها، وهذا ما جعلها تكرهه وتحقد عليه: «عندي أب عنيف... كان يدير النسا على مّا... دمّر لنا حياتنا بالوحدة ما نكذبش عليك لدوك ما نبغيهش، وجامي نسمح له في حياتي».

رغم هذه الظّروف المضطربة، تدرّجت الحالة في أطوارها التّعليمية إلى أن تحصّلت على شهادة البكالوريا، فتركت عائلتها وانتقلت إلى ولاية سيدي بلعباس للدّراسة في الجامعة. وفي هذه الفترة تقول أنّها دخلت في علاقات عاطفية وجنسية عديدة بحثا عن المتعة والتّسلية، حيث قالت: « كنت انطير من ذا لذا، ما نكذبش عليك ما رحمت حتى واحد، هاكا نبغي نزكّر في الرّاجل...أنا تاني نفوّت وقتي، نجدّد... بصّح وصلت حتّى مدّيت الشّرف تاعي».

نلتمس من خلال هذه العبارات الدّفاع الخفيّ الذي تفرضه مشاعر النّقص وسوء تقدير الذّات، إذ أنّ انشغال الحالة وانغماسها في مثل هذه العلاقات النّزوية المتعدّدة، ما هو إلاّ دفاع نفسيّ ضدّ مشاعرها السّلبية نحو ذاتها، والتّي تمّ تسجيلها على امتداد كامل المقابلات العيادية، ومن ذلك يمكننا القول أنّ هذه السّلسة من المشاعر الدّونية قد حرّضت "فاطمة" على إقامة مثل هذه العلاقات غير المشروعة، لأنّها مقتنعة بأنّها لا تمتلك صفات الأنوثة التي تُشعرها بأنّها مرغوبة من الجنس الآخر:« أنا لا زين لا ظرافة...كحلة... من اللّي كنت صغيرة يعايروني بعينيا اللّي خارجين... شوفي عينيا...» فتلجأ إلى جذبه وإغرائه لإعادة ثقتها في نفسها، ولتغطية النّقائص المتعلّقة بحدود شخصيتها مع واقعها الدّاخلي ضمن قالب نرجسي تُنفّس به عن صراعاتها ونقائصها ومشاعرها الدّونية. إنّ هذه الدّفاعات الإغرائية تجعلنا نتساءل عن هذا النّوع من الإحتماء الإغرائي الذي يجلب لها المتعة والتّلذذ بالظّفر بالجنس الآخر، هل هو رغبة لاشعورية في الانتقام من الموضوع الأبوي غير الحامي؟ (أبّا قاع سامح فينا دمّر لنا حياتنا)، وهل هي من نوع عصابي هستيري غير مرصن (Non mentalisé) أم هي من النّوع النّرجسي؟

بعدما أنهت دراستها الجامعية، عادت "فاطمة" إلى ولاية النعامة لتعيش وسط أسرتها، وكلّها يأس وإحباط لأنّها لم تجد وظيفة تملأ بها فراغها، وتبعدها عن المشاكل المستمرّة بين

والديها. وفي هذه الفترة بدأت علاقتها مع الفايسبوك الذي أدّى إلى نقطة تحوّل في حياتها، فأصبح هذا الأخير وسيلتها الوحيدة التّي تملأ بها فراغها العاطفي، وتواصل علاقاتها النّزوية «تالمو حسّيت بالــ Vide كرهت حياتي...ولّيت للفايسبوك.. اللّي يجيني في الطّريق هاذاك هو»، إلى أن تعرّفت على شاب من ولاية تيبازة، أصبحت تتبادل معه أطراف الحديث بشكل يومي، فتطوّرت علاقتهما، وأصبح معجبا بشخصيتها بعدما نسجت له القصص والسّيناريوهات الكاذبة، ولأنّها تخجل بمظهرها أرسلت له صورا لصديقتها بدلا من صورها (ارسلت له تصاوير تاع صحبتي شابّة وبيضاء ماشي كيفي فحمة). بعد تعلّقه بها أخبرها برغبته في خطبتها، وهنا أصبحت "فاطمة" تعيش حالة من الحيرة والقلق خوفا من اكتشاف أمرها، فاضطرت بعدما أرسلت له صورتها الحقيقية إلى إخباره بالحقيقة يوما واحدا قبل أن يتقدّم مع أهله لخطبتها، وهذا ما أثار غضبه وجعله يرفض التّقدّم إلى أهلها لولا تدخّل أختها في آخر لحظة، حيث تقول: « اللّيلة التّالية كي خبرتها هبل... بغا يبطّل عليا...اختي بايتة تحلّل فيه... في الحق يخاف ربّي قال لي على جال والديك غاضوني».

بعد سبعة أشهر من الخطوبة، تمّ الزّواج بينهما، وانتقلت "فاطمة" للعيش مع زوجها في ولاية تيبازة، وبالرّغم من ذلك استمرّت في علاقاتها السّابقة، وأصبحت تخون زوجها عبر المواقع الإباحية أثناء ذهابه إلى العمل، حيث تقول: « في الأوّل كنت نبغي نفوّت وقتي... من بعد تقدّي تقولي زكارة في راجلي كنت نقول هو يظل قاع النّهار برّا وأنا محبسني في الدّار... بصّح والله كلش ولّالي ندامة عندي passé مسّخ ».

وأمام هذا الماضي الذي تصفه الحالة بــ "الماضي القذر"، أصبحت "فاطمة" مُغرقة بمشاعر النّدم وتأنيب الضّمير، فأصبحت تسيطر عليها وساوس مؤلمة، جعلتها ترفض أيّ اتصال جنسي مع زوجها بطريقة تميل إلى التّهويل (Dramatisation) والتّعميم (Généralisation)، حيث أصبحت تدرك أيّ اتّصال أو علاقة حميمة معه كــ "فعل خطر ودنيئ" تخشى أن يوقعها في الحرام معه أو يعرّضه للإصابة بالإيدز بسبب تاريخها الجنسي السّيء (دايما نحسّ روحي نجسة ما قدّيتش ننسى افعالي... نخاف نعدي راجلي بالسّيدا، علابالي بلّي هاذيك بكري، بصّح نخاف نكون أنا السّبة... ولّيت نكرهه لو كان ما هو ما نخاف هاذ الخوف، وهو زاد عطاني الفرصة نخدعه).

إنّ شعور الحالة المستمرّ بمسؤولية انتقال عدوى الإيدز إلى زوجها، وكذلك خوفها وإحساسها المستمرّ بأنّها على "جنابة"، يجعلها تقضي ساعات طويلة في الاغتسال والاستحمام كنوع من المقاومة المباشرة ضدّ تمثّلاتها وأفكارها المؤلمة، وأمام الصّراعات المتواصلة مع زوجها التّي تقول بأنّه لم ولن يتفهّمها تركت "فاطمة" بيتها الزوجية وانتقلت عند أختها في ولاية عين تموشنت.

وبناء على هذه المعطيات، يمكننا القول أنّ هذا الصّراع المستمرّ بين ماضي الحالة (علاقاتها الجنسية) وحاضرها (لوم الذّات، الشّعور بالذّنب، الشّفقة على زوجها وفي نفس الوقت كرهه، الصّراع بين البوح وكتمان الماضي...) أدّى إلى ظهور هذه الأفكار الوسواسية التّي ولّدت لديها شعورا سلبيّا ومعمّما (Généralisé) اتجاه السّلوك الجنسي، فتجاربها الجنسية السّابقة "غير المشروعة" جعلتها تقع تحت وطأة الشّعور بالذّنب والخوف من العيش في الحرام مع زوجها، فأصبحت تعيش حاضرها بماضيها، وتشكّك في شرعية علاقتها الزّوجية: « نخاف إلا راني عايشة معاه في الحرام... بالاك راني حارمة عليه»، ولمكافحة هذه الوساوس المتسلّطة تردّد فاطمة بشكل قهري كلمة "حلال" بصوت مرتفع (حتّى أثناء الجماع مع زوجها) لصدّ هذه الفكرة المؤلمة والمسيطرة على عقلها. كما صرّحت لنا عن بعض الأعراض التّي تظهر عليها أثناء رغبة الزّوج في العلاقة الحميمة، والتّي يمكن تفسيرها بسلوكيات هستيرية كالتّشنّج، الصّراخ والبكاء، وأحيانا حتّى الإغماء.

واستنادا إلى وجهة النّظر الفرويدية حول النّموذج الوسواسي، يُمكننا القول أنّ كبت تجارب الإغراء الجنسي الماضية كان سببا كافيا في ظهور تلك الأفكار المعذّبة من اللّوم وتأنيب الضّمير والطّقوس المرضية، فأي لوم مرتبط بتذكّر ذلك "الماضي المؤلم"، تمّ كبته بأعراض أوّلية للدّفاع ضدّ عودة المكبوت، تجلّت عند الحالة في: الشّك، النّدم، اليقظة المفرطة، الشّعور بالعار، تحمّل المسؤولية، الحذر من الوقوع في الحرام، وحتّى الحذر من الذّات (ولّيت نخاف حتّى من روحي، نخاف نطيح روحي في الحرام)...

ونتيجة هذا الصّراع النّفسي الحاضر بقوّة في الاقتصاد النّفسي للحالة، تفشل دفاعاتها الأوّلية بفشل الكبت (عودة الذّكريات المكبوتة) أو بالأحرى بتشويهه عن طريق تكوين التّسوية (Formation de compromis) بين القوى النّفسية المتصارعة، أي بين النّزوات المكبوتة والقوى

الدّفاعية الكابحة (الأنا الأعلى)، وهذا ما أدّى إلى ظهور أعراض أخرى لدى الحالة كنوع من "الدّفاع الثّانوي" أو كـــ "وسائل للحماية" بدت على شكل أفعال إلزامية ذات محتوى مضاد تتغذّى منه الدّفاعات الوسواسية (الاغتسال القهري، تغيير الملابس بشكل قهري) وهي دفاعات تطهيرية ضدّ العواطف وتصوّرات الزّنا المؤلمة، ومن هنا ينشأ الاجترار الفكري القهري لدى الحالة والمتعلّق بتأنيب الضّمير المفرط والمتجاوز لطاقتها، وهو ما يفسّر الاستثمار الصّراعي للفكر بهذه الصّفة المسرفة التّي تزيد من حدّة تأنيب الضّمير الوسواسي.

يشير هذا التّشدّد الوسواسي الذي ظهر عند الحالة حسب غرين Green (1993, pp. 78, 86) إلى نوع من الانحطاط من تغليم الفكر (Érotisation de la pensée) الذي تحرّكه الأفكار الوساوسية إلى تغليم مضاد للفكر (Érotisation anti-pensée) يهدف إلى التّخلّص من الموضوع المقيّد والقامع للّيبيدو.

وفي ظلّ هذا التّوظيف النّفسي، نستنتج أنّ الأعراض التّي تقدّمها "فاطمة" ما هي سوى دفاعات الأنا ضدّ عودة ذكرياتها المكبوتة. فعودة المكبوت حسب سيجموند فرويد Sigmund Freud هي المسؤولة عن الوسواس الحقيقي، هذا الأخير تحدث له إزاحة مزدوجة (Double déplacement) يُستبدل (Substitution) من خلالها الحاضر بالماضي، واللّاجنسي (Le non-sexuel) بالجنسي (Le sexuel)، يكون مصحوبا بمشاعر اللّوم وعدم الارتياح (Brunot, 2005, p. 22)، وهو ما يعكس لدى الحالة تلك العاطفة المرهقة والمحمّلة بمشاعر النّدم، الوصم (Réprobation)، الخوف من المسؤولية، تأنيب الضّمير ولوم الذّات خاصّة إذا مارست العلاقة الجنسية مع زوجها. وهذا ما يوضّحه سيجموند فرويد Sigmund Freud بقوله أنّ المصاب بعصاب الوسواس يتصرّف كما لو كان تحت سيطرة الشّعور بالذّنب اللّاشعوري (La conscience de culpabilité inconsciente)، كما يربط دائما قلق الانتظار (L'angoisse d'attente) بالتّأهّب (Aguet)، والإدراك الدّاخلي للإغراء (Séduction) بالعقاب (Brusset et al, 1996, p. 21). فالحالة تواجه ما ينتابها من وساوس مرتبطة بتجارب الإغراء السّابقة بمعاقبة نفسها عن طريق الامتناع عن ممارسة الجنس مع زوجها: « كيما أي مخلوق تجيني L'envie بصّح نحرم روحي نستاهل ونحرّمه معايا هو تاني... نموت بالخوف... خطرات تبان لي راني ننتقم منّي ومنّه مع بعض... خايفة ندّمر كلش».

إنّ هذه المشاعر الرّهابية المازوشية/السّادية التّي ظهرت عند الحالة، جعلتها تعيش صراعا بين حركتين متناقضتين بشدّة متكافئة نسبيا، يمكننا تفسيرها بالتّناقض بين الحبّ والكراهية، فسادية الحالة ليست سوى شكل متقهقر (Dégradé) من الحبّ: «باغية يطلّقني» تعني في اللّاشعور « أريد أن أعيش معه في الحلال». وفي هذا الشّأن يوضّح سيجموند فرويد Sigmund Freud أنّ علاقة العامل السّلبي للحبّ بالمكوّن السّادي (La composante sadique) للّيبيدو أي الرّغبة الجنسية تبقى كلّيا غامضة، كما يؤكّد في نفس الوقت على هذه "الكوكبة" الغريبة من الحبّ والكراهية، وعلى سيرورات التّفكير ذات الطّابع الجنسي (Sexualisé) (Brusset et al, 1996, p. 22).

إنّ هذا النّمط من التّوظيف النّفسي الذي تميّزت به "فاطمة" يكشف عن أنا "متذبذب" يحصرها في ذكرياتها الماضية ولا يسمح لها بالتّقدّم والسّير الحرّ والمرن نحو الأمام، فتبقى غير قادرة على تجاوزها. إذ أنّ الذّكريات الماضية المؤلمة والتّصوّرات المهدّدة لا تسمح للأنا بالإعداد النّفسي للصّراع النّفسي الدّاخلي. يعني ذلك أنّ صعوبة إدماج الحاضر تمنع "فاطمة" وتعيقها من تكوين "أنا الحاضر". فتبعية الأنا للماضي في ظلّ تصوّرات مهدّدة وغير مستثمرة ليبيديا، لا تدلّ على كبت النّزوة فحسب، بل على تعرّضها إلى عودة مزدوجة (Un double retournement) تظهر في صيغة من الذّهاب والإيّاب بين رغبات متضادّة، من الحاضر إلى الماضي، ومن النّشاط السّادي الموجّه في الماضي نحو عدّة مواضيع، إلى نشاط سادي موجّه في الحاضر نحو موضوع واحد (الزّوج).

سجّلنا أيضا تذبذب الحالة ما بين التّعلّق والانفصال، حيث تقول: « أنا نبغي راجلي مادابيا نشدّ فيه...شكون يسمح في بروفيسور؟ »، وفي نفس الوقت خائفة من العيش معه «خايفة نزيد معاه وخايفة من الطّلاق»، هذا الانشطار مابين التّصورات المتناقضة ولو أنّه يؤكّد التّناقض الوجداني الذي ظهر عند "فاطمة" إلاّ أنّه قد يتجاوزه، لأنّ مشاعرها تبقى على هذه الحالة من الانشطار «هاذي عامين وأنا على هاذ الحال ما طبت ما نحرقت حيّة وأنا مدفونة» حتّى لا تتغلّب النّزعات العدوانية التّدميرية على مشاعر الحبّ، وهذا الأمر الذي يُفضي إلى فقدان الموضوع "المثالي" (بروفيسور) لا تُطيقه الحالة لأنّه يعرّضها للضّياع «والله ما نقدّ نعيش بلا بيه نضيع».

وأمام استحالة التّخلّص من أفكارها الملحّة تبقى "فاطمة" عاجزة عن تصريفها لأنّها فشلت في كبتها، وهذا ما يُؤسّس لهذا النّوع من الدّفاع النّفسي الصّارم الذي يشهد على أنا أعلى صلب أمام واقع مهدّد وغير آمن، تقوم الحالة بمراقبته بأفعال قهرية تضع نفسها في خدمة الرّغبة كدفاع ضدّ الفعل الممنوع.

بناءً على معطيات المقابلة العيادية، يمكننا أن نستنتج أنّ التّوظيف النّفسي للحالة متمركز حول تنظيم حدّي من نمط **وسواسي خاصّ**. حيث أنّ طريقة استعمالها للآليات الدّفاعية، والميول التّفصيلية في تقديم معاناتها النّفسية تبدو مغالطة نسبيا، إذ يبدو لنا أمام تنظيم عصابي من النّمط الوسواسي من خلال غلبة الدّفاعات العصابية (كبت الأعراض العائدة من المكبوت والمفروضة على الأنا، الإلغاء الرّجعي، الإزاحة، التّكوين العكسي، التّبديل)، كما أنّ الميول الهستيرية (الإغماء، البكاء، الصّراخ الهستيري، الدّفاعات الإغرائية) قد تدفعنا إلى افتراض وجود سمات هستيرية، إلّا أنّه ورغم وجود هذه العناصر العصابية عند الحالة، فإنّها غير متماسكة في التّعامل مع إشكاليتها من خلال تدخّل آلية الانشطار، وهذا ما يجعلنا نلغي نسبيّا فرضية وجود تنظيم عصابي لديها. حيث يتعلّق الأمر بكفاح قويّ ضدّ الأفكار الوسواسية والنّزوات العدوانية والجنسية، هذا الكفاح يأخذ طابع كبت شديد موجّه نحو العالم الخارجي الذي هو أصل الخطر النّزوي، ولا حلّ لها إلّا استثمار هذا العالم (الواقع) استثمارا قهريا بفعل دفاعات وسواسية صلبة تفرض نفسها أمام النّقائص النّرجسية التّي تقاوم ضدّ فقدان الموضوع. وقد أظهرت المقابلة العيادية مع الحالة مجموعة من المؤشّرات: ميولات سادومازوشية، الانشطار، حذف قيمة الذّات، تجنّب الآخر، الاحتماء النّرجسي من خلال الدّفاعات الإغرائية... تُثبت انضمامها إلى التّنظيم الحدّي وتؤسّس له، وهذا ما سنحاول الكشف عنه في إطار الفحص الإسقاطي.

6.2.1. عرض وتحليل نتائج اختبار الروشاخ للحالة الثّانية:

1.6.2.1. عرض نتائج اختبار الروشاخ للحالة الثّانية:

تمّ تطبيق الاختبار مع "فاطمة" في ظروف حسنة ساعدت في تسجيل استجاباتها بشكل دقيق، ومع ذلك أبدت الحالة قلقها أمام مادّة الاختبار، وقدّمت أسئلة حوله قبل اجتيازه وكذلك فور الانتهاء للتّعرف على نمط شخصيتها «زعما كي بنت لك؟ كي دايرة شخصيتي؟ واش بيّن لك هاذ الاختبار؟»

جدول رقم (07): بروتوكول الرّوشاخ للحالة الثّانية

اللوحة	الاجابات المقدّمة	عدد الإجابات	التّحقيق	زمن الكمون	التّنقيط
I	٨...>...٨...خاصني نشوف فيها بزاف، ماعرفتهاش... فراشة، نقد ندوّر من هاذ الجهة؟ لا، فراشة، فراشة Bizarre تخيلتها كي المشعوذ راني نتخيّله يتوضّى بيديه... اللّه ينجينا منهم 1'48"	02	كلّ البقعة (G) كلّ البقعة (G)	1'47"	G F^+ A Ban تردّد فشل الكبت عدم المعرفة Choc au noir Annulation G kp (H) →Agr
II	٨...>...٨ الصّراحة je suis hésitante mais franche ما بان لي والو...طاشات متقابلين... bassin يْنوِّيك الشّر ويْنوِّيك الخير ٨...هنا زوج كلاب عيني على عينك متضاربين يعضّو في بعضاهم ويمصّو في دمهم في الطاشات الحمراء حتى يموتو V... ما قدّيتش نيماجيني، بصّح نقد نتخيّل غي كيما التّصويرة اللّي فاتت هنا عاود راني نشوف زوج مشعوذين كانوا يديرو	04	الجزء الأحمر في الأسفل (D3) كلّ البقعة (G) كلّ البقعة (G)	1'23"	Nc فشل الكبت DF-Anat Clivage de l'objet G kan A →Dév orale Nc G K (H) فشل الكبت Choc au rouge Compl de la répt Scène تكوين عكسي

	السّحور والسّحور كي داير اللّي يطيّح الصّحة عاود ما يقدّوش à l'instant يخرجوه يحلّوه ويقيسوه في الماء باش يبرّؤوا رواحهم ٨...هادي بركة بيضاء تاع الماء 3'04"			Annulation Dramatisation Dbl FC Elm	
III	V...ما نقدش نعبّر ما راه يبان لي والو... ما عرفتهمش هاذ لحمر. V...شغل كي الماء مخلّط لبيض مع لكحل لا صاي راه يخرج منه الماء صافي عذب 1'26"	01	الفراغ الأبيض الكبير حول اللّون الأحمر في الوسط (Ddl24)	Nc Choc C. rouge عدم المعرفة Dbl F^+ Elm Nc Annulation Clivage de l'objet	59"
IV	...هاذي زعما تسمّا كيما كاش دابّة ما بقا فيها والو فنات V... وهاذو زعما حيوان Sauvage متوحّش وراه مسلوخ جلده 1' 03"	02	كلّ البقعة (G) كلّ البقعة (G)	GF^+ A نزع الحياة G F^- Anat →Dest	1'17"
V	٨... فراشة ولا حشرة ما عرفتش 47"	01	كلّ البقعة (G)	G F^+A Ban التّردّد عدم المعرفة	48"
	٨...>...٨ هذا حيوان Sauvage جاب لي		كلّ البقعة (G)	G FClob A الشّك عدم المعرفة	1' 28"

VI	الرّهبة، هاذي دابّة ولا كلاب ... يدخل فيها الشّك شاهي؟ ما نعرفت على واش ناوية؟ راها مجنّدة ". V... هذا تمساح مشلّح عليها لازم يكون كي العمود ولا العكّاز واقف، الله يجيب الحفظ ٨...وهنا من التحت فم حرباء يطلق السّم كي الفتحة تاع الشّرج رايحة على الطّول تبدا من التّحت وتطلع حتّى للرّاس... وكي قلبتها صاي ما راني نشوف والو... لحدّ هنا ما نقد نزيد والو ça me coupe le cœur 2'58	03	الجزأين الجانبيين الكبيرين (D1) الحلمة الصغيرة في القاعدة الوسطى (Dd10)		D F- Anat Scène Rationnalisation DPH Dd F- Ad →Agr Ident proj Scène Annulation Inhibition Porosité des limites
VII	٨... آآآ ما نعرفت هاذي graaave ما راهاش تبان نورمال (تبتسم) هادو عفاريت هادو راهم يدراقو في بعضاهم pour s'attirer، راهم يديروا l'amour في التخبية بصّح النّاس راها تشوف فيهم زوج يبغوا بعضاهم بصّح ماشي حاجة كبيرة، نطّلبو ربي اللّيل مه النّهار يغفر لنا	01	كلّ البقعة (G)	1'49"	G K (H) إيماءات Crit obj تكوين عكسي Scène Dramatisation Ident proj Dénégation DPH

				2'49"	
D F-Anat Clivage de l'objet تكوين عكسي →Sym Contag D F+ A Ban Annulation تردّد kan réprimé Rationnalisation Dd F+Ad	1'53"	الجزء الرمادي في الأعلى (D4)) الجزأين الجانبيين بالوردي (D1) النصف الرمادي في الأعلى (Dd31)	03	٨...<..٨... ما بان لي والو نظن حوض تاع راجل مشلّح مقسوم على زوج نواص من بعد يتلايمويو يولّو عندي زوج كيف كيف يعطوني حوض تاع امرأة ولاّمهبل كيما الرّحم زعما ٨...هنا بلاك زوج حيوانات... Non استني ماشي حيوانات....ما نعرفت المهم راهم يبانوا Figé عليها ما بانوليش مليح ٨...<..٨...هاذو جاب لي ربّي يدين تاع حيوان 2'56	VIII
Choc. C pastel فشل الكبت Dd F-Sex تردّد D kob Feu Criti obj Dramatisation Annulation Choc . C orange D kob Elém	1'21"	الوسط الوردي في الأسفل (Dd10) الجزأين الجانبيين بالبرتقالي (D12) الجزأين الجانبيين بالأخضر (D11)	03	V... ما عرفتش V... هنا مهبل ولا رحم V...٨...هاذي مفركتة جايا قاع مخبلة شغل كي النّار لاهبة... وياااه راهي شاعلة بيناتهم... جايا مخلطة... هاهو الماء من بعد يطفيها ولّات رماد 2'18"	IX

X	٨...هنا بانت لي زوج ريسان صغار تاع كاش بنيادم مشلحين معفنين... راني خايفة نزيد نكمّل...(تبتسم) خلّي البير بغطاه ٨...V...هاذي حديقة نقية، هاذ النّقاوة ترمز للأمل...هاذ التصويرة في الأوّل ما عجبتنيش عاود عجبوني لوانها...أف صاي كمّلت 2'35"	02	اللّون الأصفر في الأسفل (D2) كلّ البقعة (G)	57"	DF-Anat تحفّظ كبت Scène →Dest Ident proj G F+Bot تكوين عكسي Clivage de l'objet Crit obj خلل في التّرميز

اختبار الاختيارات:

الاختيار الإيجابي (+):

هاذ التّصاوير قاع عجبوني وما عجبونيش

الاختيار السلبي (-):

حتّى حاجة ما عجبتني شغل عفسة bizzare كلش يقلق قلت لك ما عجبني والو

جدول رقم (08): المخطّط النّفسي للحالة الثّانية.

أنماط الإدراك	المحدّدات	المحتوى	الخلاصة
G= 10	F^+= 07	A= 06	R= 22 R. compl= 1 Refus= 0 T. Total=61mm Tps/R= 1'38" T.d'appr: G-D-Dd-Ddl TRI=2K /0,5C FC=4K /0E RC=36% Ban= 3 F%=64% F^+%=50%
D= 07	F^- = 07	Ad=02	
Dd= 03	F^{+-} =00	H=00	
Dbl=02	FClob= 01	Hd=00	
	FC= 01	Anat= 05	
	CF=00	Sg=00	
	C= 00	Sex=01	
	E = 00	Elem= 03	
	FE= 00	(H)= 03	

F% élargi=86% A%=36% H%=00%- 14%	Feu= 01	K= 02	
	Bot= 01	kan = 01	
		kob= 02	
		kp= 01	
	R=22	R=22	R=22

الصّدمات: 3 (I، III، IX)

التّكرار: فراشة (I، V)، المشعوذ (I، II)، كلاب (II، VI) الماء (II، III، IX، X)، دابّة (IV، VI)، مهبل (VIII، IX)، حيوان sauvage (IV، VI).

التّعاليق: تردّد، شكّ، إيماءات، تكوين عكسي، عزل، عودة المكبوت، إلغاء، وصف، توضيحات، نقد الموضوع.

التّتابع: صلب، منسجم نوعا ما

حساب النّسب المعتمدة في التحليل:

- **نسب استجابات أنماط الإدراك (Modes d'appréhension):**

$$G\% = \frac{\Sigma G}{R} X\ 100$$
$$G\% = \frac{10}{22} X\ 100$$
$$G\% = 45\%$$
$$D\% = \frac{\Sigma D}{R} X\ 100$$
$$D\% = \frac{7}{22} X\ 100$$
$$D\% = 32\%$$
$$Dd\ \% = \frac{\Sigma Dd}{R} X\ 100$$
$$Dd\% = \frac{3}{22} X\ 100$$
$$Dd\% = 14\ \%$$
$$Dbl\ \% = \frac{\Sigma Dbl}{R} X\ 100$$
$$Dbl\% = \frac{02}{22} X\ 100$$
$$Dbl\% = 09\%$$

- **نسب استجابات المحدّدات الشّكلية (Les déterminants Formels):**

$$F\% = \frac{\Sigma F}{R} X\ 100$$
$$F\% = \frac{07+07+00}{22} X\ 100$$
$$F\% = 64\%$$

$F^{+}\% = \frac{\Sigma(F+) + (\frac{F\pm}{2})}{\frac{\Sigma F}{R}} X\ 100$

$F^{+}\% = \frac{07 + \frac{00}{2}}{14} X\ 100$

$F^{+}\% = 50\%$

$F\%\ \text{élargi} = \frac{\Sigma F + \Sigma K + \Sigma kan + \Sigma FC + \Sigma FE + \Sigma Fclob}{R} X\ 100$

$F\%\ \text{élargi} = \frac{14+02+01+01+00+01}{22} X\ 100$

$F\%\ \text{élargi} = 86\%$

- **نسب استجابات المحتوى (Contenus des réponses):**

$H\% = \frac{H+Hd}{R} X\ 100$

$H\% = \frac{00+00}{22} X\ 100$

H%= 00%- 14%

$A\% = \frac{A+Ad}{R} X\ 100$

$A\% = \frac{06+02}{22} X\ 100$

$A\% = 36\ \%$

- **نمط الصدى الحميم (Type de résonnance intime TRI):**

$TRI = \frac{K}{C} = \frac{K}{(CX1,5)+(CFX1)+(FCX0,5)}$

$TRI = \frac{02}{(00X1,5)+(00X1)+(00X0,5)}$

$TRI = 2/0,5$

- **المعادلة المكمّلة (Formule complémentaire FC):**

$FC = \frac{K}{E} = \frac{\sum Kan + \sum Kob + \sum Kp}{(0,15X00)+(1X00)+(1,5X00)}$

$FC = \frac{01+02+01}{(0,15XFE)+(1XEF)+(1,5XE)}$

$FC = 4/0$

- **استجابات الموارد اللّونية (Ressource de couleurRC):**

$RC = \frac{Nombrederèponses\ à\ VIII,IX,X}{R} X\ 100$

$RC = \frac{03+03+02}{22} X\ 100$

$RC = 36\%$

- **الأزمنة (Les temps) :**

$\text{Temps par réponse} = \frac{Temps\ total}{Nombre\ de\ rèponses}$

Temps par réponse =1'38"

Temps de latence moyen = $\frac{Sommes\ des\ temps\ de\ latence}{Nombre\ deplanches\ interprétées}$

Temps de latence moyen = 82"

2.6.2.1. تحليل نتائج اختبار الروشاخ للحالة الثّانية:

الإنتاجية:

تُطلعنا النّظرة الأولى للبرتوكول على فشل الحالة في تقديم إنتاجية ثريّة، وذلك بمراعاة الوقت الكلّي (61 دقيقة)، ويبدو ضعف الإنتاجية من خلال تعبيرها الفقير الذي جمع بين 22 إجابة في مدّة قدرها 36 دقيقة (أي ما يعادل 1 دقيقة و38 ثانية لكلّ إجابة)، والميول التّفصيلية المتداخلة معها لوصف المدركات وإعطائها دلالة وسواسية. ولقد تجلّت الانطباعات الإسقاطية من خلال هذا الفقر الإستهامي في إبراز الإشغالات الذّاتية والإفصاح عن العالم الدّاخلي مع بعض الميول الدّرامية التّهويلية (Dramatisation) كمؤشرات تشهد على الدّفاع الهستيري، وهذا ما سنحاول الكشف عنه في إطار معالجة إنتاجها الإسقاطي.

قد تدلّ تلك النّزعات التّهويلية على الاستثمار المفرط للفكر (Le surinvestissement de la pensée) في طابع وسواسي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ أغلب التّصوّرات التّي تحرّك هذه السّيناريوهات الدّراماتيكية جاءت مقدّمة بشكل متكرّر لبعض المحتويات (الفراشة، المشعوذ، الماء، الذّابة، مهبل، رحم، كلاب...) وهو ما يتّفق مع المعطيات الكمّية التّي تبرز طابع رقابة شديدة (F%= 64، F% élargi = 86) وذلك كمحاولة للتّحكّم في القلق الذّي تثيره البقع.

ومن أهمّ المؤشّرات الدّالة على عناصر القلق والتّردّد التّي تخدم الطّابع الوسواسي نجد ما يلي:

- التّفصيل وإطالة التّعبير في بعض اللّوحات (II، VII، VIII، IX).

- تدوير اللّوحات وانتقاد بعضها (كنوع من التّحرّر التّعبيري) والإيماءات كما يظهر في اللّوحات (I، II،VI، VII، VIII، X).

- التّتابع الصّلب وتكرار الإجابات مع تدخّل الإلغاء، التّكوين العكسي، العزل كآليات دفاعية مهيمنة تدير الإنتاج الإسقاطي، كما أنّ التّحقيق لا يعكس إبداع استهامي في الإجابات الإضافية للحالة، وكان على شكل تكرار، حيث لا نجد إلاّ إعادة للإجابات التّلقائية المقدّمة سابقا باستثناء

إجابة إضافية واحدة في اللّوحة (III) «بانولي زوج كلاب متعاركين» وهي تقريبا تكرار للإجابة التّي قُدّمت سابقا في الإجابة الثّانية من اللّوحة (II) «زوج كلاب عيني على عينك متضاربين».

بلغ متوسط زمن الكمون 82 ثانية وهو زمن طويل جدّا إلى جانب زمن كلّ إجابة (1 دقيقة و38 ثانية) ويرجع ذلك إلى كثرة التّعليقات والتّفاصيل التّي أخذت وجهة تحكّمية (تحفّظات وتوقّفات كلامية، تردّد، شكّ، تكوين عكسي، إلغاء، عزل...).

يتباين عدد الإجابات من لوحة إلى أخرى: من إجابة واحدة في اللّوحة (III، V، VII)، إلى إجابتين في اللّوحة (I، IV، X)، إلى ثلاث إجابات في اللّوحة (VI، VIII، IX)، إلى أربع إجابات في اللّوحة (II)، مع الميل إلى الرّفض في اللّوحة (I، II، III، IX، VIII). وسجّل أقصى زمن كمون (1'53) في اللّوحة (VIII) لمحتويات تشريحية وحيوانية مع الميل إلى الإنشطار، التّكوين العكسي، والإلغاء. وكان أقلّه في اللّوحة (V) حيث استغرق ("48) لتقديم استجابة مألوفة تنتهي بالتردّد وعدم المعرفة.

ويظهر استحواذ مادّة الإختبار على الحالة من خلال معاش الغرابة (Le vécu de l'étrangeté)، وذلك بذكر الصّفة "غريبة" (Bizzare) في اللّوحة الأولى، وهي لوحة الدّخول في وضعيات جديدة. ولقد تمّ التّعبير عن هذا المعاش بطريقة مقيّدة «خاصني نشوف فيها بزّاف» ومختلفة « فراشة» ثمّ «مشعوذ» تشكّك في البعد التّلقائي للتّمثيل وتميّز الإنتاج الإسقاطي لدى الحالة، وهذا ما يعكس مجهودها الدّفاعي كمحاولات للتّحكّم في الصّراع النّفسي الدّاخلي الذي تحييه مادّة الاختبار.

يكشف التّأمّل في خطاب الحالة عن نوع من الذّهاب والإياب في المعالم الزّمنية حيث يأخذ هذا الأخير شكلا لغويا يتأرجح بين الماضي والحاضر، ويبدأ بتوظيف الفعل الماضي، وهذا ما يبدو جليّا في كلّ من اللّوحات الآتية:

- اللّوحة (I): «تخيتلها» (في الماضي)/ «راني نتخيله» (في الحاضر).

- اللّوحة (II): «ما قدّيتش» (في الماضي)/ «نقد» (في الحاضر)"، و «كانو» (في الماضي)/ «راهم à linstant » (في الحاضر).

- اللّوحة (X): «بانت» (في الماضي)/ «نزيد» (في الحاضر).

تُثبت هذه التّصورات النّفسية المقدّمة بهذه الصّيغة المتذبذبة "ذهاب وإيّاب" بين الحاضر والماضي، تبعية الأنا للماضي وصعوبة إرسائه في الحاضر أي عدم القدرة على إدماجه، وهذا يدلّ من جهة على صعوبة الإعداد النّفسي للصّراع الذي تحاول الحالة إزاحته مباشرة إلى الحاضر: "à l'instant" لكن دون القدرة على تجاوزه: «ما قدّيتش نيماجيني... ما نقدش نعبّر... »ومن جهة أخرى على سيطرة الأنا الأعلى بفعل مشاعر الذّنب والتّأنيب التّي فسحت المجال لبروز الجرح النّرجسي: «لحدّ هنا ما نقد نزيد والو ça me coupe le cœur » (اللّوحة (VI))، أو أكثر من ذلك لبروز مسامية الحدود (Porosité des limites) التّي تدلّ حسب وينيكوت Winnicott على خلل في جدلية الواقع/ خيال، وهذا ما يشير إلى هشاشة الأنا في وظيفته الإحتوائية للعالم الدّاخلي والخارجي، لأنّ المساحة الفاصلة بين الدّاخل والخارج "نفوذة" وهشّة، فما هو خارجي داخلي عند الحالة، وهذا ما يُفسّر الفقر الاستهامي (Pauvreté fantasmatique) .

السّياقات المعرفية:

تدلّ معالجة أنماط الإدراك على قدرة عقلية يصعب استثمارها، حيث بلغت نسبة الاستجابات الشّاملة (G) 45% وتعتبر نسبة مرتفعة نسبيا، ومع ذلك يشير ظهور(G) بسيطة لاستجابة مبتذلة في اللّوحتين (I، V) بأسلوب متردّد إلى صعوبة التمثّل النّفسي العلائقي الاجتماعي.

ويبقى الإتّصال بالواقع الذي تعبّر عنه الحالة بطريقتها الخاصّة: « لصّراحة je suis hésitante mais franche » (اللّوحة II)، قائما من خلال التّناول البسيط والمبتذل (3Ban،$4GF^{+}$). ويبدو الجهد الرّقابي الإنطباعي (GFClob) في اللّوحة (VI) حيث يتدخّل المظهر الدّاكن للبقعة وتزول الألوان الفاتحة، فيظهر كنوع من الدّفاع النّرجسي الذي يحمل انطباعات وسواسية «يدخل فيها الشّك شا هي؟» تكشف عن القلق والتّرقّب الحذر للخطر الغامض والمهدّد لهوية الحالة:«ما نعرفت على واش ناوية؟ راها مجنّدة». وبالنّظر إلى هذه الوظيفة الدّفاعية النّرجسية يمكننا أن نفهم الدّور الدّفاعي (الإلغاء) للتّناول الشّامل في أوّل لوحة من الاختبار، بأنّه دور مؤسّس لحماية الذّات الموحّدة النّرجسية، للبقاء في حالة من الحيطة والحذر تجاه الآخر: «فراشة Bizarre تخيلتها كي المشعوذ... الله ينجينا منهم». وتشير الاستجابات الشّاملة المركّبة (Gkp ، Gkan،GK) إلى مجهود عقلي للمّ أجزاء البقعة لأغراض دفاعية تحكّمية، وذلك بمساعدة نوعين

من المحدّدات: المحدّد الحركي الوارد في إطار خيالي بدائي ((2K(H)) ،((1kp (H))، والمحدّد الحركي الحيواني (kan). فالنّوع الأوّل تحاول به رفض وإبعاد نزواتها اللّيبيدية (الجنسية) والعدوانية من خلال آليتي النّفي (Dénégation): «بصّح ماشي حاجة كبيرة» (اللّوحة VII)، والإلغاء (Annulation): «يخرجوه ويحلّوه يقيسوه في الماء باش يبرؤوا رواحهم» (اللّوحة II). أمّا النّوع الثّاني فهو يتضمّن حركة سادومازوشية «يمصّو في دمهم في الطّاشات الحمراء حتّى يموتو» تشير إلى صعوبة الاستثمار النّرجسي.

وتكشف الإجابات الجزئية الكبيرة (D%=32%) عن التّذبذب الفكري في تناول الواقع والمواضيع، فتارة تُدمج الواقع بنجاح (+1DF)، وتارة أخرى بإدراك خاطئ ($^{-}$4DF). أمّا الاستجابة الجزئية الصّغرى (2Dkob) (اللّوحة IX) فتشير إلى الصّراع النّزوي بين نزوة الموت "النّار" ونزوة الحياة "الماء" ممّا يدلّ على ثقل المعاناة النّفسية التي تدلّ على سحب الاستثمار النّرجسي.

ترتفع الإجابات الجزئية بنوعيها الكبيرة والصّغيرة (D، Dd) في اللّوحة (VIII) لمواصلة نمط التّحكم الفكري الوسواسي في النّزوة الجنسية ضمن صراع نفسي مستثمر بين الفكر والجنس. فما يظهر في أسفل اللّوحة هو مُقلق للحالة من حيث ما يستدعيه من إستهامات تشريحية تُذكّر بالنّزوات الجنسية: "حوض"، "مهبل"، "رحم"، لذلك تحاول التّحكّم فيها بحركات تتمثل في تدوير اللّوحة نظرا لفشلها في تجاوز هذه النزوات وعدم القدرة على القيام بوظيفتها الأنثوية التّناسلية (أي ممارسة الجنس مع زوجها). هذا التّحكّم بإدراكه النّاجح ($^{+}$DF) يمثّل نوعا من تغليم الفكر (Érotisation de la pensée) الذي يقتضي تحويل النّزوة الجنسية إلى تصوّرات تعمل على كبتها لتجاوز الفعل الممنوع في ظلّ الصّراع بين الذّكورة (حوض) التّي تمثّل الفكر، والأنوثة (رحم، مهبل) التّي تمثل النّزوة والجنس، ولتجاوز ذلك تحاول من جهة العزل بينهما: «مقسوم على زوج نواص»، ثمّ توحيدهما: «من بعد يتلايمو يولّو عندي زوج كيف كيف...» من جهة أخرى، وهذا يمثّل حركة من الذّهاب والإيّاب بين الرّغبة والدّفاع ضدّها، وهو ما يؤكّد صعوبة الإعداد النّفسي للصّراع النّفسي الدّاخلي.

يظهر في اللّوحتين (II، X) نوع من الذّهاب والإياب (التّناوب) بين الإجابات الجزئية التي تبدأ بها الحالة تناول اللّوحة والإجابات الشّاملة التّي تواصل بها. ففي اللّوحة (II) يبدأ التّصور الهوامي بمحاولة الإحاطة بجزئية البقـة (D) لتصغير قلـق الإخصاء الـذي يستثيـره اللّـون

الأحمر في البقعة، وقد تمّ تقديم استجابة بذيئة (Crue) بعدما كانت مرمّزة، وهذا يدلّ على عجز الحالة عن إعطاء معنى للمعاش النّفسي الدّاخلي، أي عدم إمكانية التّرميز (فشل الكبت وعودة المكبوت) وذلك بفعل الذّهاب والإياب الذّي لم يتمكّن الأنا من إعداده.

وكمحاولة لتجاوز الصّراع النّفسي تتدخّل الإجابات الشّاملة في نفس اللّوحة بإدراك صورة حيوانية في علاقة عدوانية: «هنا زوج كلاب عيني على عينك متضاربين يعضّو في بعضاهم ويمصّو في دمهم في الطاشات الحمراء حتّى يموتو» تشير إلى إستهامات إفتراسية عدوانية من نمط سادي فمي (ظهور النّزوة الفمية). في حين يشير ظهور جزئية لمضمون تشريحي في اللّوحة (X): «زوج ريسان صغار تاع كاش بنيادم مشلحين» إلى تصوّرات تدميرية مقدّمة بنفس الهوام "مشلّح" في الإجابة الثّانية من اللّوحة (VI) حيث تمّ تقديم تشريح حيواني متعلّق بصورة ذكرية ومرتبط بخصائص قضيبية صلبة «تمساح لازم يكون كي العمود ولا العكّاز واقف» تستثيرها صورة الأنثى الحربائية المهدّدة والمُضرّة بالذّات النّرجسية «فم حرباء يطلق السّم...» والمولّدة للتّصوّرات الغلمية (فم، فتحة شرج) التّي تحاول الحالة التّحكم فيها بتدوير اللّوحة وإلغائها «وكي قلبتها صاي ماراه يبان لي والو» لضبط القلق والتّجارب المؤلمة الخفيّة أمام المواضيع الذّكرية القضيبية المهدّدة "قلق الإيلاج" [20] (L'angoisse de pénétration). كما تدلّ الإزاحة نحو الأعلى على جنسنة الفكر (Sexualisation de la pensée) (Chabert, 2012, p.51) التّي تميّز التّفكير الوسواسي، والتّي تظهر بوضوح في السّيناريو الحركي لمحتويات بدائية (اللّوحة (VII)) يعكس خيال جنسي مكبوت ويكشف عن استثمار فكري تحرّكه الطّاقة النّزوية.

تتدخّل الإجابات الجزئية البيضاء (Dbl%=09%) لتأكيد دقّة التّفكير، حيث تأخذ وجهة أكثر صلابة من حيث استخدامها كدفاعات وسواسية (تطهيرية) تُخفي بعدا إسقاطيا يتضمّن إشكالية النّزوات والهوامات المتعلّقة بالمواضيع الجنسية.

[20] تمّ وصفه في أدبيات التّحليل النّفسي، ويمكن ربطه في غالب الأحيان بالاكتساح الذي لا يتوافق مع الإثارة (المحفّز) عند الفتاة: كما لو أنّها في حالة خطر التّعرّض للإيلاج (Pénétration) دون إمكانية التّحكّم في الدّاخل/ الخارج (Dedans/Dehors). يستقر القلق في الصّراع تقدّم/نكوص (Progression/régression)، تقمّص/تمايز (Identification/Différenciation)، تبعية/استقلالية (Dépendance Autonomie)، السّيطرة/ عدم القدرة (Contrôle/ impuissance) (Vasconcellos-Bernstein, 2012. p. 732).

يدلّ التّشكيل المرتفع للمدركات (F% = 64%) وانخفاض فعالية الرّقابة النّاجحة (F^+% =50%) على الاعتماد على الواقع الخارجي كدفاع ضدّ بروز العالم الدّاخلي، ويعتبر ذلك نوع من الفصل أو العزل بين العالمين تترسّب فيه العواطف (F% élargi= 86) لخدمة الطّابع الوسواسي الحادّ. فرغم محاولة التّحكّم العقلي في بروز التّصوّرات والعواطف وعزلها بالمحدّدات الشّكلية (F% élargi= 86) إلّا أنّ انخفاض فعاليتها لم يحققّ نجاح الأنا في ذلك (F^+% =50%).

أظهر البروتوكول ثلاث استجابات شائعة ومع ذلك نجدها غير واردة بشكل تلقائي وعفوي فالفراشة المستحضرة في اللّوحة (I) و(V) مصحوبة بالتّردّد وعدم المعرفة مع وجود صمت معتبر، وهذا ما يشير إلى غياب المشاركة الوجدانية الفعّالة.

معالجة الصّراعات:

يكشف نمط الموازنة بين العاطفة التي تظهر في الاستجابة اللّونية والقطب الفكري الذّي يظهر في الحركات (2/0,5) عن انطواء الحالة وانشغالها بذاتها، أي هيمنة القطب العقلاني (التّكويني) على القطب الاستقبالي السّاكن. ولعلّ غياب الصّورة الإنسانية في كامل البرتوكول يعيدنا إلى إشكالية عجز الحالة عن تصوّر أي رغبة تجاه الآخر، وذلك لأغراض دفاعية تتضمّن إبعاده للاحتماء من الميول النّزوية اتجاهه. وتبقى صلابة الفكر مانعة لأيّ استثارة خارجية أو بلورة عاطفية ضمن قالب صراعي يمكن صياغته في نسبة الاستجابة إلى الموارد اللّونية (RC= 36%). وتشير نتيجة الصّيغة المكمّلة (FC=4\0) إلى وجود صراع نفسي داخلي تحاول الحالة إخفاؤه وإسقاطه على العالم الخارجي بدفاعات وسواسية خاصّة، تمّ استخدامها بنجاح لتصريف التوتّر والقلق النّفسي (إلغاء، شكّ، تكوين عكسي، عزل...).

تبيّن دراسة المحتويات نوعا من الفقر الاستهامي الذي يتجلّى في قلّة الأنواع، فبالرّغم من النّسبة العادية للمحتوى الحيواني (A%=36%)، إلّا أنّه جاء مألوف ومتكرّر: «فراشة، دابّة، حيوان sauvage، كلاب» وهو يشهد على التّحفّظ في الاختيار التّلقائي الجامد للصّور التّقمصية، وذلك لخدمة الطّابع الوسواسي.

أمّا افتقار البروتوكول كلّيّا إلى المحتوى الإنساني[21] فيدلّ على غياب الاستثمار العقلي لتصوّر الذّات، كما تدلّ «ما قدّيتش نيماجيني» على أنّ الحالة غير قادرة على استثمار فكري عقلي، وفي نفس الوقت على التّناقض الوجداني: «بصّح نقد نتخيّل». أمّا «كاش بنيادم» فتدلّ على صعوبات في التّقمّص.

وتقدّم الحالة محتويات بدائية (عفاريت، مشعوذين) غير مطوّرة فكريا (كلاب متضاربين، حيوان sauvage متوحّش، تمساح...) تخصّ انشغالات ذاتية عميقة، وهي ذات مشاعر رهابية اضطهادية محرّكة بسيناريوهات تهويلية درامية: «وياه راهي شاعلة بيناتهم، هاذي grave ما راهاش تبان نورمال، والسّحور كي داير اللّي يطيّح الصّحة...يمصّو في دمهم حتى يموتو...» مع الميل الدّفاعي إلى الكبت غير النّاجح: «ما نقدش نيماجيني، ما نقدش نقولك، ماراه يبان لي والو، الصّراحة «je suis hésitante mais franche ما بان لي والو...» وهذا يؤكّد صعوبة الإعداد النّفسي للأنا. وتشير الإجابة الثّانية في اللّوحة (II): «بصّح نقد نتخيّل غي كيما التّصويرة اللّي فاتت» إلى دخول الأنا في لعب التّكرار القهري.

تظهر أهمّ المؤشّرات الدّالة على شدّه القلق والضّيق منذ اللّوحة الأولى التّي جعلتنا نفترض أنّ المادّة الإسقاطية عاشتها الحالة كتجربة غريبة حرّكت لديها إشكالية وسواسية تذكّرها بالطّهارة والاغتسال «راني نتخيّله يتوضى»، تلك الإشكالية متعلّقة بالتّجارب الجنسية الماضية المشحونة بمشاعر التّأنيب وكلّ ما تحمله من معاني الرّغبة في الأمن والاحتماء النّرجسي «اللّه ينجينا منهم».

يتواصل هذا القلق إلى غاية اللّوحة (II) إذ تحاول الحالة التّحكم فيه وتجنّبه بمحتوى تطهيري (الماء) للتّبرّأ من الأخطار الخارجية المهدّدة للذّات: «باش يبرؤوا رواحهم». تتوضّح علامات القلق أيضا في اللّوحة (X) بظهور ميولات اندفاعية عدوانية غير ناضجة «زوج ريسان صغار تاع كاش بنيادم مشلحين» ومن أجل إخفائها تلجأ الحالة إلى الاحتفاظ بها كسرّ عميق مخيف ومكبوت: «خايفة نزيد نكمّل خلّي البير بغطاه». وتنتهي اللّوحة بنفس فكرة التّطهر من رموز الوسخ «العفن»، وهي نفس الفكرة التي بدأت بها البرتوكول «يتوضّى» وختمته بها

[21] يقول كلوبفر Klopfer أنّ: «البروتوكول الذي تغيب فيه الاستجابات البشرية، بمثابة مؤشر على ميل الفرد للدّقة والنّقد مع درجة من القلق» (فاسي، 2011، ص161) .

«النّقاوة»، وكأنّ الهاجس الوحيد الذي يشغل الحالة هو إيجاد منفذ أو طريقة للتّخلّص من المواضيع السّيئة والتّصوّرات الجنسية التّي تثير القلق (الإخصاء/ الإيلاج)، وهذا ما أعطى للدّفاع النّفسي صبغة وسواسية خاصّة.

وتعبّر الحالة أخيرا عن الانتهاء من هذه التّجربة الغريبة (المادّة الإسقاطية) بشكل اندفاعي تنفّسي «أف صاي كمّلت اللّي بقى ما يهمش» يعكس الميول الدّفاعية التّجنّبية.

- **المحدّدات الحركية:**

تتنوّع الحركات بين الكبرى (K) والصّغرى (kan)، (kob)، (kp) إلّا أنّها كما أشرنا سابقا ذات ميزة خاصّة ومستعملة لخدمة التّفكير الوسواسي الذي يفيد في حماية الأنا من الأخطار النّزوية. فالحركة الحيوانية الأولى التي برزت في اللّوحة (II) بعد زمن كمون طويل (1'23") تستقر في النّهاية في الجزء الأحمر من البقعة (صدمة اللّون الأحمر) وهي منسوبة إلى حيوانين ذوا خصائص مخيفة تفيد "الرّقابة" «عيني على عينك»، تريد بها تغطية العدوانية الخفيّة المحوّلة إلى سلوكيات فمية تتضمّن تصوّرات تدميرية ومهدّدة تهدف إلى إيقاف أي وظيفة لنزوة الحياة نظرا لسيطرة نزوة الموت، وهذا ما ظهر أيضا في اللّوحة (IV) أين تمّ إستحضار مضامين حيوانية معرّضة للفناء (فاقدة للحياة): «كاش دابّة ما بقى فيها والو فنات» وهذا ما يفسّر الصّراع النّزوي بين الحياة والموت، وقد ظهر هذا الصّراع سابقا في الإجابة الثّانية من اللّوحة (II) التّي تمّ معالجتها بأسلوب إيجابي وسلبي معا: «يْنوِّيك الشّر ويْنوِّيك الخير» وهذا مايبرّر الصّراع بين نزوة الحياة ونزوة الموت. هذا الانشطار النّزوي الذي ظهر في اللّوحة يفسّر عدم قدرة الحالة على معالجة الواقع بأسلوب آخر سوى بالأسلوب الوسواسي المتردّد: «شغل كي الماء»، «هاذي زعما تسمّا كيما...» ، «نظن حوض...» ، «فراشة ولا حشرة»، «يدخل فيها الشّك»، «هنا بلاك زوج حيوانات...» ، «هاذو جاب لي ربي...» .

أمّا حركة النّار المقموعة فتشهد في الاستجابة الجزئية المركّبة (Dkob) (اللّوحة IX) على الانسحاب النّرجسي الذي يرغب في إخماد الاندفاعات النّزوية بطابعها العدواني (النّار) والجنسي (الماء) ليبقى بعد ذلك الرّماد، وهي هوامات تشير إلى الصّورة السّلبية للذّات التّي تحاول إلغاءها ثمّ إصلاحها (في التّحقيق) بدفاعات تطهيرية تبريرية: «خاطر لماء ينقي كلش» تهدف إلى التّخفيف من وطأتها.

وإذا كانت هذه الحركة الصّغرى (Dkob) المسبوقة باندفاعات نزوية: "مهبل"، "رحم" المرتبطة بنوع من العدوى ومعبّر عنها بمفاهيم "مفركتة"، "مخبلة"، وهي تدلّ على صعوبة لعب خيال/ واقع أي التّموضع في مجال انتقالي (Transférierl) نظرا لغياب مواضيع مؤمنة، وتهدف للتّحرّر من القلق النّاجم عن تصوّر المواضيع السّيئة غير المؤمّنة: «شاعلة بيناتهم» كمصدر للخطر النّزوي العدواني (النّار)، فإنّ التّصوّر الحركي البدائي (عفاريت) في اللّوحة (VII) يدلّ حسب رمزية اللّوحة على صعوبة تمثّل الحالة لهوية مدمجة أمام موضوع أمومي مهدّد «هاذي grave ما راهاش تبان نورمال» (إثارة قوية). كما تبدو صعوبة الإعداد النّفسي في هذه اللّوحة بظهور أساليب من التّردّد وعدم المعرفة: «آ ما نعرفت».

وتشير استجابة «نطلبوا ربّي اللّيل مع النّهار يغفر لنا» في نفس اللّوحة، و «اللّه يجيب الحفظ» في اللّوحة (VI)، و«اللّه يغفر لنا» في اللّوحة (VII) إلى الحاجة الملحّة إلى السّند والأمن أمام الواقع المهدّد وعدم الثّقة في مواضيعه غير المؤمنة (المشعوذين، التّمساح، العفاريت، الحرباء، النّار، الكلاب...).

وتظهر كذلك صعوبة إدماج الهوية بشكل واضح في التّمثيل الدّرامي الحركي المقدّم بنفس الإطار البدائي في اللّوحة (II) «زوج مشعوذين»، وهو يؤسّس لإيجاد مخرج من الصّراع النّفسي الدّاخلي: «يخرجوه ويحلّوه ويقسيوه في الماء باش يبرؤوا رواحهم».

- **المحدّدات الحسّية:**

يُظهر البرتوكول إجابة لونية واحدة (FC)، وقد لجأت الحالة إلى استحضار اللّون الأبيض المختلط مع اللّون الأسود (اللّوحة III) بعيدا عن توظيف اللّون الأحمر، للتّخلّص من التّصوّرات الجنسية المؤلمة، ولتعويض القلق الدّاخلي (القلق الأحمر: قلق الإيلاج) بالقلق الأبيض (الفراغ) والقلق الأسود (الميولات الاكتئابية) وصدّه بدفاعات الإلغاء والتّردّد للإحتماء الذّاتي والتّطهر من الأخطار النّزوية بواسطة الماء الصّافي العذب. ولعلّ اللّون الأبيض المستحضر سابقا في فراغ اللّوحة (II) يؤكّد هذه الميول الوسواسية والتّطهيرية: «هاذي بركة بيضاء تاع الماء» ليبقى التّلفّظ بـــ "الأبيض" والاستعانة بمحتوى "الماء" وسيلتها الوحيدة والخاصّة للتّنظّف والتّطهّر بحثا عن صورة الذّات الإيجابية التي مجدّدا ترغب في إصلاحها وتطهيرها.

كما تشير عدم معرفة اللّون الأحمر (Nc) في اللّوحة (III) بعد مجهود إدراكي وزمن كمون مرتفع ("59) إلى ثقل الكبت بفعل التّردّد وعدم المعرفة (صدمة اللّون الأحمر).

أمّا فيما يخصّ اختبار الاختيارات، فيؤكّد الاختيار الإيجابي آلية الإنشطار، ويجذر التّذكير بأنّ أداة الاختبار قد شكّلت وضعية مقلِقة عاشتها الحالة (استحواذ مادّة الإختبار على الحالة) كتجربة غريبة[22] استمرّت إلى غاية اختبار الاختيارات، حيث عبّرت في الاختيار السّلبي عن عدم ارتياحها لها «حتّى حاجة ما عجبتي شغل عفسة bizarre، كلش يقلق قلت لك ما عجبني والو»، وهذا يبرهن قلق الحالة وانزعاجها أمام مادّة الاختبار وصعوبة الدّخول فيها. ويدفعنا التأمّل في كثرة حالات الميل إلى رفض اللّوحات (5 حالات) والذّهول أمام أغلب اللّوحات (ارتفاع زمن الكمون) إلى التّسليم بوجود تنظيم حدّي يحرّكه القلق والشّك والتّرقب الحذر للخطر المهدّد والغامض، وهو ما يفسّر الشّعور المستمرّ بالتّهديد الخارجي.

استنتاج:

أظهر الإنتاج الإسقاطي لـ "فاطمة" دفاعات نفسية متنوّعة تثير التّنظيم الحدّي (تكوين عكسي، تبرير، عزل، نفي، مواظبة، انشطار، فشل الكبت، تقمّص إسقاطي...) الذي يسير وفق صراع نفسي حادّ وغير معقّل (Non mentalisé) ما بين الرّغبة والدّفاع بفعل الصّلابة الوسواسية المُحرّضة لسياقات الرّقابة التّي تهدف إلى التّحكّم في النّزوات وكبتها في قطبيها العدواني وخاصّة الجنسي. وكذلك بفعل سياقات التّهويل التّي كانت هي الأخرى حاضرة، وكأنّ الحالة تريد من وراء هذه السّيناريوهات التّهويلية رسم ماضيها المؤلم، وفي نفس الوقت الإحتماء النّرجسي من خلال رفضها للتصورات الجنسية والمشاهد الإغرائية التّي تهدّد ذاتها باستمرار، وهذا ما ظهر بصفة واضحة (اللّوحة (VII)) في ظلّ تغليم العلاقات[23] «راهم يدراقو في بعضاهم pour s'attirer، راهم يديرو l'amour...زوج يبغوا بعضاهم.بصّح ماشي حاجة كبيرة» الذي ساهم

[22] يعيدنا هذا الإحساس إلى ما تحدّث عنه سيجموند فرويد Sigmund Freud في "الغرابة المقلقة" (L'inquiétante étrangeté)، ويتمثّل في الإحساس المقلق الذي يُنذر بحدوث خطر في القريب العاجل (سي موسي وبن خليفة، ص 204). ويتمثّل هذا الأخير عند "فاطمة" في ترقّب الإصابة بمرض الإيدز. وكأنّ الإصابة بالإيدز هي منبّه يدفعها إلى التّأهّب والاستعداد لمواجهة الخطر أو تجنبّه. لهذا القلق الذي ظهر عندها إذن وظيفة توقّعية (قلق التّوقّع (Angoisse anticipatoire)) وأخرى وقائية من الخطر المستقبلي المهدّد لكيانها النّرجسي.

[23] أظهرت الحالة اهتمامها بتغليم العلاقات (اللّوحة (VII)) لتعبّر عن شدّة التّصورات الجنسية التّي تراودها، ويمكن اعتباره بمثابة تسوية بين الرّغبة في الظّفر بالموضوع الجنسي والدّفاع ضدّ ذلك بفعل تأنيب الضّمير النّاتج عن إقصاء الموضوع المثير للجنس (الزّوج).

في بلورة الصّراع النّفسي الدّاخلي على شكل أركان متضادة ينشّطها الأفراد «راهم يديرواl'amour في التّخبية بصّح النّاس راها تشوف فيهم...بصّح ماشي حاجة كبيرة». ولتفسير هذا الإنشطار بين فرد يفكّر، يستجيب، يتصرّف، وفرد يعاني، يتألّم، يُستنفذ رغم إرادته في هذا النّشاط القهري المتكرّر.

كلّ هذه المعطيات تجعلنا نستنتج في الأخير أنّ الإنتاج الإسقاطي للحالة يندرج في إطار تنظيم حدّي بدفاعات عصابية وسواسية/هستيرية لمحاولة تغطية الصّراع النّفسي المتعلّق بمواضيع الرّغبة التّي تهدّد الكيان النّرجسي.

2. مناقشة فرضيات الدّراسة:

سيتمّ التّطرّق في هذا العنصر إلى حوصلة النّتائج المتوصّل إليها عن طريق الأدوات المعتمدة في الدّراسة، بما في ذلك مناقشة فرضياتها، وذلك على النّحو الآتي:

1.2. مناقشة الفرضية الرّئيسة:

تنصّ الفرضية الرّئيسة على ما يلي: يتميّز التّوظيف النّفسي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري بتنظيم عصابي مع استثمار قهري للواقع من خلال الإنتاج الإسقاطي لاختبار الروشاخ.

لقد بيّن الإنتاج الإسقاطي لكلتا الحالتين مجموعة من المؤشرات تتمثّل فيما يلي:

- إنتاجية فقيرة ذات نوعية جيّدة، إبعاد الإثارات الخارجية والدّاخلية، مع إجابات منتظمة تتنوّع في المحتويات والمحدّدات (شكلية وحركية).

- يتميّز البروتوكول بغلبة الإجابات والتّعاليق ذات خصائص سلبية للمواضيع، بل وحتّى تجمّع الإيجابية والسّلبية منها معا في نفس البروتوكول، ويعتبر ذلك كمؤشّر للإنشطار وغياب حلول التّسوية.

- ارتفاع نسبة الإجابات الشّاملة (G%= 40%، 45%) والجزئية (D%= 35%، 32%) مع ارتباطها بنسبة كافية من الإجابات الشّكلية (F%= 70%، 64%) كتأكيد للرّقابة.

- انخفاض نسبة (F^+ %= 50%) تحت تأثير البروز النّزوي والسّياقات الأوّلية، وهذا ما يطرح حسب كاترين شابير Catherine Chabert خطورة الاختلال الذّهاني.

- لجوء الحالتين إلى المقاومة أو الدّفاع ضدّ النّزوات الجنسية مع كمّية مهمّة من العدوانية بالاعتماد على المحدّدات الشّكلية من جهة، ونسبة مرتفعة من RC (30%، 36%) من جهة أخرى، وهذا ما يعكس حسب كاترين شابير Catherine Chabert أنا جلدي نرجسي (Moi- peau narcissique) يعمل على الوقاية من الأخطار النّزوية الجنسية.

- وجود إجابات من نوع k وظيفية مرتبطة بمحتويات بشرية بدائية محدّدة بوظيفة معيّنة كالمشعوذ، العفاريت... وكأنّ هذه الوظيفة المستحضرة تستبدل التّقمّص الجنسي.

- وجود إجابات من نوع k نرجسية على شكل مرآتية تفاعلية تتضمّن الفعل (زوج مشعوذين يديرو السّحور، زوج عفاريت يدراقو في بعضاهم، زوج أشخاص يرقصان، زوج يبغو بعضاهم)، حيث تهدف هذه العلاقة المرآتية (Relation miroir) إلى تجنّب الصّراع بين الرّغبة والدّفاع. ويمكن تفسير هذا النّوع من الإجابات بعدم تحمّل الحالتين أن تتشّطا من طرف الآخر، لأنّ الاعتراف بحركة الآخر يعني عجزهما، وهو ما جعل الحركة في بعض الأحيان مدفوعة من الخارج (زوج كلاب متضاربين... متعاركين)، كما يظهر في بروتوكول "ملاك".

- وجود محتويات تتعلّق بالأغلفة الحاوية وهي من نوع: "جلد، عمامة، عكّاز، عمود، مخالب، حرباء" كمحاولة لبناء حاجز صلب يفصل بين الدّاخل والخارج (Dedans et dehors) تهدف في مجملها إلى حماية الجسد والذّات.

- غياب الاستجابات اللّونية (باستثناء إجابة واحدة من نوع FC في بروتوكول الحالة الثّانية من أجل الاحتفاظ بالرّقابة) في اللّوحات الملوّنة يدلّ على بروتوكول صلب.

- كلّ الإجابات ذات المحتوى الإنساني (H) في بروتوكول الحالة الأولى "ملاك" غير معرّفة ولا تنتمي إلى جنس محدّد: (زوج أشخاص، شخص...) ويهدف ذلك إلى كفّ إرصان الصّراع النّزوي وقلق الإخصاء عن طريق رفض الاختلافات الجنسية من أجل تجميد الحركات النّزوية. أمّا فيما يخصّ بروتوكول الحالة الثّانية "فاطمة" فيبدو هذا التّجميد من خلال غياب كلّي للمحتوى للإنساني بهدف رفض الأصل الدّاخلي للنّزوة.

- ظهور الاستجابات من نوع Dbl (10%، 9%) يذكّر بالإخصاء، كما يذكّر الفراغ بالنّقص والهشاشة.

- حضور دائم تقريبا لمؤشّرات القلق في عبارات حاملة للتّعارض تبعث إلى نظرة انشطارية (ابيض/كحل، شر/خير، ما عجبتنيش/ عجبتني، يرفرف/ يرخي...).

- دفاعات نفسية متنوّعة (تكوين عكسي، عزل، نفي، مواظبة، انشطار، فشل الكبت، تقمّص إسقاطي...) وهي تثير التّنظيم الحدّي.

كلّ هذه النّتائج **لا تؤكّد تحقّق الفرضية الرّئيسة التّي تنصّ على وجود تنظيم عصابي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري مع استثمار قهري للواقع من خلال الإنتاج الإسقاطي لاختبار الروشاخ.** حيث أظهر الفحص الإسقاطي لكلتا الحالتين تنظيم حدّي تلجأ من خلاله إلى استثمار الواقع بصفة قهرية بهدف إقامة حدود خاصّة بين العالم الدّاخلي والخارجي وكذلك تجنّب الصّراع النّفسي الدّاخلي، وقد كشف هذا الاستثمار عن إشكاليات هامّة (جنسية) تتعلّق بعالمهما الدّاخلي وتجعل الحدود بين العالمين هشّة و"مسامية" (Porisité des limites). فاختبار الروشاخ كما تقول شابير Chabert (2012, p. 13) هو بالدّرجة الأولى اختبار للحدود بين العالم الدّاخلي والعالم الخارجي، وبين الفرد والموضوع (Sujet/ Objet) في إطار تصوّر الذّات والاستثمار النّرجسي.

وفي هذا السّياق كشف اختبار الروشاخ مع الحالتين عن توظيف نفسي تميّز بنظام دفاعي خاصّ يهدف إلى تغطية النّقائص الدّاخلية عن طريق الاستثمار المفرط للحدود كمحاولة لبناء حاجز يعرقل التّفاوض بين الدّاخل والخارج، وهذا ما يدلّ على التّنظيم الحدّي.

يؤكّد الفقر الإستهامي الذي ظهر عند الحالتين هذا التّنظيم، ويمكن أن يعود ذلك إلى تعطّل وظيفة "ما قبل الشّعور" (Une défaillance du préconscient)، حيث يعتبر بيار مارتي Pierre Marty ما قبل الشّعور بمثابة "المرشح" (Le filtre) الذي يسمح بمجموعة من التّداعيات (Une série d' associations) من شأنها أن تُحوّل النّزوات وتجعلها قابلة للتّعبير (Exprimables) (Kienberger, 2001).

هذه الفرضية تحقّقت إسقاطيا مع الحالتين من خلال اختبار الروشاخ. أمّا عياديا (من خلال المقابلة العيادية) فلم تتحقّق مع الحالة الأولى (ملاك)، وهذا ما يجعلنا نتساءل عن الأبعاد التّي لم يظهر من خلالها التّنظيم الحدّي عندها.

لقد عبّرت "ملاك" في المقابلة العيادية عن معاناتها النّفسية بطريقة كشفت عن وجود تنظيم عصابي وسواسي نمطي (Typique)، ولو التقت كلتا الوضعيتان (العيادية والإسقاطية) في الإشكالية العامّة لـــ "ملاك" والمتمثّلة في مخلّفات ثقيلة لتصورات دينية وجنسية أرهقت "أناها" وجعلتها تعيش تحت وطأة الأنا الأعلى، وهو ما أدّى إلى استثمار قهري للواقع المهدّد والمؤلم، إلّا أنّ المقابلة العيادية كشفت عن تنظيم نفسي يختلف عن ذلك الذي ظهر من خلال إنتاجها الإسقاطي. قد يكون ذلك نتيجة لتأثير الكبت (L'effet du refoulement) والمراقبة (Le contrôle). فهذان الأخيران ينشطان أثناء الوضعية العيادية خصوصا أمام الحضور الفعلي والدّائم للمختصّ النّفسي (الفاحص)، ولعلّ هذا ما جعل الحالة تحافظ على مسافتها مع الباحثة (الفاحصة) من خلال الكبت والتّحفّظ والمراقبة، وقد يرجع ذلك إلى أنّها تواجه شكلا "خاصّا" من العلاقة مع الفاحصة التّي قام بترميز (Symboliser) واقعها الخارجي. فبالرّغم من أنّ المقابلة العيادية تبقى التّقنية الأساسية التّي تُبنى عليها كل السّيرورة العيادية والأداة الأولى التّي تسبق كلّ الأدوات الأخرى، إلاّ أنّها تطرح خصوصية حقيقية تبدأ من الخصوصية النّفسية للمفحوص وتنتهي إلى البعد العلائقي (فاحص/مفحوص) الذي تحمله. وعلى هذا الأساس يمكننا القول أنّ هذه الخصوصية أثقلت التّوظيف النّفسي للحالة، فما هو مؤكّد أنّ العناصر السّابقة (تأثير الكبت، المراقبة، التّحفّظ الكلامي، الحضور الدّائم للمختصّ...) لا تخلو من أي تأثير على التّعبير التّلقائي والحرّ، ولا تسمح بتقديم محتوى صادق وصريح لتصوّراتها وأفكارها الوسواسية، بل وحتّى عدم البوح بالكثير من الوساوس لاسيما الجنسية والدّينية منها، وهي وساوس تخضع لاعتبارات دينية وأخلاقية خاصّة لدى مجتمع مسلم، كونها من الطّابوهات التي يتجنّب الفرد في الكثير من الحالات البوح بها ويعتبرها منافية لسلم الأخلاق ومعارضة لقيم المجتمع. بل حتّى وأنّ الإدلاء بهذه الوساوس التّي تبقى تافهة وفي نفس الوقت غير مقبولة قد يؤدّي إلى نعتها في مجتمع مسلم ومحافظ بأنّها "مجنونة" (ذهانية)، وهذا ما صرّحت لنا به أثناء المقابلة العيادية: « نخاف نقولهم قاع واش راني نعاني يحسبوني مهبولة». هذه الخصوصية الثّقافية والدّينية التّي يأخذها المجتمع الذي تعيش فيه "ملاك" قامت بحماية (Elle a protégé) توظيفها النّفسي فلم يظهر في تنظيمه الحدّي.

فلا مناص من القول أنّ الوسواس القهري اضطراب موجود في جميع المجتمعات والثّقافات، وإذا كان هناك تشابه كبير في توزيع الجنس وسنّ البدء والاضطراب المرافق (La comorbidité)، وإذا كان هناك ملايين من المصابين في جميع أنحاء العالم يتشابهون في الأعراض (التّحقّق، الغسل، التّرتيب، الصور الجنسية...) حسب ما ورد في Dsm5 (APA, 2015, p. 281)، إلّا أنّه وفي المقابل توجد اختلافات بيئية في التّعبير عن هذه الأعراض ولو كانت متشابهة، كما يمكن للعوامل الثّقافية أن تغيّر بشكل كبير محتوى الوساوس والأفعال القهرية.

على عكس الوضعية العيادية، تضعف المراقبة ويفشل الكبت (L'échec du refoulement) أثناء الوضعية الإسقاطية، وهو ما يجعل الحياة النّفسية اللّاشعورية تظهر بصفة شفّافة، وذلك انطلاقا من أنّ بقع الاختبار لا يضبطها أيّ قانون اجتماعي أو ثقافي أو ديني، فممّا لا شكّ فيه أنّ عدم دراية الحالة بطريقة تصحيح الاختبار، وخاصّية الغموض التّي تحملها البقع، يساهمان في خلق بعد علائقي جديد بين الحالة والباحثة (فاحص/ مفحوص)، يسمح بإثارة العمليات النّفسية خلال اجتياز الاختبار، وهو ما يفسح المجال لعدد معيّن من الإجابات تسمح بالوصول إلى المحتويات اللاّشعورية والسّيرورات النّفسية التّي لا يمكن للفاحص الوصول إليها عن طريق الملاحظة أو المقابلة العيادية، ومنه تحقيق فحص نوعي معمّق لا يقوم على وصف صور مترابطة من خلال مبدأ الإدراك فحسب، وإنّما أيضا وفي نفس الوقت على مبدأ الإسقاط (الاستهامات، العلاقة بالمواضيع الدّاخلية والخارجية، العاطفة المرافقة للإجابات...) وهذا ما يجعله يلمّ بجميع الجوانب الأساسية للشّخصية (نفسية، جنسية، اجتماعية، انفعالية...).

ومن هذا المنطلق، يجعلنا كبت التّصورات الجنسية والدّينية والتّأنيب القويّ الذي ظهر عند "ملاك" أثناء الوضعية العيادية، نلغي "نسبيا" الطّبيعة والأسس العصابية لهذا الكبت، فما هو مكبوت عندها يبقى مكبوتا على نمط نرجسي بعيدا عن الكبت العصابي، وهذا ما يبدو في الوضعية الإسقاطية من خلال حساسيتها الجنسية تجاه الصّورة الذّكرية المغطّاة بالأغلفة الحاوية والحدود «زوج أشخاص يرقصان ملتصقان ظهر للظّهر ودايرين عمامة فوق راسهم»، مع تغطية النّزوة الجنسية أحيانا بتدخّل النّزوة العدوانية كما يظهر في الإجابة الثّانية من اللّوحة

(VIII) «عضو ذكري صلب». نذكّر أيضا أنّ صعوبة قول كلمة "لا" عند "ملاك" يعتبر من خصائص التّنظيم الحدّي، لأنّ التّلفّظ بذلك قد يسبّب غضب الآخر وفقدانه.

وعلى هذا الأساس، نستطيع القول أنّ معنى "الأمّ الميّتة" الذي تمّ الكشف عنه في إطار المقابلة العيادية مع "ملاك" يأخذ معنى "عقدة الأمّ الميّتة" (Complexe de la mère morte) الذي اقترحه أندري غرين André Green (1980) كمعنى أساسي ونموذجي لإشكالية فقدان الموضوع (La perte d'objet) في التّنظيم الحدّي، والذّي يشير إلى التّمزّقات والثّغرات النّفسية (Trous psychiques) النّاجمة عن سوء الاستثمار الأمومي (Désinvestissement maternel).

عموما لا يؤكّد الإنتاج الإسقاطي للحالتين تحقّق الفرضية الرّئيسة ، حيث يتميّز التّوظيف النّفسي للحالتين بتنظيم حدّي بدفاعات عصابية وسواسية، تحاول من خلالها تغطية الصّراع النّفسي المتعلّق بمواضيع الرّغبة التّي تهدّد كيانها النّرجسي. وفي هذا الإطار نجد ف. جامي Jeammet. Ph قد ناقش فرضية العصاب الوسواسي كدفاع ضدّ الذّهان في إطار ما أسماه بـــ "جنون إيروس" الذي يشير به إلى تسمية "جنون الشّك" و"هذيانات المس" مفسّرا إيّاها بجنون قرب المحارم المتعلّقة بهاجس العلاقة التّكافئية بين الأمّ والابن (سي موسي وبن خليفة، 2010، ص72). وبالنّسبة للحالتين كانت الهوامات الجنسية والمحارمية (قرب المحارم) حاضرة ومكتسحة بقوّة نتيجة فشل الكبت، وهو ما يؤدّي إلى استثمار مضاد للفكر لمقاومة الإثارة والقلق النّاجم عن تلك الهوامات.

وفي وجهة نظر مشابهة، وانطلاقا من تطويره لمفهوم الشّرجية الأولى (L'analité primaire)، أكّد أندري غرين André Green على الوجه الوسواسي المتشدّد الذي تسيّره هذه الشّرجية، إلى درجة يمكن فيها الاقتراب من الشّكل الطّبعي البارانووي (Paranoïaque) الذي يكمن وراء ذلك التّشدّد الوسواسي، حيث يحدث نوع من الانحطاط والتّقهقر من تغليم الفكر الذي يحرّكه الميل إلى الاحتفاظ بالوسواس إلى تغليم مضاد للفكر (Anti-pensée) وذلك من خلال الرّغبة في التّخلّص من الموضوع المقيّد والقامع للّيبيدو (Green, 1983, p. 194) في مرحلة تسود فيها النّرجسية، وهنا يحدث الاستثمار الصّراعي للفكر بصفة مفرطة على شكل تفكير بارانووي (Paranoïaque) يزيد من شدّة التّأنيب الوسواسي، لكن دون أن يصل إلى الذّهان (Green, 1983, pp. 78, 86).

وفي ذات الاتّجاه، وانطلاقا من فكرة "الممنوع المزدوج للّمس" (Double interdit du toucher) لديدي أنزيو Didier Anzieu، يرى سي موسي وبن خليفة (2010، ص73) أنّه كلّما اقتربت الهجاسية (الوسواسية) من المستوى الأوّل للممنوع كلّما كانت تلك الهجاسية شديدة وتقترب من الحالات الحدّية أو من الذّهان.

تُعيننا وجهات النّظر هذه على فهم هذا التّنظيم الذي تميّز به التّوظيف النّفسي لدى الحالتين كدفاع ضدّ الذّهان. وبالاعتماد على الميتاسيكولوجية الفرودية في إطار الصّراع الأوديبي وقلق الإخصاء يمكننا الوصول إلى الفهم السّيكودينامي لهاته الحالتين، حيث تستدعي هذه الأخيرة عدّة ملاحظات أهمّها أنّه يمكن لبعض المرضى مقاومة "الكسر الذّهاني" (La fracture psychotique) بنمط عصابي، ولعلّ حالات الذّهان الهستيري (La psychose hystérique) خير مثال على ذلك، حيث ترتكز المواضيع الهذيانية على مادّة استهامية (Un matériel fantasmatique) أوديبية بشكل صريح.

يذكّرنا هذا التّنظيم النّفسي الذي ظهر عند "ملاك" و "فاطمة" بالحالة "س. م"، احدى الحالات التّي يصفها ب. بن سماعيل[24] بـــ"الغنيّة والمعقّدة جدّا " (Très riche et très complexe) لأنّها تثير مجموعة من التّساؤلات والتّعليقات على مستوى التّشخيص العيادي السّيكوباتولوجي. فيتساءل إذا كان الأمر يتعلّق بعصاب وسواسي خطير أم بمتلازمة عصابية وسواسية عرضية لسيرورة ذهانية فصامية؟ (Syndrome névrotique obsessionnel symptomatique d'un processus psychotique schizophrénique)، وقد انتهى في الأخير إلى تأييد جدلية جون بارجوري Jean Bergeret التي تقول بأنّ: "الوسواس القهري هو بوّابة الإصابة بالذّهانات". ومن جهة أخرى يقول هانوس ولويس Hanus et Louis (2010, p. 159) من منظور يوافق هذا الرّأي أنّ الوسواس القهري هو أحد الاضطرابات المتمرّدة (Rebelles) المعرّضة دائما إلى الإصابة

[24] بروفيسور في الطّب العقلي وعلم النّفس الطبّي، وطبيب رئيس في العيادة الجامعية للطب العقلي (C.H.U) بقسنطينة (الجزائر)، يرتكز بحثه (Castration et morcellement, ou la mort symbolique comme dernier recours) على مراقبته لحالة سريرية " س.م" (أستاذ في الطّور الابتدائي ،28 سنة) تعاني من وسواس قهري (وساوس عدوانية: أفكار ثابتة تتمثل في الخوف من فقدان سيطرته وضرب تلاميذه)، وبعد أسابيع تحوّلت وساوسه وأصبحت عدوانية ذاتية، وصلت إلى المرور إلى الفعل (Le passage à l'acte) في شكل ضربات وجروح في العينين، الوجه، والبطن. إدراك الفعل العدواني الذّاتي كان مصحوبا بالرّاحة ثمّ بالنّدم.

بالذّهان، فهي تواجه باستمرار "الموعد النّهائي" للذّهان (L'échéance psychotique) دون الوصول إليه. وهذا ما يطرح فرضية التّنظيم الحدّي.

وبناء على الآراء السّابقة يمكننا القول أنّ التّوظيف النّفسي لحالتي الدّراسة يتميّز بتنظيم حدّي للدّفاع بـــ "مثابرة" ضدّ الذّهان.

2.2. مناقشة الفرضية الجزئية الأولى:

تنصّ الفرضية الجزئية الأولى على ما يلي: يتميّز التّنظيم العصابي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري بصعوبة الإعداد النفسي للصّراع النّفسي الدّاخلي من خلال الإنتاج الإسقاطي لاختبار الروشاخ.

عدم تحقّق الفرضية الرّئيسة **لا يؤدّي حتما إلى تحقّق الفرضية الجزئية الأولى**. حيث سلك الإنتاج الإسقاطي للحالتين بتوظيفهما النّفسي وجهة سيكوباتولوجية نحو توظيف حدّي بدفاعات عصابية وسواسية لم تسمح لهما بالإعداد النّفسي للصّراع النّفسي الدّاخلي ولقلق الإخصاء.

3.2. مناقشة الفرضية الجزئية الثّانية:

تنصّ الفرضية الجزئية الثّانية على ما يلي: يتميّز الاستثمار القهري لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري بالمراقبة الصّلبة للواقع المهدّد من خلال الإنتاج الإسقاطي لاختبار الروشاخ.

كشف الإنتاج الإسقاطي للحالتين عن مجموعة من المؤشرات نوردها في ما يلي:

- إنتاجية لفظية فقيرة (أقلّ من 30 إجابة) مع زمن رجع طويل (أكثر من 10 ثواني) وتدوير اللّوحات وانتقاذ بعضها، وهذا يدلّ على أنّ الحالتين قد عاشتا اختبار الروشاخ كواقع مُهدّد.
- التّفصيل والميل إلى الوصف الدّقيق مع ارتفاع نسبة التّفاصيل النّادرة Dd.
- استجابات ذات مضامين رهابية واكتئابية يصعب السّيطرة عليها نتيجة الحساسية من اللّوحات الحمراء.
- ظهور صدمة الألوان: صدمة اللّون الأحمر والأسود.
- استجابات حيوانية مرتفعة (A% مرتفع) تدلّ على نمطية التّفكير.
- تكرار المضامين المهدّدة.

كلّ هذه النّتائج **تؤكّد تحقّق الفرضية الجزئية الثّانية**. ففي إطار التّنظيم الحدّي الذي تمّ الكشف عنه من خلال اختبار الروشاخ، تميّز الاستثمار القهري لدى الحالتين بمراقبة صلبة للواقع المهدّد لكيانها النّرجسي. وفي هذا السّياق وباعتمادها على وجهة النّظر الموقعية الأولى والثّانية، تشرح كاترين شابير Catherine Chabert التّنظيمات الحدّية من حيث سياق الكفّ للصّراع النّفسي الدّاخلي والميل إلى إخراجه أو طرده إلى الخارج. ومن هنا يمكننا الاعتماد على أمراض الإدخال (pathologie d'intériorisation) لشرح اضطراب الوسواس القهري في ظلّ التّنظيم الحدّي عند حالتي الدّراسة، بنقائص مهمّة في الاستثمارات النّرجسية وما كشفت عنه من ميول تدميرية وحتّى نازعة للحياة. ويمكننا تفسير هذه النّقائص في حركة الإدخال من منظور كاترين شابير Catherine Chabert بضعف عملية الانتقال من التّعارض الخارجي بين الرّغبة والرّقابة المانعة لتحقيقها إلى صراع بين أركان الجهاز النّفسي أي بين الهو والأنا الأعلى. وبما أنّ الأنا ليس لديه دعائم أو ركائز داخلية متينة يستند عليها لاحتواء الإثارات الجنسية، فإنّه يلجأ إلى وسائل أخرى لتحقيق النّزوات (سي موسي وبن خليفة، 2010، ص86)، وتتمثّل هذه الوسائل عند حالتينا في الاستثمار القهري للواقع عن طريق سياق الإخراج والفعل القهري. ويمكننا هنا الإستعانة بمصطلح "مسامية الحدود" لشرح هشاشة الأنا (Fragilité du moi) في وظيفته الاحتوائية للعالم الدّاخلي والخارجي وهو ما يجعل الحدود بين الدّاخل والخارج هشّة وغير متينة، أي أنّ المساحة التّي تفصل بينهما نفوذة وذات ثغرات نفسية (Trous psychiques) تمثّل صورة الهوية المسامية (L'identité poreuse) أو الأنا -الجلد المسامي (Moi- peau passoire) حسب مفهوم ديدي أنزيو Didier Anzieu كخاصية مميّزة لهذا التّوظيف النّفسي. أو كذلك الاستعانة بمفهوم "المجال الانتقالي" (Transitionnel) أو الحيّز البيني (Aire intermédiaire) الذي اقترحه وينيكوت Winnicott كفضاء "وسيطي" بين الدّاخل والخارج، والذي يسمح لنا بفهم المعنى والسّياق السّيكوباتولوجي للتوّظيف النّفسي لدى الحالتين. حيث يبقى هذا الأخير عندهما ضعيفا أو غير كافيا لبناء تمايز أو مسافة واضحة بين المواقع النّفسية، الدّاخل والخارج، الفرد والموضوع، الخيال والواقع، القلق العاطفي والمنطق، ممّا يجعل وظائفه في احتواء الصّراع النّفسي وفي معالجة الوساوس والإثارات غير مؤمنّة، وهذا ما يفسح المجال لمراقبة صلبة لواقع مهدّد يتمّ مراقبته بأفعال قهرية تضع نفسها في خدمة الرّغبة كدفاع ضدّ الفعل الممنوع.

وعلى هذا الأساس نقبل الفرضية الجزئية الثّانية ونسلّم بأنّ الاستثمار القهري لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري يتميّز بالمراقبة الصّلبة للواقع المهدّد.

3. استنتاج عام:

لم تتحقّق الفرضية الرّئيسة من خلال هذه الدّراسة التي توصّلت إلى وجود تنظيم حدّي لدى حالتين تعانيان من اضطراب الوسواس القهري، وقد سلك الإنتاج الإسقاطي للبروتوكولين بتوظيفهما النّفسي وجهة سيكوباتولوجية نحو هذا النّمط من التّوظيف النّفسي. يمكن تلخيص أهمّ مميّزاته في ما يلي:

- سجّل صراعي (Registre conflictuel) متمركز بشكل كبير على قلق فقدان موضوع الحبّ: أغلفة مسامية (Enveloppes poreuses)، حدود هشّة بين الدّاخل والخارج، هوية غامضة، غير مستقرّة، غير مدمجة، متناقضة يتّم التعبير عنها بالخوف من الفقدان (La peur de la perte).

- تناقض وجداني يعطي للتّوظيف النّفسي دلالة خاصّة تشير إلى انشطار الأنا مع غياب حلول التّسوية.

- حركات نزوية عدوانية مغرقة في تصورات تدميرية ومهدّدة للكيان النّرجسي.

- تنظيمة دفاعية مرتبطة في الغالب بكبت شبه بنيوي (Quasi structurel) من النّمط النّرجسي بعيدا عن الكبت العصابي يصارع ضد مخاوف الفقدان، مع آليات دفاعية عصابية لا تسمح بالإعداد النّفسي لقلق الإخصاء، وهي تثير التّنظيم الحدّي، مع بعض الخصائص ذات المظهر الهستيري (خاصة الحالة الثّانية) تبدو من خلال التّعبير القويّ عن العواطف وفرط الحساسية تجاه المواضيع غير الآمنة. حيث تكشف هذه الحساسية عن فرط في الاستثمار الفكري والإحساس بالإثارة يتم اختباره كاختراق للأغلفة النّفسية.

ولو أنّ هذه النّتيجة لا تتّفق مع دراسة سي موسي عبد الرحمان وبن خليفة محمود (2010)، إلّا أنّها تلتقي معها في نقطة جوهرية تتمثّل فيما اصطلحا عليه الباحثان بـــ "العصاب الخطير من النّمط الهجاسي" (الوسواسي)، حيث يوضّحان أنّ هذا النّمط من التّوظيف النّفسي حتّى لو كان قريبا من الحالات الحدّية إلّا أنّه يمكن اعتباره كعصابات خاصّة أو حالات حدّية ذات تصنيف انتقالي منتظمة على نمط عصابي (سي موسي وبن خليفة، 2010، ص126).

تعيدنا هذه النّتائج إلى فكرة أساسية مفادها أنّ: إذا كان التّمييز في السّيكوباتولوجيا بين التّوظيف العصابي والتّوظيف الذّهاني يبدو سهلا من خلال الاعتماد على المكوّنات الميتاسيكولوجية الأساسية للتّوظيف النّفسي، إلا أنّ هذه المعايير التي نستمرّ في الاعتماد عليها لا تسمح لنا دائما بتمييز واضح ومؤكّد بين التوظيف العصابي والتّوظيف الحدّي، حيث لاحظنا عند الحالتين تنظيما نفسيّا غامضا، مضطربا، لا سيما عدم تجانس (Hétérogénéité) في التّوظيف النّفسي الذي أخذ مظاهرا (Des allures) منتشرة (Diffuses) وفي نفس الوقت معقّدة.

لا تتّفق نتائج هذه الدّراسة مع دراسة كاتررين شابير Catherine Chabert (2012)، حيث توصّلت هذه الأخيرة إلى وجود تنظيم عصابي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري من خلال اختبار الروشاخ، وفي هذا السّياق أشارت دراسة عدوان (2012)، ودراسة منصوري نفيسة وكبداني خديجة (2017) إلى وجود اختلاف في نتائج الروشاخ بما يتناسب مع الثّقافة الجزائرية مقارنة بالنّتائج الفرنسية بصفة خاصّة والغربية بصفة عامّة، وهو ما توصّلت إليه الدّراسة الحالية.

الخـــــاتمة

الخاتمـــــــــــــــــــة

تناولت الدّراسة الحالية موضوع سيكوباتولوجية التّوظيف النّفسي والإنتاج الإسقاطي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري من خلال اختبار الروشاخ. وقد كشفت عن تنظيم حدّي لدى حالتين راشدتين تعانيان من اضطراب الوسواس القهري.

بالرّغم من اختلاف نتائج هذه الدّراسة مع الدّراسات السّابقة والدّراسات النّظرية للوسواس القهري في المجال السّيكوباتولوجي والتّحليل النّفسي، إلّا أنّ كلّ ما نريد التّأكيد عليه من خلال الدّراسة الحالية هو أنّ دراسة الحالة تبقى دراسة فريدة من نوعها لا تفيد المقارنة ولا التّعميم. هذا بالإضافة إلى أنّ مبدأ الثّبات النّسبي للعلم يقتضي أنّ الحقائق العلمية تبقى قابلة للتّغيير والتّعديل تارة وللتّجديد والتّبديل تارة أخرى، ذلك أنّ قيمة البحث العلمي لا تكمن في تراكميته واتّفاق السّواد الأعظم من الباحثين عليه بقدر ما تكمن في دقّته ومدى وصوله إلى تفسير الظّواهر تفسيرا كما هي عليه بعيدا عن كلّ ذاتية وتحيّز. لذلك يبقى التّجديد هو نهج العلماء وشريعة الباحثين من أهل الموضوعية والثّبات على المنهج العلمي الصّحيح.

وإذا كان هذا حال الظّواهر الطّبيعية التّي تخضع لقوانين ثابتة بعيدة عن أي تدخّل للذّات البشرية، فما بالك بالظّواهر النّفسية التّي تخضع لسياقات مختلفة ثقافية، دينية، اجتماعية وغيرها؟ كما تتدخّل فيها عوامل عاطفية ومزاجية خاصّة بكلّ حالة تتقلّب بين الحين والآخر. وهذا ما يفرض أنّ عمليّة تجديد المعارف أمرا أكثر حدوثا مقارنة بالظّواهر الطّبيعية والفيزيائية، وما توصّلت إليه الباحثة في هذه الدّراسة يعكس بصورة واضحة ذلك المبدأ.

وبناء على ذلك، ولأنّ الصّحّة النّفسية والعقلية لأيّ فرد متعلّقة بدرجة كبيرة ومباشرة بسياقه الثّقافي والاجتماعي والدّيني... لا يمكننا التّغاضي عن مثل هذه السّياقات. فالخصوصية الثّقافية والدّينية للمجتمع الجزائري من شأنها أن تشكّل خصوصية نفسية لدى الفرد الجزائري المصاب باضطراب الوسواس القهري، فمفهوم الإله مثلا أو مفهوم الجنس لا يحمل نفس المفهوم في المجتمع الغربي أو حتّى في مجتمع عربي آخر، بل قد يختلف حتّى من فرد إلى آخر من نفس المجتمع. وهذا ما عبّر عنه سيجموند فرويد Sigmund Freud بـــ " الشّعور بالضّيق في الثّقافة" (Malaise de la culture) الذي يستمدّ وجوده من الضّمير الأخلاقي (La conscience

morale) "الفردي" ومن تشكّل الأنا الأعلى الوريث الشّرعي لعقدة الأوديب (Chabert, 2008, p.07) الذي يضمن احترام الطّابوهات والمعايير الأخلاقية. فكما لو أنّ سيجموند فرويد Sigmund Freud يشير من خلال هذا المفهوم "Malaise de la culture " إلى حتمية تفرّد النّفس البشرية دون تعميمها. يعني هذا أنّ المعرفة العيادية ليست معرفة ثابتة ومطلقة مادام أنّ الخصوصية الثّقافية لأي مجتمع تفرض نفسها في الجانب العيادي الدّيناميكي للتّوظيف النّفسي الخاصّ بكلّ حالة.

لا يعني ذلك الاستغناء عن النّظريات والدّراسات الغربية التّي تساعد بلا شكّ في فهم الحياة النّفسية ووضع فرضيات تشخيصية أوّلية، لكن ولابدّ من توظيفها في محلّها الدّقيق وبصفة موضوعية، لأنّ التجوّل بين الثّقافتين وبين نماذج التّوظيف النّفسي في كليهما تُعد مثمرة ومفيدة في تطوير الممارسة العيادية. فمن غير الممكن أن نفهم التّوظيف النّفسي لأي فرد ما لم نأخذ في الحسبان البيئة الثّقافية والنّظرية العلمية التّي تفرزها هذه البيئة، هذه الأخيرة ضرورية لصياغة أي علاقة مصاب– عرض نفسي في منظومة التّشخيص النّفسي العيادي والسّيكوباتولوجي، وإلاّ كانت النّتائج مجرد إسقاط نظريات نفسية على هيكل جسدي وفق طريقة آلية ميكانيكية تشوبها الكثير من المغالطات وبعيدة عن الواقع الحيّ للفرد.

يبقى لنا في الأخير أن نذكّر أنّ التّوظيف النّفسي ليس نموذجا عالميا (Universelle) بقدر ما هو نظام خاصّ بفرد متواجد في مكان وزمان محدّد. فأيّ مصاب باضطراب وسواس قهري ومصاب آخر باضطراب وسواس قهري حتّى ولو كانا من نفس السّجل العيادي، إلّا أنّهما مختلفان في شخصهما وتاريخهما وثقافتهما وبيئتهما التّي ترعرعا فيها، فكلّ حالة هي حالة خاصّة، وكلّ فرد توجد وراءه "حزمة ضخمة" (Un immense faisceau) من الظّروف والأحداث النّفسية والعوامل الثّقافية والبيئية الخاصّة التّي تتكاثف وتلتقي نحو "اليوم" (Vers aujourd'hui) أي نحو اللّحظة التّي يقول فيها "أنا مريض" (Daco, 1973, p. 293).

وبناء على ما سبق، نستنتج أن موضوع سيكوباتولوجية التّوظيف النّفسي والإنتاج الإسقاطي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري من خلال اختبار الروشاخ، وبالتّحديد في الجزائر لاسيما في البيئة المحلّية، هو موضوع جدير بالدّراسة الأكاديمية، فمن منطلق التّخصّص الأكاديمي للباحثة وإيمانا بخصوصية دراسة الحالة وبفائدة التّشخيص السّيكوباتولوجي الإسقاطي

عرضنا لدراسته وحاولنا جهدنا الكشف عن الواقع النّفسي والمعاناة العميقة لدى المصاب بهذا الاضطراب بصورة موضوعية مكثّفة ومختزلة في آن واحد من خلال اختبار الروشاخ.

الاقتراحـــات

الاقتـــــــــــراحات

بناء على ما أسفرت عنه الدّراسة من نتائج، تمّ إدراج الاقتراحات التّالية:

- إجراء مزيد من الدّراسات المشابهة للبحث في استمرارية "جدلية توظيف وسواسي/ تنظيم حدّي".

- دراسة سيكوباتولوجية التّوظيف النّفسي والإنتاج الإسقاطي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري باستخدام اختبار TAT كأداة مكمّلة لاختبار الروشاخ. وذلك لأنّ اختبار TAT يعتمد على السّرد من خلال التّعليمة "إحكي" أو "تخيّل"، وسيقدّم بذلك إنتاجا إسقاطيا أبعد من ما يقدّمه اختبار الروشاخ. وعليه ستقدّم هذه الخاصية إسهاما رئيسا في لمس البعد الثّقافي وحتّى الدّيني الذي لا يسمح في كثير من الأحيان بالبوح عن كثير من الوساوس أثناء الوضعية العيادية. منح المصاب باضطراب الوسواس القهري فرصة سرد القصّة التّي تحمل دلالة سيكوباتولوجية، ستمكّنه من التّعبير ومن احتواء انشغالاته الوسواسية (الدّينية والجنسية خاصّة). ومن هذا المنطلق فإنّ استعمال الاختبارين سيسمح دون شكّ بتوفير حركة دينامية أثناء الفحص الإسقاطي، وهذا ما سيمكّن في الأخير من الحصول على صورة فوتوغرافية شاملة للتّوظيف النّفسي لدى المصاب باضطراب الوسواس القهري.

- القيام بدراسات حول المعايير النّفس-لسانية (Psycholinguistiques) للمفردات المتداولة ثقافيا بين المصابين باضطراب الوسواس القهري، وتصنيف هذه المفردات باللّغة العربية "الدّارجة" من منظار البعد الثّقافي. فمثلا بهذه الصّيغة المشتركة التّي تعكس كبتا ثقافيا: «الله غالب عليّا» ، يتمّ تبرير عددا كبيرا من السّلوكيات القهرية. ومع ذلك لا بدّ من تحديد هو هذا "الغالِب"؟ أو ما هو هذا "الشّيء الأقوى"؟ الذّي يتجاوز قوّة وسيطرة الأنا ضمن حلقة مفرغة أين يصبح الفرد متفرِّجا سلبيا (Passif) لنشاط يتمّ توليده ذاتيا. ثمّ هل هذه الصّيغة لها دلالة سيكوباتولوجية تعني الكبت؟ أم التّبرير؟ أم التّجنّب اللّاشعوري؟... كذلك مفهوم "اللّه غالب" لا يمكن فهمه إلا من خلال استدخاله نفسيا. هذا بالإضافة إلى بعض المفردات الأخرى التي تندرج ضمن "ثقافة الطّابو" مثل: "عيب"،"عار"، "جنس"،... والتّي تقترن في غالب الأحيان بمفهوم "الحلال" و"الحرام" في ثقافة المجتمع الجزائري.

- القيام بدراسات نفسية-ثقافية (Psycho-culturelles) حول أسس الاضطرابات النّفسية التّي لا نجدها تتّفق مع الدّراسات النّظرية، وذلك من أجل قراءة ثقافية عيادية للحالة.

- بناء على الإتّجاه الحديث لوظيفة الجامعة ونقصد بها الوظيفة الثّالثة التي تتمثّل في تطبيق المعرفة لخدمة المجمتع، لابدّ من التّركيز في عروض التّكوين على المقاييس التّطبيقية (الفحص النّفسي، دراسة الحالة، الاختبارات النّفسية واختبارات الشّخصية...) لتحسين مستوى طلبة علم النّفس العيادي في التّحكّم فيها لأنّها مقاييس جدّ ضرورية ومهمّة في عملية التّشخيص النّفسي. مع التّركيز على الجانب التّطبيقي بزيادة عدد السّاعات أسبوعيا في تعلّم كيفية تطبيق الإختبارات الإسقاطية في التّشخيص السّيكوباتلوجي، لأنّ هذه الأخيرة تمثّل جزءا كبيرا من هوية المختصّ النّفسي العيادي التّي تميّزه عن هوية طبيب الأمراض العقلية أو أي مختصّ نفسي في مجال آخر. خاصّة وأنّ تطبيق هذه الاختبارات على غرار اختبار الروشاخ، يعتبر من أهمّ نقاط الضّعف عند طلبة علم النفس العيادي، وهذا ما يبدو لنا جلّيا من خلال تقارير تربّص الطّلبة، حيث أنّ معظمهم ليس لديهم معرفة نظرية كافية أو تحكّم في استخدام هذا النّوع من الإختبارات النّفسية.

قائمـــــة

المراجــع والمصــادر

أولا: المراجع والمصادر العربية

بن خليفة، محمود (2007). **علم النفس المرضي والتقنيات الإسقاطية، دراسة نماذج التوظيف النفسي لدى راشدين ذوي معاناة نفسية -**(رسالة لنيل شهادة دكتوراه دولة غير منشورة). كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة الجزائر، الجزائر.

بوقفة، إيمان (2020). **فعالية العلاج بالتقبل والالتزام في التخفيف من أعراض الوسواس القهري** (رسالة لنيل شهادة دكتوراه في علم النفس العيادي غير منشورة)، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باتنة 1، الجزائر.

جبار، شهيدة (2016). **الزمن الذاتي لدى المكتئب الحصري اسهامات اختبار الروشاخ وال TAT مقاربة سيكوديناميكية** (رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في علم النفس العيادي وعلم النفس المرضي غير منشورة)، جامعة وهران، الجزائر، جامعة باريس ديكارت، باريس، فرنسا.

جعدوني، زهراء (2011). **الاعتداء الجنسي، دراسة سيكوباتولوجية للتوظيف النفسي للمعتدي الجنسي** (رسالة لنيل شهادة دكتوراه في علم النفس العيادي والمرضي غير منشورة)، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، الجزائر.

زيوي، عبلة (2009). **إدراك الحدود الجسدية والتوظيف النفسي دراسة حالات** (مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في علم النفس العيادي غير منشورة)، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، الجزائر.

سي موسي، عبد الرحمان؛ وبن خليفة، محمود (2010). **علم النّفس المرضي التّحليلي والإسقاطي، الأنظمة النّفسية ومظاهرها في الاختبارات الإسقاطية**. ط2. الجزء1. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

سي موسي، عبد الرحمان؛ وزقار، رضوان (2015). **العنف الإرهابي ضد الطّفولة والمراهقة، علامات الصّدمة والحداد في الاختبارات الإسقاطية**. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

عباس، فيصل (2001). **الاختبارات الإسقاطية نظرياتها، تقنياتها، إجراءاتها**. بيروت. لبنان: دار المنهل اللبناني.

عبد الخالق، أحمد محمد (2002). **الوسواس القهري التّشخيص والعلاج**. الكويت: مجلس النّشر العلمي بجامعة الكويت.

عبد الله، إيمان الصادق (2016). **الدلالات التشخيصية لاختبار بقع الحبر لدى مرضى الوسواس القهري والاكتئاب بمستشفى التجاني الماحي** (رسالة لنيل شهادة دكتوراه الفلسفة في علم النّفس غير منشورة)، كلية الدراسات العليا، جامعة النيلين، السّودان.

عدوان، يوسف (2012). **دلالات استجابات الروشاخ في البيئة الجزائرية** (أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في علم النفس العيادي غير منشورة)، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر.

عدوان، يوسف (2015). الاستجابات المألوفة والأصلية في اختبار بقع الحبر واضطراب القلق. **مجلة رابطة الأخصائيين النّفسيين (رانم)**، الجزائر، (115)، 20- 50.

فاسي، آمال (2011). **الاكتئاب الأساسي لدى مريض السرطان كنشاط عقلي مميز** (مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم النفس العيادي غير منشورة)، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر

فرويد، سيجموند (1982). **الأنا والهو**. ط4، ترجمة نجاتي، محمد نجاتي. بيروت، لبنان: دار الشروق.

فرويد، سيجموند (1994). **تفسير الأحلام**. ترجمة صفوان، مصطفى زيور. القاهرة، مصر: دار المعارف.

فرويد، سيجموند (1994). **حياتي والتّحليل النّفسي**. ترجمة زيور، عبد المنعم المليجي. الإسكندرية، مصر: دار المعارف.

الفزارية، منال وآخرون (2017). الوسواس القهري لدى طلبة جامعة السلطان قابوس. **مجلة الدراسات التربوية والنفسية**. جامعة السلطان قابوس، عمان، الأردن، 11 (02)، 297- 314.

فلاحي، كريمة (2017). العينات وطرائق المعاينة في العلوم الإجتماعية. في: عيشور نادية وآخرون. **منهجية البحث العلمي في العلوم الاجتماعية**. الجزائر: مؤسسة حسين راس الجبل للنّشر.

لحمر، فضيلة (2017). **التوظيف النفسي للجلد لدى الراشد المصاب بالسرطان –دراسة عيادية من خلال اختباري الروشاخ وتفهم الموضوع T.A.T** (رسالة لنيل شهادة الدكتوراه (ل م د) في علم النفس المرضي للرّاشد غير منشورة)، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر.

لرينونة، محمد يزيد (2015). **أسس علم النفس**. الجزائر: جسور للنشر والتوزيع.

مجمع اللغة العربية (1985). **المعجم الوسيط**. الجزء2. القاهرة، مصر: مجمع اللّغة العربية.

منصوري، نفيسة؛ وكبداني، خديجة (2017). أثر البعد الثّقافي في الاستجابات لاختبار الروشاخ وفي تفسير نتائجه، دراسة ميدانية لأربعين طالبا من جامعات بمدينة وهران –الجزائر -مع المقارنة في التحليل بين القراءة الغربية وقراءة جزائرية مقترحة **Arabic journal of psychology**، (03)، 105- 118.

منقوشي، فاطمة؛ وكروم، موفق (2021). اضطراب الوسواس القهري في ضوء النّموذج العلاجي المعرفي السّلوكي. **مجلة دفاتر البحوث العلمية**. المركز الجامعي تيبازة، الجزائر، 9 (02)، 271-287.

نحوي، عائشة؛ وبوفج، وسام (2017). التوظيف النفسي لاستراتيجيات مواجهة الضغوط النفسية لدى حالة مريضة بالسكري. **مجلة علوم الإنسان والمجتمع**. جامعة بسكرة، الجزائر، (22)، 251- 282.

الوافي، عبد الرحمن (2013). **مدخل إلى علم النفس**. ط6. الجزائر: دار هومة للطباعة والنّشر والتّوزيع .

ثانيا: المراجع والمصادر الأجنبية

American psychiatric Association, (2004). **DSM-IV-TR**. **Manuel diagnostique et statistique des troubles mentaux**. France: Masson.

American psychiatric Association, (2015). **DSM-5**. **Manuel diagnostique et statistique des troubles mentaux**. 5ème édition. France: Elsevier Masson.

ANDRONIKOF, Anne (2008). **Le Rorschach et les techniques projectives**. France: Université de Paris: Laboratoire Ipsè.

ANZIIEU, Didier; et CHABERT, Catherine (2015). **Les méthodes projectives**. Présentation De l'édition algérienne par Ait SIDHOUM, Kh.Alger, Algérie : Edition Amerdil/ Creapsy.

ASSOUN, Paul-Laurent (2002). **Leçons psychanalytiques sur l'angoisse**. Paris, France: Edition Anthropos.

BEIZMANN, Cécile (1966). **Livret de cotation des formes dans le Rorschach**. Paris, France: éditions du centre de psychologie appliquée.

BEIZMANN, Cécile (2009). **Livret de cotation des formes dans le Rorschach**. Paris, France: ECPA.

BENSMAIL, B (1993). **La psychiatrie aujourd'hui**. Alger, Algérie: Office des Publications universitaires.

BERGERET, Jean; et al (2008). **Psychologie pathologique théorique et clinique**. Paris, France: Masson.

BONNET, Agnès; et FERNANDEZ, Lydia (2007). **Psychopathologie en 15 fiches, Enfant, adolescent, adulte**. Paris, France : Edition Dunod.

BRUNOT, Chantal (2005). **Névrose obsessionnelle Histoire d'un concept**. Paris, France: Edition L'Harmattan.

BRUSSET, Bernard et al (1996). **La névrose obsessionnelle**. France: Puf

CHABERT, Catherine (1983). **Le Rorschach en clinique adulte, Interprétations psychanalytique**. 2ème édition. Paris, France: Edition Dunod.

CHABERT, Catherine (1997). **Le Rorschach en clinique adulte, Interprétations psychanalytique**. 2ème édition. Paris, France: Edition Dunod.

CHABERT, Catherine (1998). **Psychanalyse et méthodes projectives**. Paris, France: Edition Dunod.

CHABERT, Catherine et al (2008).**Traité de psychopathologie de l'adulte les névroses**. Paris, France: Edition Dunod.

CHABERT, Catherine (2012). **La psychopathologie à l'épreuve du Rorschach**. 3ème édition. Paris, France: Edition Dunod.

CHABERT, Catherine; et Verdon, Benoît (2018). **Psychologie clinique et psychopathologie**. 3ème édition. Paris, France: PUF.

CHAILAND, Collette et al (1983). **L'entretien clinique**. France : PUF.

CHARPEAUD, Thomas et al (2015). **Psychiatrie Pédopsychiatrie Addictologie**. Paris, France: Edition Ellipses.

CHEMAMA, R (1993). **Dictionnaire de la psychanalyse**. France, Paris: Loisirs.

CHOUVIER, Bernard; et ATTIGUI, Patricia (2016). **L'entretien clinique**. 2ème édition. France: Armand Colin.

CLAIR, Anne-Hélène et al. (2016). **Comprendre et traiter Les troubles obsessionnels compulsifs**. Paris, France: Edition Dunod.

CLAIR, Anne-Hélène, TRYBOU, Vincent. (2018). **Se former à la prise en charge des TOC avec les TCC**. France: Edition Malakoff.

COMBALUZIER, Serge (2009). **Introduction à la psychopathologie de l'adulte**. France: Université de Rouen.

COTTRAUX, J (1998) **Les ennemis intérieurs, Obsessions et compulsions**. Paris, France: Edition Dunod.

CUPA, Dominique; et PIRLOT, Gérard (2010). **Approche psychanalytique des troubles psychique**. France: Armand Colin Editeur.

DACCO, Pierre (1973). **Les prodigieuses victoires de la psychologie moderne**. Belgique: Edition Marabout.

De Kernier, Nathalie et al (2019). **30 grandes notions de psychologie clinique et psychopathologie psychanalytique**. France: Edition Dunod.

DJEDID, Rabia (2016). Insight et trouble obsessionnel compulsif, à propos d'un cas. In

revue des sciences de l'homme et de la société. Université de Bejaia. Algérie, (20). 27-52.

FREUD, Sigmund (1967). L'homme aux rats, in cinq psychanalyses, Traduction en français Bonapart, M ; et Loewenstein, M.R. Paris, France: PUF.

FREUD, Sigmund (1973). L'hérédité et l'étiologie des névroses. **In Névroses, psychoses, et perversions**. Paris, France: PUF.

FREUD, Sigmund (1981). **Inhibition, symptôme et angoisse**. 7ème édition. Paris, France: Edition Dunod.

GASMAN, Ivan (2004). **Psychiatrie Pédopsychiatrie Apprentissage de l'exercice médical**. 3ème édition. Paris, France: Editions Vernazobres- Grego.

GHEMMOUR, Hayat (2017). **Vécu socioculturel, fonctionnement psychique et souffrance mentale de 100 femmes algériennes en psychothérapie** *:* Etude descriptive (Thèse pour obtenir le grade de docteur en psychologie clinique), Strasbourg, France, Université de Strasbourg.

GHIGLIONE, Rodolphe; et RICHARD, Jean-François (2007). **Cours de psychologie**. Paris, France: Dunod.

GREEN, André (1964). Névrose obsessionnelle et hystérie, leurs relations chez Freud et depuis, In **revue française de psychanalyse**, vol XXVIII, N° 5-6, 679-720.

GREEN, André (1967). Métapsychologie de la névrose obsessionnelle, In **revue française de psychanalyse**, 4.

GREEN, André (1983). **Narcissisme de vie, narcissisme de mort.** Paris, France: Edition de minuit.

HANS, Michel; et Louis, Olivier (2010). **Psychiatrie pour l'étudiant**. 11ème édition. Paris, France: édition MALOINE.

HUNTER, L (2016). The relationship between color respnsis in ink blot testing and manic disorder. In **nature reviews neuroscience** (02). 343-351.

IONESCU, Serban et al (1997). **Les mécanismes de défance, Théorie et clinique**. Paris, France: Payet.

JANET, Pierre (1909). **Les névroses**. Paris, France: Flammarion.

KIENBERGER, Hermelinde (2001). **Conversion hystérique et affection psychosomatique** (Mémoire de Maitrise en science humaines cliniques), Université de Paris 7 Denis Diderot, France.

LAPLANCHE, J; et PONTALIS, J.B (1967). **Vocabulaire de psychanalyse**. Paris, France: PUF.

LEVEILLEE; et al (2008). L'utilisation des méthodes projectives. In **revue Québécoise de psychologie**, 29, (02), Université de de Québec à trois Rivière, Belgique, 05-10.

MARTINROCH, Clémence (2020). **Les troubles obsessionnels compulsifs physiopathologie et prise en charge thérapeutique** (Thèse pour obtenir le diplôme d'état de docteur en pharmacie), France, Université Clermont Auvergne.

PERRON, Roger (1979). les problèmes de la preuve dans les démarches de la psychologie dite clinique, Plaidoyer pour l'unité de la psychologie**.** In **psychologie française**, 24 (01). 37-49.

PERRON, Roger (1981). Notes sur la notion de structure. In **revue française de psychanalyse**, *XLV, 1059-1065.*

PERRON, Roger (1997). **la pratique de la psychologie clinique**. Paris, France: Dunod.

PERRON, Roger (2015). **Genèse de la personne**. Présentation de l'édition algérienne par Ait SIDHOUM, Kh. Alger, Algérie: Edition Amerdil/ Creapsy.

RAUCH DE TRAUBENBERG, Nina (2015). **La pratique du Rorschach**. Présentation de l'édition algérienne par Ait SIDHOUM, Kh.Alger, Algérie : Edition Amerdil/

Creapsy.

ROMAN, Pascal (2015). **Le Rorschach en clinique de l'enfant et de l'adolescent,**

approche psychanalytique. 2ème édition. Paris: Dunod.

ROMAN, Pascal (2016). **Les épreuves projectives dans l'examen psychologique**. Paris, France: Dunod.

SAMI-ALI, M (1970). **De la projection, Une étude psychanalytique**. Paris, France: Payot.

SAMI-ALI, M (1986). **De la projection, Une étude psychanalytique**. Paris, France: Dunod.

SAUTERAUD, A (2005). Trouble obsessionnel compulsif le manuel du thérapeute, Paris, France: Edition Odile Jacob

SHENTOUB, V (1973). Introduction théorique à la méthode du T.A.T. In **bulletin de psychologie**, 2- (305). 582-602.

TAZI, Kenza. (2018). **Nouveautés dans le traitement des troubles obsessionnels compilsifs** (Thèse pour obtenir le diplôme d'état de docteur en médecine), Rabat, Maroc, Université Mohamed V.

VASCONCELLOS- Bernstien, Doris (2012). Identité sexuelle, les angoissesspécifiques à la masculinité et féminité. **In Revue l'information psychiatrique**, France : John Libbey Eurotext. 88 (09). 727-734

WEILL-BARAIS , A ; et al (1997). **Les méthodes en psychologie**. Paris: Edition Bréal.

الملاحـــــق

ملحق رقم (01): لوحات اختبار الروشاخ

اللوحة I

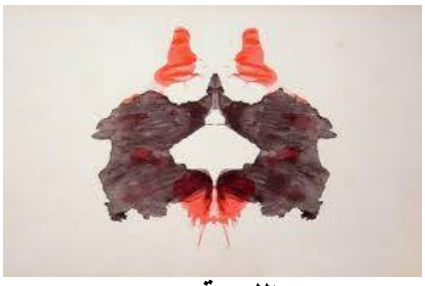

اللوحة II

اللوحة III

اللوحة IV

اللوحة V

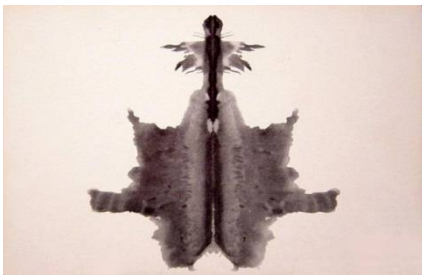

اللوحة VI

اللوحة VII

اللوحة VIII

اللوحة IX

اللوحة X

ملحق رقم (02): قائمة المصطلحـــات

اختبار إسقاطي	Projective test
اختبار الروشاخ	Rorschach test
إدراك	Perception
إزاحة	Displacement
استجابات الظّل	Shadow responses
استجابة شائعة	Popular responses
استجابات الفراغات البيضاء	White-space responses
إسقاط	Projection
إلغاء	Cancellation
الأنا	Ego
الأنا الأعلى	Super-ego
انشطار	Cleavage
أعراضية	Symptomatology
بسيكاستينيا	Psychasthenia
بنية نفسية	Psychic structure
التّحليل النّفسي	Psychoanalysis
تحييد	Neutralize
تخيل	Fantasy
تشخيص فارقي	Differencial diagnosis
تفريغ	Discharge
تقمّص	Identification
تقمّص إسقاطي	Projective identification
تقنيات إسقاطية	Projective techniques
التّكثيف	Condensation

تكوين التّسوية	Compromise- formation
التّكوين البديل	Substitutive formation
تكوين العرض	Symptom formation
التّكوين العكسي	Reaction-formation
تمثّل	Representation
تناقض وجداني	Ambivalence
تنبّؤ	Prognosis
تنظيمة نفسية	Psychic organization
التّوظيف النّفسي	Psychic functioning
توائم متآخية	Fraternal twins